

حيدر حيدر

رواية

الزمن الموحش

دار أمواج



حيدر حيدر

الى الصدقاء في منتدى ليلاس
مع التحية
bader

الزمن الموحش



- الزمن الموحش (رواية)
- المؤلف: حيدر حيدر
- الطبعة الرابعة شباط ١٩٩٣
- جميع الحقوق محفوظة
- الناشر: دار أمواج للطباعة والنشر والتوزيع -
هاتف 802389 - ص.ب 13/5264 - بيروت - لبنان.
- التوزيع: مكتبة بيسان -
هاتف 865126 - ص.ب 13/5261 - بيروت - لبنان.

تقديم

- مراسيمُ دُفن -

لأنَّ الزمنَ يقهرُ الزوايا الحادة ،
ويغلقُ الجراحَ
أريدُ أن أنسى الزمنَ العاريَ والقاتلَ ،
زمنَ العصورِ الأولى
زمنَ نتراتِ الفضةِ المتآكلة ،
ومفتَّتِ العظام
زمنَ الفصامِ بين السَّرةِ والتاريخ
زمنَ الإبرةِ المرتعشةِ يحنون
في ساعةِ الصفر
زمنَ الصِّلاتِ المشتتة
زمنَ الحياةِ الزائفة
زمنَ الخجلِ من التمدُّدِ في نقطةِ البلاء ؛
الزمنَ الذي حُشِرنا فيه داخلَ الفقر
كما يمتلئُ المرءُ بالغاز والكهرباء ؛
الزمنَ الذي انعكسَ فيه الخلودُ رأساً على عقب
والذي لم يعدْ فيه صولحانُ الموتِ ينقرُ أدمغتنا .
الزمنَ الذي كنتُ فيه أسمنُ بوحشية

وأنفخُ تحتَ الشمسِ ،
 زمنَ الدموعِ والقلقِ
 زمنَ المشي خلالَ النومِ ،
 الزمنَ الذي أرغمتنا فيه على اختراعِ أذنٍ ثالثة
 لكي نصغيَ بها
 إلى ما يقوله قضيبُ الزمنِ
 وهو يدقُّ رؤوسنا
 بقوة الشرسة
 والذي انتدبته الأبدية ليكسرَ ظهورنا .
 ولكن ...
 لأن الزمنَ يُشفي تلك الجراحَ
 ويسوي الجراحَ ،
 فإني أرغب في تشييدِ دعامةٍ للزمنِ ،
 أنا المنفي عن الزمنِ
 والمطروء من العصور السالفة .
 أريد الآن أن أعيدَ إليه الكمالَ ،
 أصير وتينهُ المقدس
 لأرى كيف تتسعُ أملاكي ،
 وتستيقظُ أرضي المليئة بالظلال
 وتفرغُ نفسها كمخزنٍ بلا حدود ،
 ينتظرُ مجيءَ العصور ..

« شاعر من أفريقيا »

الفصل الأول

- ١ -

ها هم قادمون من الجبال والسهول زحفاً باتجاه المدن . في عيونهم غضب . وعلى
جباههم غبارٌ ومجدٌ مُتَظَر . في الرياح تحفق راياتهم وأصواتهم الجلييلة تملأ سمع العالم .
تحتهم ترتعش الأرض ، ونفوسهم مفعمة بالأمان والغبطة .

بخطى واثقة ، كما يتقدم موج غضب نحو شواطئ مجهولة ، يتقدمون . لواء
فرحهم معقود وأنا حاديههم ، ومعنا مسرة وينادق ، كتب وسجلات فقر ، زحفاً
باتجاه المدن التي سقطت تحت ضربات الطلائع الاولى .

بلهف حار نتقدم ، ومعنا أغنيات واطفال . معنا اشواق كانت محتجزة ، غير
مُبالين بسياط الرياح والنبوءات العتيقة ، مُعمدين بأشعة شمس جديدة هي ذي
تشرق من خلف المضارب الرمادية المنسية ، مباركة الفقراء والرعاة ، المنبوذين
والخفاة ، الصُنَاع والمظلومين وجميع الذين هبوا على صوت التاريخ فيمّموا شطره
فجر ذلك اليوم المدهش .

الآن يبدو العالم صحواً أكثر من أي وقت مضى . صحو يشبه هدوء بحيرة
غباً إعصار أُر ثم اقترّب ثم هبّ بكل عنفوانه ووحشيته ، وأخيراً توارى . كل ما
بقي هو آثار أعصار عبّر داخل النفس مخلفاً الحطام والسكينة وبعض غبار الحزن
الطللي .

إنني أتذكر الآن بهدوء تام كيف نفخت الريح في تلك الأودية ، كيف
ضربت بكل شراستها وأنيها الموجع أبواب الكهوف المتناثرة والمظلمة ، فأيقظت
السُّبَات الدهري العميق لآلاف الأحاسيس التي كانت غافية ، ثم فجأة لم يبق غير
الصدى النائح فوق البوابات التي عاودها صمتها القديم .

مثل سراب خادع يلمع فوق سهوب بعيدة. سراب يمتد ويمتد، هكذا يبدو الآن ركام الحكايات، شفافاً، لا معاً، عصياً على اللمس، عصياً ربما على الإدراك. حكاياتنا التي أفلت في غروب يوم كتيب مع شمس دمشقية تنوي بلا استئذان خلف قبة قاسيون الأجرد.

سيمضي وقت طويل قبل أن أستطيع إدراك كُنه تلك العلاقة الأثمة والطهرانية التي يخيل إليّ الآن أنها قد جمعتنا. إنني أستعمل كلمة الجمع لا الالتحام، لا لأن ما حدث كان محض صدفة عابرة. إنما لأن الإنسان يبدد عمره باندفاع حار شوقاً إلى حالة دائمة من الاندماج الكامل مع شيء ما، ربما مع نفسه. لكنه يكتشف في النهاية أنه قد خاض حرباً خاسرة، أضاع خلالها شيء نفسه، وأن العالم ليس أكثر من أصداء تتردد كالنواقيس في كاتدرائية النفس المصدّعة.

الآن. وليس هناك غير صحراء بلا شجر ولا ماء ولا أنس، علي أن أكون متماسكا كقديس يستبطن في أعماقه زنديقاً، وأنا أنحدر الهولنا عبر رمال سراية مسكونة بصمت الاصداء ورياح الخماسين الجاحمة، الملتبّة.

عندما كانت بقربي في أصياف وشتاءات الايام التي تصرّفت الى غير رجعة، كان يخيل الي أن حضورها مُتّسم بخاصية الخلود، ومن أجل هذا الاحساس الخفي كانت المشاحنات تعكر صفاء دقائق الزمن التي حوّمت في سماننا، دون أن يضع أي منا في نفسه معادلاً سلبياً لذلك الاحساس المتفائل. وهكذا كنا نفترق طويلاً، ثم فجأة على غير موعد نتقابل وجها لوجه عبر شارع ما أو بيت، واذ بكل غفران الأرض المُسامح يشع حزناً ولهفة من عيوننا، فنغيب في عناق حار، لذيذ، عاتب.

لقد رحلت. غابت كحلّم هاجس النفس في ليلة صافية، ولم يبق غير الطيوف والتهويمات تهتر وتهتر مثل زلزال عميق يروجّ الاغوار السحيقة فترتعش الذرات الباطنية التي فتتها هبوبها السافي الحزين عبر فصول النفس.

هل كانت حقيقة؟ هل كانت وهماً؟ هل كانت ريحاً؟ هل وجدت بأبعاد مادية أم ان الذاكرة هي التي خلقتها ولونتها؟ أم أنها كانت مزيجاً من الحلم والحضور والرمز؟

عندما سألتني: لماذا قلت جدار الزمن؟

قلت: معك دائماً كنت أحس هذا الجدار.

كانت تجلس بقربي على الخوان المزركش، واذ راحت تحكي عن طفولتها، وحياتها الماضية المتعبة والحزينة، كنت أشتاف لحمها المحروق بشمس صيف دمشق الحار.

مذ عرفتها امتلكني طفولتها النقية. كان لها شفة سفلى رائحة الوميض، مومنة، وكان وجهها مسكوناً بالأسى. وهي تحكي لم تكن تسألني، بدت غير معنية بسماع شيء مني. واستمرت تتحدث عن نفسها: الطفولة والمعاشرات اليومية، والناس الذين تخيلوا أنهم عرفوها.

واذا سألتها فجأة: اسمعي. هل أنت حُبلى مني؟

تابعت تروي حادثة أوشكت على نهايتها كأنما سؤال لم يُلقَ، وعبوراً قالت وهي ترمّ شفتيها: ليكن. سوف أرميه لك! واستمرت في حديث آخر.

إلى ذاكرتي وثبت قصة طفلتها التي رمتها في القاهرة من زوجها الذي مات. قلت في نفسي: ربما هي الآن حقيقة أكثر من أي وقت مضى.

قليلة هي الأشياء التي كانت تعرفها عني. وفيما مضى كان هذا الإهمال النرجسي يسبب لي أذى خاصاً، لكن هذا الإحساس بدأ يتبدد بعد أن أدركت مركز إصابته الداخلية. وبعد اكتشاف أن الإنسان يختنق وحيداً في هذا العالم. أشياء كثيرة كانت مستورة علمتنيها دمشق: على الأقل ان ما في رأسي مختلف تماماً وإن علاقتي البشر تشبه إلى حد كبير كشيّات الرمل.

شعرت بشيء من السخف وأنا أبدأ الترتة عن طفولتي.

كان الحديث قد انتقل إلى المطر، وبرومانية مبهجة قلت: المطر يخلق إحساساً بولادة الحياة بعد موتها في الصيف. ثم ثرثرتُ أشياء أخرى عن رنين المطر على الأسطحة، والنوافذ في الليالي العميقة، وإحساس الإنسان الطفل وهو يسمع ذلك الرنين.

وقالت: أحب المطر.

واذ أوغلتُ في الحديث عن أيامي في الأصياف التي مرّت بين قريتي وسهولها البحرية، وأبي الذي مات، ونخيام الصيف التي كانت تهجع في ذاكرتي، وتعب الفلاحين الفقراء، شعرت بنوع من الذعر: «ها أنت ذا تتحدث أخيراً عن نفسك!»

- تحدثني أنت!

كانت تستلقي على الفراش ، رافضة أن تتعري تماماً وأنا متكئ بنصفي فوق جسدها الممدد ، أنحلب شهوة لامتناهية جذعي ثدييها الصليبين المتقلصين ، النافرين خارج قيصها الداخلي .

- ثدياك كالطر. قلت ذلك بمجانبة غير مرتقة . ثم داهمني صمت مفاجئ إثر هذه العبارة غير المقنعة . واستطال الحديث منها .

إنني أذكر الآن كيف كنت أنصبها داخل كهفي القديم ، متوهجاً برائحتها التي تشبه رائحة الزيزفون البري ، مدركاً بعد لحظات بأنني مقبل على الانقار في جحيم جسدها ، مولدين شرارة تشبه الموت الفجائي ، يتصب بعدها حائط الزمن بيننا .

في نفسينا وعبر جميع الأيام ، حاولت كسر ذلك الجدار ، أو إحداث فجوة فيه ، نطل من خلالها على معنى العالم المناقض للموت والمثل ، لكن محاولاتي معها لم تجد . لقد بدا عمالاً مستعصياً على الإدراك أن أخرجها من سجنها النفسي ، الشديد الإظلام .

وتابعت حديثاً كانت قد بدأته عن حياتها . فجأة توقفت ونهضت عن الفراش متكئة بكوعيا ، ومن وجهها أطلت شراسة .

قالت : لست أدري لماذا أدخل غرفتك وأنا أعلم أننا سنفترق قريباً .

- هل قلت : نفترق ؟

- أجل . قالتها بثقة مطلقة كقرار حاسم بدا أنها اتخذته منذ زمن قريب . واستطردت : أنت تعلم أنني مطلقة فقط . أليس كذلك ؟

- وأعرف أن زوجك مات .

- مات قتلاً يا سيدي . هل تعرف هذا ؟ أجل . وأثر ذلك أصابني قرف لا حدود له من الرجال جميعهم . لهذا كنت أتساءل منذ لقائنا أول مرة لماذا أدخل غرفتك وأنا معك ؟

وكما يرئ صنج نحاسي وهو يقرع بعنف ، رنت كلمة القتل في كل بقاع نفسي . بهدوء سحبت كوعيا وأراحت رأسها على المخدة : ولكن كيف حدث ذلك ؟

- قتله أخوه بطعنات خنجر من الخلف ليستولي علي وعلى ماله .

فوق اللحاف كنا مستلقين الآن . ثلاث مناطق من جسدها عارية ، وزندي يحتوي عنقها ، ورائحتها تهب متغلغلة عبر مسامي ، بينا صدرها المرمي يحتاجه نذير نشيج .

كانت رائحة الموت الكريهة تموج على حواف رائحتها المثيرة ، وكان واضحاً في تلك اللحظة أن النفس تجاهد لإبعاد رائحة الموت ، وأن القرف الذي شال وعكر الصحو الذي كان ، قد أخذ على مهل نار جسدها .

راحت عيناها تجوبان بعض مناطق السقف ، وصورة القتل تتناوب مع صور أخرى ما عدت أتذكرها بكل تفاصيلها ، فقد كانت سريعة الأمحاء فوق سطح السقف الكامد ، وكانت تلك الصور تأتي تباعاً وخلالها تظهر « منى » ونخني ، تارة في ثوب العرس وتارة متشحة بالحداد ، تتناكبها أكتاف بشر قلقين لا ملامح لهم . ظلت هكذا مسترخياً محدقاً في الصور الغريبة والتي تتوالد بلا أي ضابط ، وهي ملتحمة بي تنفس ببطء ، حتى غفوت .

□

- منذ سنوات قررت التلذذ بعذاب نفسي . لم يعد بإمكانني الانتفاء إلى أحد : الحب هيه . قل هل تستطيع أنت أن تحب ؟

- قادر أن أحبك طبعاً !

- إسمع لا أريد أن أسبب لك جرحاً . يكفي ما في النفوس من جراح . بالنسبة لي انتهت هذه الحكاية السخيفة .

كنا نجلس الآن متواجهين هي على الخوان وأنا على كرسي ، وفي ذلك الوقت كان الرجل هاجسها الأبدي ، ولم يكن يبدو أن موت زوجها هو الذي يقلقها ، وتناولت من محفظتها صورة : أنظر . كم هي رائعة !

وحدثت في الصورة . تذكرت أطياف السقف ، وأن هذه ربما عبرت وهومت في ذهني . صورة أختي التي ماتت بالربو وهي طفلة وحزن أمي المرير عليها ، وتوضح لي أن أختي قد عبرت بين الأطياف : تشبهك . ما اسمها ؟

- ميسالينا .

- أين هي الآن ؟

- في القاهرة .

واستعادتها. ملياً حدثت فيها، ثم ضممتها إلى صدرها: لا أحد في العالم يستحق حيي إلا ميسالينا.

- لماذا لم تأني بها معك؟

- أخذوها عنوة بعد موت أبيها.

بعد صمت قليل سألتها: هل تشعرين الآن أنك ما عدت منى الماضية؟ وتهتدي. لفت ساقاً فوق أخرى: بل صرت أشعر بلا جدوى أي شيء. في ساعات الصحو أتساءل: ما نفع الإنسان من كل حياته ومن كل الإخلاص الذي يُفني عمره فيه. لقد عشت حياة صاخبة عرفت خلالها أنماطاً مختلفة من البشر. عاشرت الجميع في مخادعهم السرية، معهم سرت في الشوارع وتأملت لآلامهم عندما جاعوا وطوردوا وسُجنوا وضُربوا، فإذا كانت النتيجة؟ حياة طويلة بدت ككذبة. كنت مخدوعة ومُهانة. هل تصدق لو قلت لك: أتمنى أحياناً لو أنني ولدت خارج هذا الوطن؟!

بهدهو كنت أستمع إليها، وقد ارتدت فستاناً معرقاً ربيعياً يحبك كلية جسدها، كانت وهي تحكي تداعب ذوائب حزامه.

قلت مازحاً: فستانك رائع. لكن جسدك أكثر بهاء. هل سمعت هذا في الماضي؟

في عيني ثبتت نظراتها. وبطفولة مزدهرة، مفعمة بالسخرية، ابتسمت ولم تُجب.

كان الناس يعبرون فوق الأرصفة، وكنا نراهم من النافذة، والرياح الصيفية الجافقة تحرك أعالي الأشجار.

بهدهو تقدمت نحوها. بين راحتي رفعت وجهها المنكب على الأرض: لماذا تبكين؟

بين أناملي انسابت قطرات ساخنة. مسحت عينها بظاهري، وبحركة عذبة خفيفة دغدغت شففتها: هيا ابتسمي منى. ابتسمي. لست وحدك الجريحة في هذا العالم.

- ٢ -

دمشق لا أروع ولا أحزن. كبنيلوب تبدو في هذه الأيام الحبلى بالتوقع. وحيداً أعبر الشوارع. متفجعاً على القمامات وراصداً الضمير التحتي لهذه المدينة العجائبة. المدينة الشبيهة بصندوق الدنيا.

ها قد مضى زمن لا بأس به بعد أن طوّحت بقدميك فوق أرض الشام، وعبرت تحت الأقواس العارية من الباب الشرقي للمدينة. لقد تمّ الدخول بلا أية مراسيم إلى الوطن الذي توفّع زمناً في مسرح الذاكرة.

التحدث عن القهر الداخلي والدروب الملتوية، يحتاج كثيراً من الشجاعة، ولأن الأمور ما عادت تسير على النحو الذي تريد، صار الخيط الفاصل بين الشجاعة والقبول معرضاً للاحتراق في أية لحظة.

- «المهم أن تحتفظ إلى أكبر مدى بالتماسك واستمرار الرصد بسرية خاصة».

بلا أي تخطيط مسبق كنت أضغط بعنف زر الجرس. فجأني وجه مسرور التابوتي وقامته الحورية: أهذا أنت؟

- ملعون دينك مضى أسبوعان ولم نرك! واذا أنهى احتفاله المبالغ، عقلت له ابتسامة نبتت على شفتي وأنا أنحدر على الدرج نحو قبوه.

- مرحباً. ودخلت.

الغرفة رومانسية، في جدارها مكتبة، محاطة بأرائك وطفانس. وعلى الجدران لوحات كلاسيكية، وفوق النوافذ ستائر من طيلسان برتقالي.

- أين كنت؟ سألني.

- في دمشق.

ونهنه ضحكة عفوية لا تعرف الخبث. ثم انفتل خارجاً من الغرفة. ودخلت زوجته.

- هاه... مرحباً. عاش من شافك. كيفك؟
وسلمت.

ابتسمت. رفعت إصبعي محيياً: وسط.

هدلت شفتها السفلى الرقيقة وهي تجمع تنورتها الضيقة، وجلست. أمد يدي ومن جيبي أنتش لفافة. أتذكر أن علي أن أقدم لها سيكارة: خذي من هنا. نشعل لفافتين ويرتفع خيط من دخان.

تعبرني حالة ركود. نسيان خاص. توقع جديد لأشياء جديدة. ويقبل مسرور.

ملياً نتحدث. قليلاً جداً عن الأدب، وكثيراً عن الوطن والثورة والناس. ثم نصمت.

خلال ذلك تتحرك زوجة مسرور قاطعة صحراء الصمت.

رويداً بثقل الجو فيزحف صمت مفاجئ، فيستلقي مسرور بطريقته البدوية ممدداً فوق كنبه عريضة.

- لماذا تتصرف هكذا؟

تقول ذلك بجحى امرأة تحب أثاثها.

ويرنو إليها هازأ رأسه، ويتسم.

- النساء هن النساء. أقول ذلك بطريقة مازحة.

وهي تتميز غيظاً تقول: أي نعم. النساء هن النساء!

أتبجح هازأً: لهذا أقول دائماً أنا عدو النساء الحميم. وتقهره فترج ضحكها العفوية البلهاء في سماء الفرقة: معلوم. كلكم يقول ذلك. وأي منكم يشتهي حتى طلاقات كهوب النساء على الأرصفة.

من البعيد عبر الليالي الدمشقية الساحرة، يوقع رنين خاص. ضربات موزونة: واحد. اثنان. واحد. اثنان. وأنت وحيد تعبر في سحر المدينة وسكونها الجليل على إيقاع الرنين يستيقظ توحذك وحنينك لسرير دافئ فيه امرأة سخية كالطر. حلم. مجرد حلم.

إذ تعود ديانا حاملة القهوة تمحي الصور التي عبرت. أقول: هو زوجك الذي يشتهي، أما أنا فأترفع عن هذه الكباثر.

وترمقني وهي تقدم القهوة: أنت طبعاً لا. نبي مرسل.

وأنده: ليتني نبي مرسل. كان للأنبياء أكثر من أربعة نساء... ينهض مسرور من ضجته وهو يقهره قبل أن أتم الأعداد العشرية: ملعون دينك. لا تكفر يا أخي في هذه الأيام العصية.

أقول وأنا أمدج سيكاري: مسرور. هل نسيت أنك ثوري؟

فيسأل: وهل الثوري كافر؟

- الثوري علمي.

وترتفع الضحكات.

منذ أشهر تعارفنا. حدث ذلك إثر زواجه من ديانا، وبعد أن تحولت دمشق إلى محطة ثابتة للذين هاجروا من حيفا وانطاكية، والذين قديموا من الصحاري والجبال فجر ذلك اليوم.

ومن أعماق صدرها تخرج ضحكة حقيقية. يطفى الفرح على وجهها فيورده.
تباعد ساقها اليمنى: إياك أن تلامسني هاه. نحن شرقيون والبنت قيمتها بشرفها.
أسألها مازحاً: هل باستطاعتك أن تشرحي لي أين يتمركز السيد الشرف؟
موارباً أحدق في حضنها كأنما بسمه على وشك الانفجار. بعينين خجلتين
افتعلت ملاحظتها تنظر نحو: أنت إنسان إباحي. أخلاقك مشبوه فيها ولهذا هددوك
بالطرد من وظيفتك.

- ٣ -

- وأنت يا مجدلوية العصر؟
بحرارة تتحرك في المقعد، تكاد تثب عنه، تحس كأنما طعنت. تدافع بحمية
امرأة شرقية تقمصتها فجأة: أنحداك. العربية الحرة تموت جوعاً ولا تأكل بشديها.
- إسمعي لا جوع ولا عطش ولا بطيخ. الجنس ألح من الظمأ والجوع،
والتي تحدثن عنها خرافة صحراوية انقضت. في هذا العصر وجبة وستان بروكار
وعلى الشرف السلام.

وفي جيبني أسل أصابعي فتصدم مفتاح البيت. ألوح به أمام وجهها. تستبشر
عينها: هذا لي. هاه؟

- مرحباً يا عربية حرة. وتنفجر ضحككتانا. وإذ تخطف المفتاح، تكون غيمة
المزاح قد ولت.

عبر زجاج الباص يلوح حي السبكي الضيق. عربات الفواكه والخضار،
حوانيت البيع المتلاصقة، وبائع العرقسوس، وبيتنا القديم.

- وأنا أعبر هذا الشارع في غيابك يغمري حنين دافئ.
بين أصابعها تفتل مفتاح البيت الجديد، ثم تدسه في حقيبتها: لم يبقَ منه
غير الذكريات.

- لو نعود!

ويجتاز الباص الحي الهاجع في قرارة الذاكرة.

[]

الماضي. ذلك التوق المفعم لم يبقَ منه سوى الروائح. تهب الآن خارجة من أعماق
بحيرة الزمن، راسمة تموجات أثرية فوق سطح النفس. أي ألم خاص يحتاجك
وأنت لا تستطيع خلقه من جديد بعد أن تصدع!

أقصى الساعات صيفاً في هذه المدينة، من الثانية ظهراً حتى الخامسة.
ساعات الزمن الميت. خلالها تحس بارتخائك العضوي والنفسي، تكاد تخرق نقي
عظامك حرارة هذا الصيف الجاف، وأنت تنسحب فوق الأرصفة مثل جثة أنتها
العرق والضجر.

كل شيء مكروه ومُعاد: الناس والأبنية، أصوات السيارات وواجهات
المخازن. وأنت.

وحدهن النساء يشعرنك بالطراوة، يخففن من وطأة هذا الجحيم الخارج من
الأسفلت والجدران وضوضاء السيارات.

رائحة مني تلفحني عبر الهواء الساخن، أشم رائحة جلدها من اندياح عرق
ابططها. متجاوران في الباص وساقانا متلاحمتان، وحوار خفيف سرّي، غامض
ولذيذ، تحدثه الساقان مع حركة الباص الرتيبة.

- فرح لأننا معاً. أهمس لمني. وتتساؤل عيني طفليتين تنظر إليّ، وتبتسم.
أشعر بأنها لم تلتقط ما قصدت إليه. أوضح لها باقتضاب أن الحب في بلادنا لص
يتوقع المداهمة.

وتضحك ثم تعقب: ولكني الامسك بلا خوف. هل تريد أن أقبلك داخل
الباص من أجل التحرر والتقدم؟

أرفع حاجبي كرد فعل مباده. أتذكر حركتي فأعود لأرسم مشروع ابتسامة.
إذ ذاك تمتد أصابعي وأقرصها من فخذها فتنه بداية ضحكة تقطعها قبل أن
تكتمل. تهمس: سأنده. يا عباد الله يا غير الدين. هذا الفاسق يقرصني!
- إياك وحق شجر السبكي والكهف لو سمعوك لرجموني.

غير أن الأسئلة تبدو غير مجدية، ولا الحشرات. لقد انكسرت فقرة من فقرات العمر. تم رسم ذلك في فصول متعاقبة.

الفصول التي تلتها فيها الأزهار ثم تذبل ثم تسقط، ولا شيء آخر. الغرفة باردة وصغيرة تحتوي سريراً وخواناً وطاولة حديد عليها بعض الكتب. بعد أن تناولت شيئاً من الخمر ارتيمت على السرير وفتحت الراديو منتظراً قدومها.

ولا أخفق القلب أو أرهف من انتظار امرأة في غرفة ضيقة. الزمن يشبه قنصاً متزواً في مكان ما، ربما في الحركة أو الصمت أو في وقع حذائها على البلاط، وربما في جيب من جيوب الرأس. وأنت مرهف كحدّ الموسى تسمع دوي اللحظات، تكاد تلتقط ديب نملة تعبر في الخارج أو الداخل، وحول نفسه بعد أن اختزل العالم وتقلص إلى غرفة معزولة كالبحر، يدور الوقت. هنيهات تومض، تحس أنك تعبر أرضاً ملغومة والانفجار متوقع في أية ثانية. وفجأة يدوي، ينفجر ممدداً من رأس المفتاح الذي صدم القفل الآن إلى رأسك.

إذ ذاك ينجلي كابوس الزمن.

معهما يدخل فرح العالم. تبدأ الجدران والأرض والسرير مزهوة بوجودها.

- إنهض لا تنغاف. الوقت قصير.

وبعنف تهزني من كفي، رامية اللحاف نحو الحائط. أتململ فأراها واقفة على أرض الغرفة. بحوية تحرك. قلب الكتب. تدير إبرة الراديو. تشعل لفاقة. وأخيراً ترغمي قربي: أرسلتك أمك من الضيعة إلى الشام لتنام؟

أطوقها فيقع ظهرها فوق صدري، أطوي رأسي وأغمرها بقبلة: متى تنتهي هذه المطاردة الزمنية؟

- هيا. هيا. لا وقت لدينا. تنخلص من ذراعي وتبدأ طقوس التعرية.

□

- حلمت يوماً أن نلتقي ليلة بكاملها مني!

- لماذا؟

- في الليل أنت مسرة عذبة. جسدك ضوء. والليل في غيابك بارد مخيف.

- أخاف الغروب!

- بل تخافيني. أشعر بك تتلقتني مني كسمكة في بحر.

ونصمت.

- هكذا أنت لا تبدلين.

- ماذا تعني؟

- عندما نحاذي حافة جروحنا الداخلية نهرين. يخيل إليّ أحياناً أن العالم في رأسك مشدوخ يشبه أرضاً شققها صيف قاس.

وتضحك.

- لماذا تضحكين؟

- لولعلك بالتحليل السخيف.

- كيف نفهم الآخر؟

- ولماذا تريد أن تفهمه؟

- كي أعرف طريقك إليه.

- لا تتعب نفسك. حلق كطائر في أية سماء واسقط فوق الشجرة أو الأرض التي تختارها. إزرع العالم ينجحك لأن الزمن يتقدم لاختطافنا.

كانت تهرب عندما نوشك على الدخول من بوابة المدار المفقود بيننا، خائفة أن يرى أحد ما دخيلة نفسها ويطل على جراحها.

نزلنا من الباص. طوقتها بذراعي ونحن نعبر شارع أبي رمانة. كأرنين كنا ننب، أصابعي تتلقت تحت ثوبها وتدغدغ ظهرها الأملس، والناس يعبرون.

لم تقل شيئاً. واجترنا الشارع. صرنا في في الصفصاف المدلى فوق بردى. وفجأة قبلتها خطفاً. كان الظل الذي تغلغلنا فيه قد أثار رغائبي. ضغطت خصرها النحيل، وتجاوزتنا سيارة مرق نورها على وجهها. انعطفتنا في الشوارع الشحيحة الضوء، وبين حين وآخر كان عابرون يمتازوننا، ولم أفك الطوق عن جسدها الملتحم بي، وبدا ذلك لذيداً وعذباً، يعطي إحساساً بالملكية رغم التجسس من كلمة: دعني.

فتاتان أجنيبتان مرتا. قلت: هما فرحتان لا شك!

- من ؟

- الفاتنان وهما ترياننا مطوقين. هكذا العشاق في بلادهم. حب في وضع النهار والليل.

زفرت ضيقاً: لا تفسر نفسك بشئ من أجلي. وحاولت التملص.
في التو سقطت ذراعي، كأنما أصيبت بطلقة.
دهني حس الانخطاف والعودة، فكابرت. كنا نسير بعيدين قليلاً.
- منى...! وتوقفت.

في الظلال كانت تسير، وحيدة، لا مبالية. لخطواتها إيقاع بطيء مكسور.
وددت أن أمزق الظلال والحزن بصوت يرج المدينة: لماذا أنت هكذا؟
لكنني قطفت ورقة خضراء، فركتها بعنف حتى صارت كذرات الرمل.
فردتها على سطح كني وقذفتها في الفراغ المظلم.
استندت على ظهر جدار، فأحسست شيئاً في نفسي يتهاوى، فتهاوت ببطء على الرصيف.

- «التكوين الإنساني لماذا هو معطوب؟ أين يكن الخلل في تلك الخلايا البشرية التي تبدو محصنة ومستورة؟ ثم أنا لماذا أسقط هنا بالذات أمام مخلوقة اشتبهت قبل لحظات الانفراد بها تحت سلم عمارة مظلمة؟»
كانت الآن بعيدة. وراحت تتباطأ. فجأة اتكأت على جدار بعيد في ظل غيضة ياسمين.

ضمدت إحساسي، وسرت منكفي الرأس أعدّ مربعات الرصيف، مصغياً لخطواتي وهي تدق إيقاعها المتعب. حاذيتها. تحللت مقاومتي، وفي جسدي سرى وجع شهوي غفور. وكبرق، اجتاحني إحساس اقتيادها والغياب في ظل ممر قريب.
فجأني صدرها الذي كان يحهش فانطفأ البرق.

- ٤ -

تلوح دمشق وجعاً متشحاً بالأسى يغطي سهول النفس، ينعكس على وجوه الناس وعلى الأيام التي مضت. يخرج من العلائق الثابتة بين الآخرين وفوق هذا الوطن المخضب.

أي جيل موسوم هذا الذي ارتنى هنا، فوق أرض تتمخض قبل أوانها:
بالثورة، والفكر، والعشق المراقب؟
ترى كم هي المسافة النفسية بينه وبين ما يريد، في وطن ما يزال منشداً نحو تراثه وارتكاساته القبلية والدينية؟

سمه ما شئت. هذا الطالع من كهوف العالم القديم، تحت شمس العصر الجامع الذي سبقه، مطلوب منه أن يستشهد أو ينسحب.

في الحالة التواسية بين الشهادة والانسحاب، كنت أقع. وفي هذه النقطة الحرجة كنت أبحث مع منى عن شيء آخر في دمشق. وقط لم أكن أبتغي مجدداً.

وفي دمشق كنا نحيا معاً في ذلك الزمن. كنا عاشقين من نوع خاص. وقبل أن نستيقظ من رومانسية الصلة التي توهمناها راسخة، فامتدت شعيراتها الماصة إلى أعماق تراب النفس، كانت دمشق ما تزال تحت ملاءة الكشف. نظرياً كنت أتصور أشياء غامضة عن المدن المركزية، حيث العالم يحيش بالعظمة والمعاناة والفهم الخالص. وعملياً كان الريني المقيم في، يبدو في وفوده على دمشق مذعوراً، صغيراً، لا يعرف بعد كيف يعوم.

بين هذين التصورين كانت أرجوحتى تتحرك، محاولاً أن أعرف ما أجهل.
أن أصل إلى التوازن والسكينة الداخلية التي أنشدها من خلال ازدحام نوايا العالم في رأسي.

واذ جلسنا إلى طاولة الخمر في النادي الصيفي، شعرت بقربي من تلك النوايا.

كانت خمرتنا العرق. ووجهانا متقابلين، وبيننا كانت الحرية. ولما رشف قليلاً من الخمر قال: عيناك نفاذتان.

وقلت: لكن وجهي كما ترى يحمل نعشاً.

وإذا كبا وجهه فوق الطاولة ليقطع الرغبة همهم: كلنا محمولون. وانقض على الطعام كنمر مجموع.

- غريب!

رفع وجهه سائلاً.

- إنك تأكل يجوع من يرى الطعام لأول مرة في حياته. من يراك الآن لا يصدق أنك أديب.

غصّ باللقمة وهو ينفجر بضحكة مفاجئة وسعل: الأديب لا يأكل؟

- بهذه الطريقة؟ غير معقول!

- على أية حال أنا لدي جوع دهري يعود إلى الطفولة. قل لي يا غاندي العرب كيف تنظر إلى الأكل؟

أقول: مهمة قسرية ينبغي إنجازها بسرعة.

يردف بشوشاً: يكفي تصوفك بمنى. هل وصلت صوفيتك حدود الأطعمة أيضاً. الأكل كالمرأة ينبغي الإقبال عليه بالشهية ذاتها يا قدوس. ألم تقرأ كيف كان أبطال همنجواي يقبلون على الطعام؟

وامتعضت من هذا التشبيه السمج. لكنه استمر يناكد: الطعام. الطعام. المذكور في القرآن والإنجيل والتوراة من الأسماء الحسنى. صلوات الله عليه، وعليه السلام، وكرم الله وجهه، كانوا يقبلون على المائدة كما يقبلون على الصلاة والنساء. أشعلت لفاقة وناولته فرفض: مع الخمر والطعام السيكاارة تستر الشهية. وتذكرت مزاجه الحاد.

□

تلك الليلة الغريبة. كم تبدو الآن بعيدة لا بالزمن الموضوعي الذي مرّ إنما بقسوة الأحداث التي انشروخت في رأسينا. شظايا من الزجاج تتراكم جارحة مستننة على طول درب الزمن بين دمشق التي كانت، ودمشق الآن. انهيار في وضوح النهار ثم بلا استئذان.

كان وجهي ينضج بالبشرى وأنا أواجهه، وكان هو شبيه طفل سُرح من بيت حُوصِر فيه منذ وقت طويل، فانطلق عبر مرج من الأعشاب والزنايق والفراش. بعبوية لعب وضحك واحتسى خمرأ، واذا اكفى سرحنا في تلك الليلة.

ذلك السريان الليلي الخدير يحتاج الخاطر الآن، يختلج كقصيدة دندن المقاطع الأولى منها على أنغام شبابه التي شجّت وانتجت عبر غربة طولها بطول العمر كله.

لم يكن القمر قد سطع من خلف النلال القائمة من الشرق، لكن النجوم راحت تنوهج بكل طفولتها. كانت القرية قد هجعت كقتيل متدثرة في تابوت الصمت خلفنا. ونحن ندبّ على الدرب المقفر نحو البراري؛ لم يكن يسمع غير صوت الخطوات والصرير المتواتر لجنادب الحقول، وذلك الندب الرائي للناي.

كنت أعتقد أنه مسحور بالعالم الغامض الذي أحاطنا بالأشجار الكثيفة وعم الوديان، وبين آن وآخر كنت أتوقع كلمة ما تحرق صمتنا الذي امتد طويلاً وسط هذا الظلام الأصم.

كسهل أسطوري ونحن نرتقي هضبة مطلة، فجأنا البحر. أماننا استوى، متوجاً بكل المهابة والاسرار كإله لا نهائي واثق متفرد، وخلفه أفق مسدود.

في الظلام شبه المضاء لحت عينيه منفرستين في ذلك السهل المرتاح هناك. حرفاً واحداً عن ذلك العالم الطقسي، لم ينبس. واذا شعر بأننا قد صرنا وحيدين التفت الي: هنا لن يسمعن أحد طبعاً؟ وابتسمت: إلا البحر وهذه السكينة. وأفضى بالسر.

كل ما أذكره في تلك الليلة أن الدهشة امتزجت بعدم التصديق. كان بودي أن اصرخ وأبكي وأسأل. لقد ولد في داخلي شيء خيل الي انه مات منذ عهد قديم. اليعازر من جديد يبعث: الثورة على الابواب إذن!

- الشمس تشرق من جديد كما يقول بابا همنجواي. هاه. احفظ لسانك وصنّه حتى يأتي ذلك اليوم. هكذا تقول تعليقات الحزب. بإمكانك أن تسرّ للبعض. أنا متأكد أنك فرح.

- من كان يصدق أن محترفا للحزن مثلك يأتي بكل هذه الغبطة القاتلة ويقذفها هكذا فجأة. اجل انني فرح يا عزيزي. فرح ومسحور كهذا البحر ولكن...

- اعرف. اعرف. كنّ متأكداً واحتفظ بالسِر. هذا يكلف غالياً.

بعد أن سرنا في طريق العودة انحلت عقدة المفاجأة والدهشة. سألته كيف صمت كل هذا الوقت. كان قد اكتسى حالة مريحة بعد انكسار طوق الصمت، فبدأ منشراحاً وأفهمني بأنه كان سينفرد بي في نهاية السهرة بعد أن تكون صبايا القرية وشبابها قد ناموا مع الدجاج. واذ سألته: لماذا أضفت شبابها؟ قال صاحكاً: تمويهاً يا كاشف الأستار. العياذ بالشيطان من نوابك الإبلسية.

في البيت كان الاصدقاء ينتظرون عودتنا. لم يبال بهم. سألوه بعض الاسئلة فأجاب بشكل فظّ وأردف: معذرة أنا نعس ومتعب. على عجل ارتدى منامته واستلقى على السرير. شبك كفيه تحت رأسه وراح يحرق في السقف. بعد حين تناول الناي. توخّد معه ورمى بالآخرين في قاع النسيان. لقد تصرف في تلك الليلة كممثل يُتقن دوره تماماً.

كان النادي محتشداً، وفي عبّ الأشجار المنتشرة على حوافه علّقت مصابيح كهربائية صغيرة بألوان مختلفة راحت الريح تهزها، وفوق الأشجار انفسحت سماء مضاءة.

أفصحت له عن رغيتي في التعرف على المثقفين، فأنا أسمع عنهم وأقرأ لهم فقط. فقال وهو يلكز الزاوية اليسرى من فمه: سريعاً ما تملّهم. أنايون وعدوانيون ومنقسمون. دعك منهم.

قلت: أنا لا أعرفهم. وابته غامزاً: لكنك تعرفني.

في الايام الاولى من تعارفنا توجست منه. كان لا يُجاري في المباحكة والقدرة الخارقة على اصطفاء الكلمات، وكان يمتلك طاقة خاصة للنفوذ نحو الداخل. منذ الدقائق الاولى للقاء كان يجهد في استقطاب قراءاته وتجاربه ويبدأ لعبة التحليل.

وسواء أكان مصيباً أم مخطئاً فسوف تسمح له وتنكش أمام طغيان أحكامه المتميزة. كان في صوته وطريقة حديثه رنين مقنع يرغم على الاستجابة له.

بعد أن انتهى من الطعام مسح أصابعه بقطعة خبز. تجشأ وهو يتناول لفافة وطلب ان أشعل له. سألته لماذا يتيم المثقفين على هذا النحو وهو منهم، فhez رأسه قائلاً بأنه لا يتيم أحداً وان المثقفين في البلدان المتخلفة يعيشون عالة على المجتمع: حفنة ثرثرة تتحدث في النظري بعيداً عن واقع وآلام الناس. القراءات الضحلة حولتهم الى ممثلين كاريكاتوريين وأدعياء يرون العالم من أعلى. أنا لا أدِينهم ابداً فقط أشرح حالتهم النفسية وأنا أهوى علم النفس التحليلي، هذا كل ما في الامر. قلت: وماذا عنك؟

واخترقني بعينين فيها بريق غريب، ثم انخطفت عيناه مغطياً ارتياحه بضحكة تحمل ايقاعاً مؤسباً: نخبك. ورفع كأسه. بعد امتصاص الخمر امتعض: أية خمرة رديئة وسامة هذه!

- العرق أقل المشروبات مضايقة في النهار القادم.

- منذ متى تشرب الخمر؟

- بالتحديد لا أذكر.

- تبدو سكيراً أصيلاً.

- بالوراثة ربما.

- هل كان يشرب الخمر؟

- بالخمر مات. ظل يحتسي الخمر طوال أربعين عاما حتى تسمّم الدم.

- كان خائباً في حياته لا بد!

- اذكر له كلمة لا تنسى: حياتي ليل طويل لا فجر له. سأموت ولن أرى يوماً أبيض قالها منذ زمان طويل في خيمة قرب البحر. يومها كنت صغيراً لكنها انخفضت في ذاكرتي كموت.

- يبدو أنك ورثت ذلك الليل. وأردف: حياة الانسان في العالم-كما يقول ماكبث-حكاية يرويها أبله مليئة بالصخب والعنف.

كانت الجلبة في باحة الحديقة تزيد ثقل الجو المحيط الذي طوقنا، واقترحت أن نخرج الى الشوارع هرباً من هذا الضيق.

في شوارع دمشق المضاءة والمعتمة، ترنحنا. قليلاً نحدث، وكثيراً بدت الجهمامة والاسى في روائي وجهه المحروق. وبشبابته توجع بأحزان دمشقية سكنته منذ أيام الجامعة.

كان يسير قربي، لكنه كان وحيداً كغصن مقطوع من شجرة ماتت. ولكنه كان عاشقاً.

- عندما تصبح المرأة وطناً ورواية وأماً. بكآبة رمى جملته في الفراغ. وهو ثمل بأحزانه، ووجع خيياته الماضية التي ركمها الزمن داخل كهوفه.

- وعندما لا تطال ذلك الوطن!

كان السكون يوشع دمشق. وانعطفنا عبر الازقة الضيقة.

مذ نال شهادته الثانوية فقد بيته وهاجر. حتى الاصدقاء والمدن ظلوا غرباء. وقليل من الامان نما في نفسه، وقليل من صحابه ركن، واحتوته المدن الغريبة، لكن دمشق ظلت عشيقته السرية التي لا يطاقها. كانت موئل حكاياته القديمة، والمدار الذي يصحبه بعيداً عن وطن طفولته بعد أن ماتت أمه وانطوى أبوه في تراب الذاكرة.

- مذ ماتت وأنا أعشق جميع النساء بحثاً عنها. نادراً ما أرى أحلاماً، لكن جميع أحلامي كوايس.

- هل تراها في أحلامك؟

- دائماً ارى نفسي معها.

- وامتد صمت. قطعه: لماذا يحدث ذلك؟ أنا أيضاً ما أزال أرى أبي الذي مات منذ أربعة عشر عاماً في أحلامي. وقال: أرى نفسي داخلياً فيها.

- وأنا أراه ينهض حياً ويعود إلينا. نادراً ما أرى أمي.

- ربما كانت أمك سيئة. أما أمي فكانت ملاكاً.

- وابوك؟

- كان اصماً.

□

ليالي دمشق مرايا وأشواق ومكن أسرار. بعد الثانية عشرة يهيم صيفها الباسميني الليل، فيورق الجسد بالحوية والحركة، تنظلل النفس بالاسى وبعشق وهي منتظر، يشيل في النفس شوقاً لامرأة وحيدة في غرفة يانعة بالضوء الباهت ومسررات الجسد. حلم. مجرد حلم.

ها هم يعبرون. يتزعمون فوق الارصفة وفي عرض الشوارع. مخمورون. عشاق. مقامرون. وخزاني، يضرمون النار في هشيم الزمن فيتألق ظلام دمشق بالذكرى والوجع السري.

- دمشق مدينة الوجع.

- دمشق مدينة الف ليلة وليلة.

وانفتل نحو بيت اخيه.

سمعت خطواته تدق الدرج بإيقاعات موجمة، بينما كنت أنكفي وحيداً نحو غرفة «امينة».

ثلاث نقرات على خشب الباب الموصل. أن السرير ثم خمد، ووهنت خطواتها الفزعة. صرّ الباب بوجل، وزمقت في العتم. عانقتها والخمرة في رأسي وهج ودوار.

ضممتها بقوة فانطوى لحمها مضغوطاً تحت وطأة جسدي. تحت ثوبها الليموني الناعم، بحركة غريزية، أدخلت ساقى اليمنى، تخلصت من وحشيتي الشهوية، وابتعدت قليلاً وهي تهمس: لم ينم بعد. على مهلك.

- ما زال ساهرا يشرب؟

وأومات برأسها، ثم قادتني نحو الخوان الملتصق بالجدار. جلسنا متلاصقين. لحمها الطري تحت يدي، وفي الظلمة انطلقت كلماتنا المجنونة: كالمعتاد أنت مخمور أبداً.

وقلت: أحترق شوقاً إليك.

- دائماً في جسدك حريق.

- ما ذنبي إذا ما كنت شهية كفطر البراري يا أميري الجميلة.

وقرصنتي مبتسمة بعدوبة من تتلقى عشيقاً في أواخر الليل، لن يلبث أن يلهب جسدها الغافي الحزين.

في الغرفة المقابلة كان زوجها يسكر ويسعل. نور غرفته يرمي رشاشاً من ضوء
نعس نحو غرفتنا.

[]

وغباً جميع الليالي التي جمعتنا، كنت اشعر بالذنب. لا لأنني اعطي
جسدها المهجور الغبطة والحياة، انما لانطفاء حي لها بعد موت الحيوان الناعل تحت
جلدي.

وفي القرارة ما كان هناك أي اثم ديني رادع؛ كنت أبقي كحجر بعد أن
ننتي، احدث في فضاء الغرفة والظلام، والطفلة النائمة، ثم أنعطف الى نفسي،
كأنما رغبة لعينة تهيب بي أن اهرب عارياً في شوارع المدينة، بعيداً عن هذا
الاسترخاء وعن هذا الزمن الذي تحجّر بيننا.
واذ اعجز، يصرخ بي وجع غاف: لو نعود الى الثواني الاولى، الى لحظات
ما قبل الموت. ونظل هناك!

في صمتي وبعد ان تمحي اللغة على تخوم الجسد، تخضر مني، فيظل ذلك
الانهدام القائم بين عالمين متناهين عطبها الكوني عصي على الرأب. تتحول الاسئلة
والحوارات الداخلية الى نوع من صكوك الغفران والتأنيب.

هي ذني رمم العالم القديم، والشموس الجديدة، وروائح القيم المضادة
للرغبات، تحاول ان تظل من مداراتها، فتتحول النفس الى ساحة حرب.

أأنت تخدعها اذ تقول لها: أحبك؟ وأنت تود أن تقول: أنت ثأري
الخاص. وبطفولة امرأة سحقها الزمن، تحكي لك انها هجست بك منذ اعوام
طويلة. منذ دخل البرد والوحدة وهجما في سريرها. وانها كانت غريقة تغوص نحو
القاع يوما اثر يوم كحجر منسي، وفي الاحلام كانت تراك مقبلاً عليها فاتحاً
ذراعيك لتضمها الى صدرك العاري وتسحبها نحو سطح الحياة، الى الدنيا المضاءة
بكل افراح الانسان.

- كنت احس انك مسافر ولا يد أن تعود.

- أنا؟

- أجل انت بلحمتك ودمك. عيناك نفسها وشفتاك وصوتك الدافئ.

ونمسح وجهك بأصابعها الرقيقة، تغلغلها في الشعر والصدر، ثم تمسح
وجتيتك ونهمس: حبيبي متى نتزوج؟

- انت شهواني.

- وأنت مثيرة.

- تلتذد معي؟

- احس بالموت.

- وماذا تشعر ايضا؟

- بدوران الارض واهتزازها.

- وبعد الدوران؟

وضغطت ما بين ساقيها مبدداً الجواب. رفعتها ومددتها على الخوان. همست
مُخرجةً وهي تلتفت نحو السرير: انتظر ما تزال مستيقظة؟

كانت ابنتها مستلقية على طرف السرير وقد دفعت اللحاف وطوته تحت
قدمها، مستديرة نحو الجدار كأنما تفسح لنا عن غير ما قصد.
- خائفة.

- متى يرحل خوفك؟

- اخاف حتى الموت. عندما نتزوج تصبح حلالتي وأماني.

بعيداً أوغل اصابعي. أدعها تسوح عبر مروج حريرية عذراء، وييدي
الاخري اجمعها صوبي ثم أغور فيها. كلها ملكي. كذلك الليل والعالم. في جميع
ذرات جسدي يرتقي شوق طبيعي يطلب التلاشي. كنت مسحوراً معدداً بالبهجة.
مركزاً في هذه اللحظة التي تشبه الغياب المطلق.

وما كانت تملك مشيئة.

منذ عامين سقطت ارادتها في بيت آخر قائم في الضواحي بين الاشجار
والنهر، عندما ودعتني الى الباب.

في تلك الليلة قبلتها فقط، بحمي متوحشة على فها وعنقها ووجهها وخلف
أذنيها وبين ثديها. وفي ذلك المساء عرفت أول ذهول جسدي كما عبرت فيما بعد؛
بقيت اسبوعاً مدهوشة لا تصدق ما حدث، وفي نهاية الاسبوع استفاقت عارية بعد
ان اعطت جسدها ونفسها بجمرة امرأة لها زوج مخمور مسن، هجر مخدعها منذ
اكثر من عشرين عاماً.

على الارض مارسنا الجنس الانساني العذب، وكامراً مهجورة، جسدها
لم يتفتح بعد، كانت حارة وحيوية.

كالصفحة يهوي السؤال. اسأل مني السؤال نفسه فتصمت. تدير ظهرها وتمضي.

لحظات وأتخلص من طوق ذراعيها، ومن اصابعها الهرمة. أتجه بهدوء نحو الباب وهي تودعني. خطواتنا واهنة والليل داخل جسدنا خرابة مهجورة: قبلني. مع الجسد كان الحوار. حدث ذلك تعثراً. حرف واحد لم يكن له معنى بعد طقوس الخرق. ولو قلت لها الاصحاء وحدهم المؤهلون للزواج ونحن عارض مرضي، لاعتقدت انني اخاتل هرباً منها.

من اجل ذلك استمر احساس الخيانة وتعمق الائم. وعلى مدى الزمن ظلت مني وريثة الله في أعماق نفسي وظلت أمينة الجرح.

[]

وفي زمن ما كانت أمينة صبا مشرقا كشمس تولد في صباح شتوي. كانت تموج برغبات تنزع لتسرح تحت الشمس: تخرج متى شاءت. تتراد السينما والبراري المعشبة. تحب من تنتقيه في الاماسي والنهارات في الشارع والمقهى، في غرفته الخاصة وفي بيتها. واذا تعب منه وتضجر، تهجره وتبحث عن مسرة اخرى.

لكن أمينة كانت تعيش في عالم يراقب بصيص عينيها، ووقع قدميها، وتسلسل حصلة من شعرها خارج حجابها الكالح. طفلة سقطت خطأ في بيت متعصب يوما، في وطن متعصب، وكان الرعب الذي ساح مع دمها منذ الطفولة، هو الرجل الذي صوروه لها. الرجل الذي يفترس الطفلات على دروب المدرسة وفي البراري والسينما. لذا كان عليها ان تتوارى داخل بيت ثقوب نوافذه كخرم الابر، توصوص منها في ساعات الغفلة بانتظار بعلها الشهم.

وقالت: عندما نمت وأفعمت الرغبات الصغيرة جسدي ونفسي، اختارت لي أمني زوجا يزيدني عشرين عاماً. رجل تافه، غبي يعاشر العاهرات، ولا يعود الى البيت إلا ثملاً.

وتضيف: لم أعرف اللذة الا معك. لم تردف عبارتها بضحكة ماجنة تخرق طبقة الحياء.

وأقول: في البدء مانعت

- حياتي حبل من خوف.

- لكنك امرأة بديعة التكوين.

- زوجي حار.
- لماذا لم تفصحي مذ عرفتني؟
- المرأة لا ترغمي في حضن رجل ولو عبدته من الوهلة الاولى.
- ولكن لماذا لا يتخطى الانسان خوفه اذ يرغب؟
- المرأة هنا لا تستطيع وأنت تعرف هذا.
- أليس الحرمان أقسى من جحيم الخوف؟
- دائماً كنت أرى عين والدي والنبي تراقبني.
- وقلت: ما الذي كانت تقوله؟
- الحرام.

- اليس حراماً أن تموت حياة انسان مثلك في مغارة مظلمة ليس فيها غير الاصطبارات والالم؟

- الدين يقول ذلك.
- والانسان ماذا يقول؟
- الله يقول: اياكم والغواية انها من عمل الشيطان. امي علمتني ان اقرأ آية الكرسي عندما يوسوس لي الشيطان.

- وهل كنت تتأمين بعد ان تلغني ذلك التعس السيء الحظ؟
تضحك. واذا أسأها ان كانت تعرف من هو الشيطان؟ ترفع كتفها نغياً:
لا أدري!

- انا ادري. من سجنوك وقوسوا حياتك وحرفوها عن مجراها الطبيعي هؤلاء هم الشيطان. اعني اسرتك المحترمة ورعب النبي.

- انت شيوعي كافر. وتضحك بخوف باطني.
- أهم بها حاضناً جذعها العلوي. أضغطه بعنف. وانا ألتحم بها أود لو أقول لها شيئاً عن سوية الصلات البشرية والحرية التي تنبع من الداخل وتعطي الوجود معناه. لكنني ادرك أن مفردات اللغة بيننا هي محض حركات عضوية موقوتة.
- انا اريدك وهذا كل ما في الامر. وأهجم جوارها.

في غرفته انطفأ النور فانتبهنا. وعلى غرفتنا الموسومة بالحرام، خيم عثم له رائحة الخيانة. في الظلمة بدونا شبحين. توقع خوفها ان يطرق باب غرفتها، وخيل الي انني اسمع خفق خوفها الراعش. على الباب وقفت منصتة لصدى الخطوات. كنا مصلوبين على خشبة الصمت في حركة الزمن القلق.

مضت لحظات كحّ خلالها بصوت مسموع. ثم خمدت الاشياء وغاب الخارج.

في الظلام التام، داخل ليل دمشق الرخّي، عامَ البيت. كالحجارة كنا نغوص في بحر الليل، فجأة دَقَّت ارض الشارع خطوات قرب النافذة. تنصتنا. راح صوت الخطوات ينأى.

وبحذر شقت النافذة المطلة على الشارع ثم أغلقتها: الحارس الليلي. قالت الكلمة بهمس.

فوق رشاش الضوء الشحيح المرتمي من المصباح الاحمر، وقفت. وبحركة أمان وشوق جديد ازهرها فيها، رمت ثوبها. كانت تقف الآن في رشقة الضوء. جسد ثلجي مرشوم بالظل والوهج. كان الجسد ينادي الآن.

وبحيوانية دافئة، تمددت على مسار الضوء، فوق سجادة الغرفة، وراحت تتلوى وتتن.

قالت النفس وهي تقبل: «هي ذي المرأة الشرقية المزدهرة في ليل عبق عندما يسكن خوفها التاريخي وتشتعل.»

- ٥ -

قد يكون هذا حلماً أوحقيقة، لا يهم. زمن العربي يمضي بينها. لكن السؤال الابدي الملح: لماذا نولد ناقصين؟ واذا لا نجد جواباً، نمضي عبر دروب ملتوية، حافلة بالانكسارات، والشكاوى، وإيقاعات الاثم.

خلال ازمة متعاقبة، نبني جسوراً. أحد ما لا يؤدّ أن يكون الضحية عن قناعة، وأبدأ نصطدم، نشئت نحو جميع الاتجاهات، صوب كل الرغبات ونقول: لعله الدرب الذي ينجينا فنصل!

ونخسر. يربح الزمن ونخسر. تظل الدروب كما كانت، ويتيه ذلك الذي من فرط ما حُرْم، يستمر باحثاً عن النجاة واليقين مفتشاً عبر جميع المنعطفات عن نفسه التي عطبها التاريخ والوراثة والتأمل المثالي الأخرق.

عندما كنت اعتقد انني انخطى، كان يخيل الي انني اخسر عمري في كل خطوة، شبيه كرة تضرب جداراً صلباً وفي كل ضربة تنقص المقاومة، يتهم جزء من الكرة بينما يظل الجدار قائماً لا يتزعزع.

ورغم التساؤلات عن امكانية خرق هذا الحائط الناهض داخل النفوس منذ آلاف الاعوام، كان الاستمرار في محاولات التخطي يعطي تبريراً لاستمرارية الحياة نفسها ضد الخدع وضد هاجس الانتحار.

وفي تاريخ الوطن والتاريخ الشخصي لن يسألك احد: ماذا تريد؟ واذا ما سأل فليتحدى. ناشراً في وجهك زنج فرديته التي ألّفها وألّفها خلال الاعوام الطويلة العريقة، خافياً في ظلّها كل عجزه وكل سقوط قومه: ما تريد ليس ما يجب ان يكون. ما يجب ان يكون هو ما أراه أنا.

وفي ذلك الصباح والفرح قر ساطع ينير كل سهول النفس ومنحدراتها، سألت

تلك الام الوحيدة : الى اين تتركنا وترحل؟ وفي ذلك الصباح أجبها فرحي : الى الشام.

وقالت عجيبة : الشام ! وماذا لنا في الشام؟

قلت وانا اودعها : طلعت عليها شمس الفقراء التي لن تغيب بعد اليوم. وتمتمت وهي تدمع : ليكن الله معكم. يا بني لا تنس نفسك في تلك البلاد. تذكر يا بني أن الغربة غدارة!

وقبل ثلاث سنوات أذكر كيف كان العالم في رأسي نقياً، مفعماً بآمال بلا حدود، وكيف كنت احلم بمنى : حريتي ووطني وزوجتي وطعامي وشوقي للمسرات النهارية والليلية.

آه. كم اشعر الآن بالمرارة. وكم يؤرقني الجرح وانا أرى الشمس وهي تميل مكسوفة وقد لوّثها غبار الاعوام، لطّخها الزمن حتى كدت انكرها، وانا ارقبها في حجرتي المغلقة عاجزاً عن مسح ركام الغبار عنها، قاصراً عن ردها الى طفولتها الاولى التي أسرتني فاستوطنت أشعثها اعصابي.

ولكن ما فائدة كل هذا الأسى. كل هذا الانتحاب الذي تحول الى نوع من الممارسة السادية لأجيال تسير مقهورة محنية يسوطها ماضيها وإرثها البالي. الاجيال التي وسمتها منى بانها ملوثة بلا استثناء؟

التصدع حدث وكفى.

ولكن هل كان ذلك في أعماق النفوس؟ ام أن التجربة هي التي مخّضت بحكم النقص؟ ام انه محض تشوش ذهني نتج عن استطالة المثال الكبير في الرأس؟ ام هو العجز التاريخي؟

زفيف الريح في الخارج. كل الابواب تلوح موصدة. ودمشق كعبة المثقفين والانقلابات المفاجئة وقطب العالم، صامته تحت ضربات الريح، بعد ان هاجرت منى من النفوس وانطوت تحت غبار الذاكرة.

وتحت الريح وطن ما عاد كما كان، كما لونه الاحاسيس ووشته بألوان الحرية والخبز والجد والأفراح الدائمة. مقيم هناك في أماكن غريبة، سرية، متربصة، يخني تحت ابطه مدية ورصاصة. في عينيه ضجيج إدانة وتوجس، وعلى وجهه سياء ذعر وإرهاب.

توقع انفجار سيحدث اليوم أو غداً.

[]

على شرفة بيت أخيه كنا نسهر. تحتنا الشارع وفي مواجهتنا عمارات متلاصقة. وبني الطابق المقابل راحت حركة دائبة لصبية وأختها الصغرى، تستهدف انتباهنا. وفوق المدينة تقوست سماء مبهجة.

صامت. وهو في أتم حيويته يتحرك بين الشرفة وداخل البيت.

- راقب نازك.

ورفعت رأسي. كانت عيناه مفعمتين بوميض خاص.

قلت : كم تقدر عمرها؟

- أحد عشر عاماً.

- والأخت؟

- تجاوزت الثامنة عشرة.

- من تشني؟

- الأختين.

- في سرير واحد؟

وشالت قهقهة : كل نساء العالم لا تكفي الجباع.

وناولني لفافة ثم أشعل لي ولهُ. كانت اللفافة مغروسة في زاوية فمه اليسرى.

نثرها ونفخ الدخان فاتحاً فمه كعصفور جائع : اللفافة تعويض عن الثدي.

كغامة عبرت منى. صبوة حادة ارتسمت على محيط العمر فوشمته. عصية على الأخذ، عصية على الهجر، وأنا من الداخل وحيد كذئب في صحراء.

- أنتَ حزين.

واختفت الغامة. كان يقرر جملمته بثقة.

قلت : المثقفون هنا كطحالب البحر.

غرغر ضحكة مبتسرة : بالتأكيد لم تكن تفكر بالمثقفين.

وقلت : ليس ذلك مهماً. المهم ماذا نقدم نحن. خمر. ثرثرة. تحليلات

اندفاعية. حفرٌ مضمّن عن الحرية والمرأة وأشياء أخرى لا تantal. آه. أي سخف!

- نقدم الحزن المختمر أليس هذا كافياً؟

في الفراغ قذف اللفافة. وهي تهوي وتقع محدثة بعض الشرر فوق

الاسفلت. ظل يراقبها حتى خمدت. وإذا حلق في الأفق الشاحب رأيت كآبته : نحن مقدوفون في فراغ.

وفي ذلك الغروب ندخل في أول نقاش حاد حول الفرد والحرية، حول الثورة والمجتمع، وحول التنازلات الخاصة والعزلة وبداية الانهيارات.

يبدو «راني» ملاحكاً كعادته. من خلال وعيه الشخصي يفسر الثورة رافضاً التنازلات التي تؤدي إلى الإصلاح تحت غشاء من الواقعية المناقضة للثورة، محتجاً على هذه المقايضات اليومية الموسومة بالخوف من التغيير الجذري: الثوري يحرق كل الهشيم الكاذب ولو أدى ذلك إلى إحتراقه في النهاية. إذا لم تتغير العلاقات القديمة فنحن نبحر في سفينة مصدعة تتخللها المياه يوماً بعد يوم والنتيجة هي الغرق.

- نظرياً هذا صحيح. ولكن هل نستطيع؟

- لا نتحدث عن الظروف الموضوعية. هذه مقولة الجبناء. هناك خريطة رُسمت عبر الماضي بشكل خاطئ وأنا أملك القلم والتصور الذي ينبغي أن يكون. ما الذي يعني من رسم هذه الخريطة على النحو الصحيح؟

- الناس ليسوا خطوطاً. والمجتمع ليس تعبيراً في مرسمات الخبر!

- إسمع حتى الآن لا أعتقد أنك إنسان تبريري. أنا أخاف مثل هذه الزمرة إن لم أقل أنني أرفضها وأحترقها. قد تحتاج العملية تضحية ومخاطرة وأنا أرى الثوري فداًياً ونبيّاً. أنا أرفض السياسي. المناور.

يحمد راني. يبدو عليه أنه بذل جهداً طارئاً استقاه من عالمه التجريدي، ومن باطنه النفسي وحفده على تراكمات الكتب، والكذب المحشو به تاريخ العرب فأصابه منه رذاذ. نحو نازك يرنو بعينين ترميان سترها الخارجي. يتناول شبابه وتنامي موجعات الحزن.

ليس سهلاً أن تعمّر صلة، ومع راني يبدو ذلك رهيفاً كحرف الشفرة، وكما تترك وتندخل ألوان قوس قزح، كذلك كان يبدو طقس نفسه.

بعد أن تعب من العرف، تناول سيكارة واستدار بعيداً عن مرمى الصغيرة.

عن روايته التي يكتبها، حكى أشياء مثيرة وحميمة إليه. تحدث عن الإبحار العميق نحو داخل الأشياء، عن الهواجس والكوابيس وكشوفات اللاشعور، والمعاني المستنبطة من خلال الضعف البشري والعلاقات السرية.

وإذا علقت أنها على ما تبدو رواية سوداوية. احتج غاضباً: بل هي رواية قومية بطريقة الإلتزام النفسي عبر الخلل الإنساني.

واستطرد: الوحدة العربية لن تقوم إذا لم يستطع اثنان ابتناء وحدة بينهما. بيننا لم تكن مسافة. كنا ندخن باستمرار وبحيوية، والجو مترع برائحة صميمة.

كانت العلاقة معه ذات نكهة خاصة. تحس من خلالها أن العالم خصب، واسع لا يحده. ورويداً تبدأ حواجز التوجس والإحباط بالانهيار. وفي مكان سري من الداخل تحاول تلك الصلة أن تزغف كما ينمو الفجر.

- «حياة الإنسان متاهة والنفس فصول». قلت ذلك كأنما أهمس لنفسي. وبدا ذلك احتمالاً يخص من اختاروا الإبحار إلى ما وراء الظواهر، الذين أسماهم رامبو «الملعونون»، والذين يدّمرون أحاسيسهم للوصول إلى العالم الحي المقفر. كذلك حياة مني، كانت تبدو لي حالة زئبقية عصية على الركون والسكينة. جيشان دائم.

[]

لعبة الكلمات والنفس، والرصد المرهف الشبيه بحافة مدية للناس والعلائق والأحاسيس الخاصة، والهجرة الدائمة تحت جلد الأشياء، لعبة مسلية ورائعة، تخلق إحساساً متجدداً برؤية العالم، معمداً بالدهشة والامتياز. تعطي العمر طعماً خصوصياً يشبه دينامو يولد باستمرار شحنات ما أسماه لوركا «الروح المبدع».

معاً كنا نحس نبض الحياة المتدفق في عروق النفس؛ كنا كلونين في قوس قزح.

نزلاً الدرج وفوق اسفلت شوارع المدينة، سحناً.

دمشق مدينة ككثير من مدن العالم: عمارات من حجر، وشوارع يعبرها الناس والسيارات. أماكن خاصة وعمومية، بيع وشراء، لكن الوجه الآخر يغفو تحت الجلد الظاهر. يشق ذلك الجلد إذ يغيب الإنسان عن سطوح أشياءها ويهيم في ليل صامت شفاف.

من خمارة قريبة تناولنا خمرة. وإذا ابتعدنا عن أبراج المراقبة قال راني: إفتح يا عزيزي الشبل.

باسناني فتحت السدادة وقذفت بها، وناولته. شرب فامتعض. تناول شيئاً
يؤكل من كيس ورق.
شارع وشارع، ثم آخر وآخر. نسوح ونشرب ونثرثر.
- جيل خرج نحن. قال.
- لماذا لا تقول محروم، لم يروتو من حليب الثدي.
- والعصر إن العربي لني خسر.
- ألسنا احتجاج العصر؟ قلتها بدراماتيكية ساخرة.
- ضد من؟
- ضد أنفسنا.
- أنا أرفض الإيدانة. الإنسان مسوَّغ أمام نفسه.
- أنا لا أدين. لكن الإنسان حرية.
- إنساننا صفر.
- والوطن؟
وقال بترق: يا أخي مصاب أنت بعقدة الإثم؟ لوئتك السياسة.
- أبدأً. فقط أود لو أستطيع أن أفعل شيئاً من أجل وطني. وكنا قد انتقلنا
إلى ساحة الجدد.
وقال غضباً: كيف تفعل وأنت معزول. وأنت لا شيء في حساب الزمن
والوطن والتاريخ؟
وقلت جاداً: ينبغي أن نغتصب الحرية.
قهقهة وهو يدفق الخمر في جوفه: الوطن امرأة ورواية وصوبات تتحقق.
وقلت: وهو أيضاً انخراط في عمل قاتل. (كنت جاداً أكثر. الداخل تحرك
وانخرقت طبقة اللاشعور).
ونخر: موت مغامر من أجل لا شيء. نحن منفيون يا سيدي الثوري. خريف
عابر في فصول الزمن العربي!

غممني حزن وشعرت بحصار. كان رأسي موشكاً على الانفجار.
عن سياج حديقة المزرعة وثب وصاح: هيا أيها الفدائي!

على المرج الندي استلقينا. كان القمر فوقنا قطعة من نارنج، والحديقة مضاءة
والشجر ساكناً.
- نخب الأعبة!
وغبّ طويلاً. نترت الزجاجاة من فوه: تريد أن تقتل نفسك بطريقة
سخيفة!
- ماذا بقي لنا غير الخمر؟
أشعلنا لفافتين: أحلم أن تنتشرد سوية ونجوس كل مدن العالم. تصور. أن
يمضي عمرنا هنا في هذا الكهف النتن!
- هنا مكاننا.
- ما الذي نفعله؟
- الحفر في جدار الكهف حتى الإدماء لفتح كوة صغيرة للشمس. (كنت
أرد على سليلته ولوني الخاص في قوس قزح) وصاح وهو يقهقه: الوطن: ها. ها.
يا للوطن المسكين الموطأ. قال ذلك بحزن فاجعي، فداهمتي رغبة نحيب.
بشبابته أمطر لحناً ريفياً شديد الكآبة سامراً الصمت وأوقد الحزن. كنا ندخل
الآن نسيج الليل والوحدة النفسية. تذكرت طفولتي النائية، وأصدقاء الطفولة الذين
تاهوا. قلت: غنّ لنا هيات يا بو الزلف.
غبّ الكلمة أهمت دمة حارة. سألت حتى شارفت في. ذقت طعم وطني
الخاص. على غير توقع أيقظنا ظل الحارس الليلي مرتسماً على العشب.
[]
منى. مدينة السلام المبنية في الذهن بعد أن انفجرت مدن الواقع فصارت
شظايا. بواباتها المخلفة ممرات للريح.
ومنى سلام مفقود. سراب ألث وراءه قبل هبوطي دمشق.
عرفتها قبل أن أراها، وفقدتها قبل أن أكتشفها. لكنها علاقة مجتثة ومتصلة
في آن. ابتدأنا من نهاية الأشياء وانتهينا في لحظة البدء.
عندما كان علينا أن نعيد تركيب صلتنا على ضوء حالتنا الجديدة، بعد أن
بدأنا نفهم الحدّ الفاجعي الشبيه بشفرة الموسيقى، كانت منى قد استأصلت من نفسها
كل أمل بإصلاح الأمور، وهكذا بدت عاجزة عن إعادة أي تركيب آخر. كانت

تقول لي في ذلك الوقت: لا بد أن الإنسان يتشظى كلوح زجاج يهوي من الطابق العاشر. هذا ما يحدث في النهاية.

لشد ما أشعر بالمرارة الآن وأنا أحاول استحضار الصورتين على شاشة ذاكرتي: منى الحلم ومنى المبددة.

المرأة التي كنت أنصورها مغتسلة من أدران قومها، بعد أن تمرست بكل صنوف العذاب والآلام التي طهرتها فكونتها من جديد. كنت أعتقد أنها أقوى وأكثر تماسكاً أمام الصدمة، بل كنت أذهب إلى أبعد من ذلك متخيلاً أن هذا الانتهاك هو الوسيلة الناجعة لشفائها وإعادة خلقها على نحو إرادي، تلعب فيه علاقنا وحواراتنا الصريحة دوراً أساسياً.

لم يكن باستطاعتي أن أعتقد أنني سأخسرهما يوماً رغم إلحاحها الدائم على هاجس الرحيل، وإذ كنت أقول لها أنك تهربين من شيء هو محمول في المسام والدم، وأن هذا الشيء سيعود إلى الظهور في أي مكان آخر، وهذا الهاجس ليس أكثر من وهم في لعبة قديمة حاولها الآخرون وخسروا فيها، كانت تردّ بأنني أريدها لنفسني، وأن الرجل هنا مهما بالغ في محاولة اعتاقه من قيود قومه، هو في النهاية يريد المرأة له. يرغب أن يكون ماضياً نقياً وأن تطيعه كعبد. إنها عقدة الآباء والأجداد القدامى الذين ورثوا أولادهم وأحفادهم فكرة الطفيان. وأضافت وهي تدبر إبرة المديح: أنا أعتقد أن أي رجل في شرقنا إذا لم يكن طاغية لا بد أن يحمل في دمه بعض صفات الأنوثة. وهكذا ترى أن الذنب ليس ذنبنا. أعني لسنا أحراراً كما ينبغي. لست أدري لماذا كنت معها وضدها في الوقت نفسه. ولكي يتوضح هذا الإبهام المختلط علي، كنت أحلم بالخروج معاً من هذه المدينة التي بدت لي وكأنها قد ضربتنا بلا شفقة في مركز من مراكز الإحساس فأفقدتنا بعض صوابنا.

كانت فكرة الرحيل معاً ذات حدين: الفوز بها لأنني أصبحت أحبها على نحو شبه مرضي تاخماً حدود الهوس. وثانياً لتحقيق ذلك الوهم الملح وهو أنني ومنى نستطيع إعادة بناء كوننا بشكل جديد خلاق.

كان التصور الثاني شبيه حلم أسطوري. يحمل الكثير من الرومانسية في جانب من جوانبه، وفي الجانب الآخر منه - وهذا ما كان يؤرقني - كان يبدو لي أصيلاً وحقيقياً. كنت مأخوذاً دائماً بهذه الفكرة: كل ما هو غير متحقق، يظل حلماً

رومانسياً حتى يتحقق، لا فرق في ذلك بين تناول فنجان قهوة أو الصعود إلى القمر.

في هذه الحالة الخاصة والصعبة، كانت منى هي الضمير الثاني الراقد تحت طبقات الثلج خلال الأعوام الممضة من النسيان وممارسة الألعاب الشخصية.

كان الوقت غروباً ونحن في الغرفة التي لا تعرف الضوء. منى تدخن بجيويتها العصبية وأنا أحتسي بعض البيرة المزوجة بالعرق. طلبت منها أن تشرب قليلاً فرفضت. قالت: سأعدّ بعض القهوة. وخرجت إلى المطبخ.

مع الزمن تحولت هذه الغرفة المعزولة عن العالم والشمس إلى ما يشبه المعبد لنا نحن الإثنين فقط. وفي أصائل عديدة كانت تأتي إلى هنا في غيابي. تقرأ أو تكتب شعراً أو تستلقي، وإذا لا أعود تترك بعض العبارات القصيرة أو زهرة ياسمين في صفحة كتاب، وأحياناً تكتفي ببعثرة الكتب على الطاولة أو السرير.

عندما عادت حاملة القهوة، رنوت إليها. بدا وجهها في لون الشفق وعيناها ترسلان بريقاً كانت أشعته تضيء الغرفة وتضيئي. وهزني فرح غامر: أنها هنا ما تزال!

وهي تصب القهوة حاذي وجهها وجهي فطوقني وهجها ورائحتها. على خدها الأيسر لثمتها فلم تبدر منها أية حركة. وبهدوء استمرت تصب القهوة.

وضعت لي فنجاناً قرب كأس الخمر ثم تناولت أخرى لها وراحت ترشف: سيكارة. أشعلت لفافتين وناولتني واحدة.

كانت الغرفة ترسو في محيط من الهدوء، تقطعه رشقات خافتة، وإذا استطال الصمت سألت: أيه. لماذا لا نتحدث. أنظّل مبحراً؟ ولكرت خاصرني بطرف سبابتها: عندما تكتئب يبدو وجهك مائلاً لوجه رجل يساق إلى ساحة إعدام.

- بدأت أحس بالنني.

بدت الجملة وكأنها سقطت سهواً. كأنما شيء فائض هوى فلم يترك أثراً. تناولت منى الراديو الصغير وفتحته. كانت الموسيقى هي الرد اللاشعوري على جملي. أحزنتني برودها. هذه اللامبالاة التي تنمصها في لحظات الشدة. قلت: أعتقد أني أبالغ؟ واكسى وجهها بغلالة ألم. ضغطت بطرف أسنانها شفتها السفلى ثم تهتت: لا بد أننا نعذب أنفسنا دونما جدوى.

أوضحتُ لها أننا لم نقرر شيئاً منذ التقينا. فقط نلهو بعواطفنا ونبدد الزمن بهذه اللقاءات التي تشبه المخدر. لو قررنا فقط أن نكون معاً، أن نظل معاً، لكان من الممكن تخفيف وطأة المنفى: هذا ما أشعر به على الأقل.

ضحكت بمرارة: أعتقد جداً ذلك؟

خيل إلي أنها تهزأ من فكري، فسألتها عن وجه الغربة في الموضوع بعد أن تصدعت الآمال وابتدأ النزاع داخل النفوس. رمقتني بتركيز. أغلقت الراديو: إسمع أنت أما حالم أو مجنون! هل سمعت في تاريخ حياتك أن باستطاعة اثنين أن يبنيا العالم من جديد؟ ثم أنا وأنت من الذي قال أننا نملك كامل حريتنا؟

كانت تتحدث بصوت طبقاته وصلت أوجها وهي تسأل سؤالها الأخير.

في ذلك الغروب الذي أذكره الآن جيداً، اجتاحتنا حوار عقلي حاد ومربح حول الحرية والهجرة واللوات الداخلية التي راكمتها سنوات الطفولة والاضطهاد والارث. وكانت وجهة نظرها مركزة حول ما سمته البقع السوداء التي تلتطخ النفس. البقع التي استعصت على المحو.

لقد أوضحت لي يومذاك بأن تلك الندوب العميقة تتحول مع الأيام إلى أصفاد زمنية تأسر الإنسان وتوطئه داخل قواقع لا يقوى على الخروج منها، وهذه القواقع تتحول بفعل الاعتياد إلى قوانين نفسية معترضة، قوانين مستترة تمرد على المادي والرياضي في الحياة أحياناً. هذه القوانين قد تعطب الوجود البشري وتخلخله.

وأذكر أن فكري في الرد عليها يومذاك كانت تلخص بأن الإنسان يقظ الذي يحتاز ذاكرة وقادة لا تنطفئ، هو الذي يبقى في مواضع الخطر حفاظاً على حيوية التغيير. ليس المغامر بل الثوري، ولا بد من التفريق بينها. ومن أجل أن نكون هكذا لا بد من خرق اليومي والتاريخي بلا خوف. لا بد من عبور النار الداخلية في محاولة تطهيرية، بذلك تتألق النفس وتظل في مركز الوهج. وعلى هذا النحو يمكن أن نتخلص من العكر القديم.

كانت مني تبتسم على نحو طفولي. قالت: إنك تتحدث كشاعر. هذا إذا لم أقل أنك تنسى الوضع الفردي والظروف التي تحكم حركة كل إنسان. وسألتها إن

كانت تعتقد أن القوانين النفسية التي أشارت إليها، هي التي تحكمنا فقط. وكان ردّها يدور حول ردود الأفعال الآنية والزمن المستغرق في تفريغ الرغبات الذاتية. ثم

ختمت فكرتها بأن الزمن الذي نحيا فيه ربما كان حلقة بين الانحطاط والتألق الذي أشرت أنا إليه، وقالت بأن التغير قد يستغرق أكثر من جيل.

كنت أشرب بهدوء، وكانت الخمرة تتلاشى عبر هذا الحوار العقلي الذي اشتبكنا فيه، وقد نسي كل منا أن الزمن الحقيقي بين رجل وامرأة في غرفة سرية يُبدد في أمور أخرى ربما كانت أكثر جدوى.

لكن مني كانت قربي. بيننا بضعة سنتيمترات وقد لفت ساقاً فوق أخرى شابكة أصابع يديها الناعمتين تحت ركبتيها، فبدت بوجهها وشفيتها الكرزيتين، وهذا الإنفصاح العالي من صدرها وساقها، امرأة يشتهي أي رجل ولو كان قديساً أن يركع أمامها مبتهلاً لهذا البريق الخاطف، الخارج من كل جسدها أشعة وروائح. آه. الجنس الطاغوي ليس إلّا. لكن مني الأخرى كانت هناك. تنأى كقطار ينشر عبوره في المحطات دخاناً يمتصه الفضاء، محلاً صغيراً داوياً حزيناً، تردد صده الأودية والسفوح. قطار بعد أن يغيب خلف المنعطفات لا يظل منه في قرارة الذاكرة غير ذلك الرجوع الحزين المصدي.

[]

هوذا الزمن بيننا. سيف من صوان مسنون، لا هو يفرينا ولا ينكسر. كنا نبدو منفيين داخل قلعة، شبيه حشرتين متناثرتين في نسيج عنكبوت، وأية حركة لمحاولة الخروج كانت في النهاية التفاف مزيد من الخيوط حول عنقينا.

كان يودي أن أشرح لها هذه الفكرة. أن أقول أن العنكبوت يقترب وعلينا أن نفعل شيئاً ما ولو أدى هذا إلى الموت، غير أن الفكرة بدت غير مقنعة، ومن خلال حس المنفى والصدوع الداخلية، شعرت بأننا أصغر من الحياة التي قُذفنا فيها، أو أن قدرنا لعيناً، كنت دائماً أرفضه، يطوقنا، وبني بالثواني والدقائق والساعات والأيام والشهور والسنين، ذرات هذا الحائط الوهمي الصلب الذي يقوم على أنقاض عمرينا.

وفي زحمة طغيان هذا الشعور القاهر تساءل: كيف تنجو من هذا الجحيم؟ امرأة لم تقل يوماً أنها تحبك وعبر كل ثانية تمر تشتهي أن تنحلّ فيها وتنحلّ فيك. تفتتها إلى جواهرها الأساسية الأولى، ثم تعيد تركيبها من جديد صانعاً الصورة التي تريد.

ولكن من الذي يملك القدرة على الخلق وبث الروح في الشيء الذي ولد بطريقة خاطئة، من نقطة حملت كل ذلك العطب المُشرب به الدم؟
لشد ما يبدو ذلك طوباً وياً رغم أنه يبدو وكأنه الحركة الأساسية لتزيق شبكة العنكبوت والخروج!

ليل دمشق مسرة خصوصية. داخله تسوح. تحلم. تتذكر وتخزن. ترسم في فراغه الحميم ما تشاء من الصور مشيداً جمهوريات من فرح وعدل، وعلى مدى كثر الأمانى ترتفع عبر هذه الليالي في صحاراك وصحاري الآخرين.

إنه الزمن يلف ويدور. تارة كالحبل حول الرقاب، وتارة كالاعصار. كلمات. كلمات عما ينبغي أن يكون ولا يكون، وسباق حار من خلال التصورات. لهفاً صوب أشياء لا تنجي. ارتسمت في الذهن يوماً اثر يوم، تخرج من الداخل فتصطدم بالفراغ والجدران ووجوه الآخرين، لكنها لا تلبث أن تنكشف مع بداية أول ضوء لنهار ساطع آخر، منتظرة هبوط ليل جديد لتقذف مرة أخرى.

هل هو زلزال فردي وجماعي هذا الذي ترتعش به تلك الأراضي البور بعد أن انتظرت طويلاً موسم الأمطار وليس غير الشمس والظما؟

[]

وفي ذلك العصر الملحمي، كانت تلك الارتسامات والإشارات المبهمة، تبدو وكأنها نوع من هتك الستر، في حين أن رموزها الخفية وسرها المغلق، كانا يلوحان كبقعة زيت أخذت تنتشر فوق جميع السطوح مشيرة إلى الخطر، نازعة في الوقت نفسه إلى بلوغ نوع من السكينة والخلاص اللذين طعنا قبل سن البلوغ. في أعماقي كنت أحس ذلك البطء في النمو. كان ذلك الشعور الكسيع يحتاجني بعد لقاءاتي مع منى، كذلك عندما كنت أنتهي أنا وأمينة من الفعل الجنسي متمددين كجريحين في مستطيل الصمت داخل فراغ العالم الموحش.

عندما كنت أنتجه إلى غرفتها في سحر الليالي الدمشقية الساكنة، كان رأسي الدائغ المتوج يهجم لي أنني ربما اكتشفت نقطة ارتكاز على خريطة جسدها. وأنا أمضي، تنحل في ريح وسكينة المدينة غلالة من أمل حان، فأغفل عن لمعان الضوء فوق الشوارع، وحفيف الشجر، وهذا الصمت السحري، ثم لهفتي وتلك المروية الصامتة لفجعة نفسنا أثر انتهاء لعبة الجسد.

ها هي ذي. تقف في الحجرة، وقد ارتدت غلالة شفافه. مجد صباها الغارب قمر على حافة الغياب، تسبح في نهر من الضوء البرتقالي، هو جسري إليها، مادة ذراعين بيضاوين مزغبين في ملمس الحرير والعشب. تتلقاني وتقودني إلى سرير أخضر، لوقع جسدينا عليه صوت أخضر، ولحركة جسدها ورائحتها إيقاع أخضر، ونغيب. تنهني منى بالولوع الجنسي. فأدافع عن نفسي: لا ليس بهذه الدرجة. أنا أحس في أعماقي عرقاً من الصوفية. منى، ألم تشعر يوماً بذلك؟
تقول: لكن الصوفي لا يشتهي الجسد. وتبدأ مشروع ابتسامه. وأقول جاداً: أبدأ. صوفي عصرنا يشتهي الجسد والنفس معاً. أنا عنيت بالصوفي الاخلاص حتى الثلاثي.

- ها. متصوف مودرن. وتبتسم. أتمم جملي: ولكن وأسفاه ما أنا بطائل أيها. أفكر أحياناً أنك كالماء عصبية على المسك. تنهض وعلى وجهها سياء كآبة. عارية تماماً على حافة السرير. تنزلق قليلاً. قدماها تتأرجحان. تتوقف الحركة ثم تمد طرف سبابتها تخط خطوطاً فوق بشرة فخذهما. أراقبها مستنداً بظهري على الجدار: تكتبين شعراً أم تحصين من اضطجعت معهم؟

انزلقت نهائياً عن السرير فلاح كفلهما يهتز. اشتيتها مرة أخرى. عندما هممت أصبح بها: عودي. كانت قد تناولت ثيابها وبدأت ترتديها بانفعال بادٍ.

قبل أن يموت أبي بالتسمم الخمري في الدم، كان يسمي النساء بالعلق: هؤلاء اللواتي يمتصن دم الرجل من ظهره!

أتراه كان يدرك أن زمناً غريباً بلا لون ولا طعم ولا رائحة، سيقبل. زمن له كل الألوان وكل الروائح وكل الطعوم وقد اختلطت بكوكبيل غريب. فقط كان يتنبأ بالحرب لأن الكتب السرية كانت تقول ذلك. ولكنه كان يشف ويصفو كينايي القمم عندما تحترق الخمرة.

[]

هذه الغرفة الجانبية التي تطل على الشارع فيها امرأة بعمر أُمي. وجهها قريب من وجه أُمي. دائماً أرى ذلك بعد أن تنتهي، وفي هذه الغرفة أيضاً طفلة في الثانية عشرة. عالمها المدرسة والعابها. إنها تصنع ألعاباً ودمى ولوحات ولا أبراً منها. نقول: انظر إلى هذه اللوحة! ثم تربني الأصل: قطة تنوسد حضن طفلة تطعمها. تحدثني سمية عن قطها الصغير. تناديه فيهر وهو يهرول واثباً إلى حضنها. تمسد شعره

الأسود فيموء: فريد ينام معي لكن أُمي تنزعج منه. صنعت له فراشاً هناك في الزاوية. ثم تسألني بغتة: عمّو. إننا لا نراك إلا لماماً لماذا؟

- العمل سمية.

- نتمنى لو نراك دائماً. لو تسكن معنا. ثم ترنو خجلة نحو أمها.

- وأنا أيضاً حبيبتني أرغب ذلك من كل قلبي.

- تعال إلينا. ماما تريد ذلك. أليس كذلك ماما؟

أمنية تشهد. تخاتل بكلمات مبهمّة مع سمية. أقول لأمنية أن سمية طفلة رائعة فتقول: لكنها بلا أب.

هو هناك بين الحيطان العالية. ذئب جريح في قفص ضيق. الخمرة وحدها تبدو المفتاح الوحيد إلى الصحارى والواحات. افاق بلا مدى تمتد، وفوق العشب غلمان وحوريات وأصداء الزمن المنقرض.

وكان لأيوب عصر وفورات تشبه غضب البحر. مزارع وخدم وأحصنة وأسفار. الأرض بطوها وعرضها كانت في ركاب أيوب السرحان. من أجله تشرق الشمس ويتلألأ القمر وتغني فانتات (الأوريان بالاس) وهو يدفع ويدفع ويدفع. يشرب ويصرخ، ومن فندق إلى آخر. من مدينة إلى أخرى مع الشلة التي اختارها واختارته. كان أيوب سيد الزمن القديم.

كذبت على أمينة: أنا مريض. الطبيب قال: لو تزوجت فستموت. أنت مصاب بروماتيزم القلب.

وكما تحنو أم النصفت بي وطوقني. قبلتني على خدي وصدغي وشعري. تناولت رأسي وأراحته على صدرها، وراحت تمسد شعري. كنت أحس وجيب قلبها تحت رأسي. سألتني: إذن لماذا تفعل الجنس بهذه الغزارة؟

وسألته ان كنت أفعله أكثر مما ينبغي، فرفعت أصابع ثلاثة وهي تنهه ضحكة: كما يفعل الفحل.

- ثلاث مرات في الليلة الواحدة. آخ لوراك الطبيب! واندغمنا في ضحكة خافتة مشتركة.

طوقتها بحبوة ضاعطاً بلاطة ظهرها. ورحت أمرغ أني تحت ذقنها وفوق جلد رقبته وبنشوة قلت:

أنت أعظم امرأة في العالم.

فجأة ردت: عندما أكون عارية. هاه!

أجبت: إذا كان سيدك عفيفاً أنا ما علاقتي؟

- وإذا كنت يا مهذب شهوانياً أنا ما ذنبي؟

هكذا كنا نكتشف اللعبة. كل منا بطريقته الخاصة لحظات السكينة والهبوط. اللحظات التي تبدو لامعة وهادئة كسطح بحيرة اصطناعية.

الجيشان الباطني الذي لا ترغب في الافصاح عنه ، بعد ان بدأت تدرك شكى بعلاقتها المسترة مع الآخرين .

كانت بجانبتي لهذا الموضوع تسبب العذاب والراحة معا لكليتنا . فحتى ذلك الوقت وبعد أن خرجت شكوكي الى دائرة الضوء ، لم أكن مقتنعا بمدى مصارحتها . وفي لحظات وحدتي بعيدا عنها كنت افكر : من أين اوتيت تلك القوة لخلق هذا التوازن بيني وبينهم ؟ ولماذا ترتضي ان تكون لنا جميعا دونما حس بالإثم ؟

- ٦ -

أنت شهواني ليس للجنس فقط ، إنما لكل الأشياء التي تضجّ في أعماقك . تلك التي ضُغِطت بمكبس الزمن والتي ترتسم الآن كسراب عبر طرقاتك فلا تصل إليها .

آه . هؤلاء القوم . انك تفكر بهم كثيرا وهم متخلّون عنك منذ زمن . لقد بدأت تهتز وتتقطع علاقتك الجدلّية معهم . انها علاقة من طرف واحد . ولكن لماذا دفنوا حياتهم الخلاقة على هذا النحو المفجع واستعاضوا عنها بما يشبه الحياة ؟ ولم يكتفوا بذلك . ها هم يتحولون الى قضاة وجلادين . ولكنك تتقدم . يخيل اليك انك تتقدم . تقول : ليكن . سأحيا كما أريد فحياتي تعني وحدي . تريد أن تسليخ اذن منسحباً الى طرف قصي . ولكن أين يقع ذلك الطرف المضيء ؟

ومن غيابة الذاكرة تحضرها . تحاول ان تشرح لها لماذا العربي في المنفى . كانت تسمع في الوقت الذي تبدو فيه غير مهتمة . بين حين وآخر تعلق على الحديث بنكتة او ابتسامة قائلة : انك تعقد الامور وتبالغ اكثر مما ينبغي . العربي مصاب بعقدة استحلاب الالم .

لكنني اقول : بل انت منفية اكثر منهم جميعاً وترفضين الخروج من منفك . رحيلك هذا الهاجس اللعين يسد كل أبواب التفاهم بيننا . كوني مرة واحدة . منذ سنوات وكل منا يحكي بلغة مختلفة . لغة منفصلة . لكنها كانت تصمت . فقط تتحرك . تنقل شيئا من مكانه . تفتح كتاباً او تقوم بحركة رقص مبتورة او تمشط شعرها القمحي القصير باصابعها الوردية متلعة رأسها الى الاعلى والخلف . لم تكن تستطيع التوقف عن الحركة لكانها مسكونة بألف جني . كان ذلك يعوّض قليلا عن

كنت أهرب من الحاح كلمة : بغي ، لأنها لم تكن كذلك ، انما لانني كنت ارفض لها أن توطأ على هذا النحو الخسيس باجساد الكذبة والشهوانيين والحمقى والمراهقين ، هؤلاء الذين عشقوا رغباتهم العابرة في طفولة جسدها البراق . لقد زرعوا في ارضها الخصبة بذور الشوك والصبار ثم خانوها بلا ندم . عندما كنت أصل الى هذه المنطقة من حالتها ، أتذكر وضعها المنشطر ، لحظة ترحف رائحة الجنس الى أنفينا متسربة من احتكاك مباغت لليدين أو الفخذين . اذ ذاك تنطلق شرارة من مكان ، فتتهوج العيون ويبدأ القلب ضرباته المتسارعة . كتيار تجتاز الجسد رعشة تتلوها رعشات ، وتتحول الغرفة الى غابة والسرير الى عشب ، ويبدأ هطول المطر والروائح ، فالنار .

في ذلك الوقت الفاصل بين الموت والخلود ، بين الحلول بكل ما هو حي وجامد على سطح الارض ، والغياب داخل طيف ملون هلامي وصاقي ، تنقسم منى متحولة الى شهيد في حالة نزع كأنما يستل روحها ملاك معذب بينما يغتصب جسدها شيطان .

[]

من أطرف الامور ان هذه الافكار السيئة والحزنة ، كانت تنامي وانا أغادر حجرة امينة في اماسي دمشق الأسية ، عابراً شارع الصالحية وحي المزرعة المظلل بأشجار السنسخت وغياض الياسمين ، والمهجور من الناس بعد ان يخمد وجيب الجسد . اثر ذلك كنت اتساءل : هل كانت افكاري نوعا من التبيكيت ؟ وهل انا سيء في علاقتي مع امينة ؟ والذي بيننا هل هو حرام ام شظية ثأر ؟ كانت احساسات الخلق حادة . ان تصنع شيئا وتعلق به بعنف قائلاً : هذا خلقته انا . انه لي .

وان لا تنفد فقط وتطوك الاوامر وانت منحني كغصن تحت ريح، رافضاً
الذين طفوا على سطح التيار وانجرفوا.
ثم. مسراتك، حريتك، أرضك الصلبة، أين هي في ريح الضجيج
الأعمى؟

وكرّد فعل ربما، كنا نبدد حياتنا بالخمير والكلمات، في محاولة يائسة للتعبير
عن الحرية، ومع تساقط الزمن تشتت طاقاتنا، ويمسح جنين الخلق والفعل،
تلاشيه وتهرسه قطارات الايام السريعة.

في «الليزيه» التقينا صدفة. عرفه راني علي. وانا أصافحه تملّيت قامته
المديدة، وصدره العريض، ووجهه الناضج صحة وشهوة: الشاعر العذري سامر
البدوي.

وضحك راني: شبلي عبد الله.

فجأة أطلق سامر شتمة. تناول كأسه ورفع: نخبك ايها الريني الخجول.
وغب.

باقتضاب ابتسمت. وانطلق يتحدث بعفوية وفصائح. كنت صامتاً وسط
مجموعة من المثقفين، بينهم شعراء وروائيون ومسرحيون، شبيه دودة انكمشت امام
خطر حدسته. مذ قدم الى طاولتنا، هيمن على الجو بالسخرية والسياسة
والضحكات المشرقة، وبدا حوار راني معه مباحاً وهجوماً. قلت لنفسه: أذو
الجنة هذا شاعر؟

كحيوان صحراوي مضى عليه دهر بلا طعام، هجم على المائدة. كان
يشرب ويأكل ويتحدث بثقة لها طابع الاجتياح، كأنما العالم ملكه والخالصون
حاشية.

وسأله راني: أراك وحيداً على غير العادة، أين حريمك سامر؟

وبهق وجهه امتعاضاً: اسمعوا. اخونا يريد ان ينكت. يا اخي انت تصلح
لكتابة قصة وتشبيه ناي وبس.

ورد راني: وأنت لا بد انك تصلح لجمع اسماء عشيقاتك في دفاترك
الشعرية.

ابتلعها: اضحكوا يا اخوان ولو كانت سخيفة.

وقال آخر: سامر استعاض عن الاسماء بارقام الهواتف.

وعقب آخر: رأس سامر مقسم.

قال رابع: مهلاً يا جعاعة. سامر تحول الى عاشق رومانسي. عشيقاته في هذه
الايام دون الخمسين.

وشالت ضحكة مثقفة. نشق بأنفه ثم نهّد ثم بصق على الارض: لا بد ان
السيدة والدتك المحترمة قد باحت بالسر اخيراً.

واذ شعر انه مركز الهجوم، فتل الحديث باتجاهي: راني. السيد. شبلي
صديقك الزميت لماذا يبدو صامتا على طريقة همنجواي في باريس؟
وقال راني: يستمتع بطلاوة احاديثك الشعرية.

أشعل لفافة «كنت» بقداحة «دوبون» أنيقة، ثم زفر الدخان وتوجّه بعينيه
الشهوتين نحو: أخي لا تفتعل البراءة ولا تحتم بها. أيام قليلة وتفرض دمشق
بكارتك. تلوثك ولو كنت المسيح. هذه مدينة الخمر والسياسة والموت والنساء.
طبعاً النساء بتحفظ.

وابتده راني: منك!

— يا اخي ما قصتك انت. محام عنه؟ لسانه بطول لسان الكلب ويستطيع
أن يحب.

ضحك ثم استطرد: عفواً اذا كان التعبير فجاً. أنا لا اعتذر من أحد ولكن
باعتبارك ما تزال بغواً لا بأس. انا هكذا.

وعقب راني: افضل من ان يكون بغياً!

جو الكهف اسباني، ذو طعم حار، يفيض عذوبة ووجداً. في ساحة الرقص
امراً تتلوى برقصة ايقاعية لها سريان شهوي مؤلم في اجساد الرجال. سامر البدوي
منتش بالحديث والشرب وتحلق زمرة المثقفين حوله، وانا افكر: «كيف قذفت في
هذا العالم الغريب؟»

أية وحشة واي ضيق لا يمكن الافصاح عنها. أحسست انني ضئيل، مرمي
في متاهة. عبرتني فكرة المغادرة بعيداً عن العيون والناس والوجوه المخيفة: «لماذا
بي زعر من البشر الشديدي الملامسة حتى لا كاد أشعر بهم يهبطون بثقلهم علي؟»

تملكني رغبة الجري في الشوارع والخروج الى البراري الموحشة ، وانا أحرق في المرأة التي تتلوى كأفعوان .

كانت الرغبة في كل مكان ، وكانت لها رائحة تُشم في العيون والاجساد ، في جدران الكهف وفي الخمر ، وفي وجهها المتأجج . كانت تلبس فستانا مشمشيا محسوراً فوق الركبتين ، يظهر بلاطة ظهرها الباقوتي المحروق ، ويبيد قليلا من أرومة نديها الموقعين بارتجافها علاقة تمتد منها الى أعماق الرجال .

وهي ترقص حافية ، بدت تواصل لعبة نرجسية ، فيها مهارة ، وبين فينة واخرى كانت تغطي عينيها بأصابعها بذلك الخفر الأنثوي المقتعل .

كان الضوء شحيحاً . ثمة غلالة صقيع تلفح الوجوه والجلد العاري .

وهذه الموسيقى التي تنشر الروائح أكثر . النقاش مستمر في عالم صاحب ملفع بضباب خمري بينا سامر البدوي سيد هذا العالم ، مستمر في تأكيد وجوده الاعظم .

عن الشعر والصدقات والنساء والخمر ، حكى . كان يتسم بعذوبة حيناً وحياناً بمرارة ، وهاجموه ، واثوا عليه .

وقالت النفس : «ماذا يحكي انسان خائف مثلي في محيط يتقن بخاروه العموم وهو لا يتقن السباحة بعد؟»

وانضم الى الحلبة نساء ورجال . وهمس لي راني : رقصة التانغو الحاملة !

كانت الموسيقى حنونة ، وداهمني حزن خاص . حزن رجل وحيد . كم كانت منى بعيدة الآن . مذ عرفتُها حلمت ان نلتقي في كهف ليلي هادئ ، وحيدين داخل زاوية مظلمة وصامتة ، احدها وتهمس لي ، اضمها بحنان بعيد عن الشهوة ، نبوح وتعلمني رقص ناس مدينتها ، ثم نبهر عبر الليالي الدمشقية المفعمة برائحة الياسمين ورائحتها . نخرج الى الضواحي وتترغم فوق العشب ثم نتيه على غير هدى نحو لا مكان محدد في هذا العالم .

وحضر رجل مثقف ومعه امرأة عرفنا بهما سامر البدوي . سلمت وجلست قربه . ناو لها كأسه فاحتست بأناقة ، وبوداعة مفتعلة راحت تتحدث .

كف سامر البدوي عن الشرثرة ، فبدت الارض وكأنها قد توقفت عن الدوران في رأسه ، وراح يتملى المرأة باحتفال متعبد . طلب لها خمرأ وقدم سجائره وأشعل لها . وضمير الحضور .

لكزني راني هامساً : ما رأيك؟

- امرأة اساسية . قتلها بعفوية .

وغمغم ضحكة لكلمة اساسية : آه يا كاهن اللغة . يا فاسق !
أولوها جميعاً اهتماماً مركزياً . وسألوها عن كتبها وماذا تكتب الآن ورأيها في القصة العربية المعاصرة ومدارس الادب ، وردت باقتضاب وهي توزع ابتساماتها على الحاضرين . تحدثت عن الادب الفرنسي بشكل خاص ، وعن حياتها في باريس وانها تكتب الآن رواية باللغة الفرنسية . كانت تتحدث بعذوبة امرأة تعرف ضعف الرجال وتهالكهم ، وتعرف نفسها جيداً . واحتدم جدل حول مدارس الادب وحول الالتزام ، وأفصحت عن رأيها بانها ترى في الالتزام فخاً وهي ترفضه إن كان يعني القسر .

وسألها سامر : ماذا تعنين بالقسر؟

- التعسف الايديولوجي .

وقال مثقف ببجاجة فوقية : الحرية مفقودة . فرد سامر بتزق : نحن نفكر بعقل اوروبي .

ردّ راني : عندما نمتلك قدرة التحليل نمتلك قدرة الكشف . الاديب مغامر يروى مجاهل النفس . انساننا العربي يقيم تحت ركام من الدهور المتخلفة الناقصة ، والمأساة تكن في انعدام الرضى . في النقص الكوني لأن نطال الاشياء الطبيعية وهذا يبدو مستحيلًا . الامور الصغيرة مستحيلة . ثمة سدود وموانع ممتدة من سماء آلاف السنوات متغلغلة حتى الاشعار الماصة في نفوسنا فكيف نكون اسوياء ازاء هذا الحجر الوجودي؟

قالت المرأة : هذا صحيح . لسنا اصحاء .

واذ اشعل سامر لفافة ونفث دخانها ، تلملم يريد ان يقول شيئاً .

خلت الحلبة بينما استمرت موسيقى كلاسيكية مريحة ، واذ قال احدهم : معظم المثقفين معزولون عن الشعب ونحن لا نفهم الشقاء الحقيقي . شقاء ابطالنا شقاء ميتافيزيقي .

نهذ سامر : ليست عزلة بقدر ما هي عجز . انا اوافق راني الى حد ما ،

ولكنني انظر الى الموضوع من وجهة نظر الخيانة احيانا. لماذا انتحر مايكوفسكي ابان الثورة مثلا؟

قال راني : لأنه خاب. تحطم مثال مايكوفسكي بالثورة فلم يعد لوجوده في عصره اي مسوّغ.

لقد قال يسين قبل الانتحار: « يبدو ان شعري ليس ضروريا هنا ويبدو انني لست ضروريا انا الآخر ايضا ». هذا ما اراد ان يقوله مايكوفسكي قبل لحظة انتحاره.

انهزم زمن الكد، بانت على وجه سامر كآبة وملل. شعر بأن عليه أن يتحرك. كان محاصراً بضيق ظهر في حركاته. جرع ما تبقى في كأسه. شكرتنا المرأة ومضت. وفي اثرها مضى سامر دون ان يقول كلمة.

[]

عندما خرجنا الى الشوارع كانت دمشق تغتسل بصحوها التام. مفعمة بالصمت العذب، لرائحة جسدها العجري طعم رطب.

قال راني : يا لدمشق الرائعة !

تحت ظلال الصفصاف الباكي سرنا محاذين لأحد فروع بردى الراكد. دندن راني حزناً شفافاً وشى برائحة انسان يكدح بحثاً عن الطمأنينة. في الغسق الدمشقي الموحش رن نداءؤه المبجول، طالبا أنساً لا يجيء.

وانداح صوت نايه مغمساً بالأسى والمرارة القديمة.

خلال برهة صمت سأله : راني هل انت كئيب؟

اجاب ملوّحاً برأسه وتابع اناشيده الجنائزية الخاصة.

كنت أتملى النجوم والشجر والشوارع الممتدة المرشوقة بالاضواء. تمنيت ان تكون منى معنا.

قال : الم تعجبك المرأة؟

- قليلاً.

- الم تثر اهتمامك؟

قلت: ليس كثيراً.

لكنها امرأة مدهشة سميتها أساسية. هل نسيت؟

وثبت نحو شجرة سنسخت. شممت رائحة الورق الذي قطفته. عبرتني رائحة الطفولة ورائحة أوراق خضراء قرب ساحل بحر مهجور.

قال أي : من يحيا في البراري تصفو نفسه كهذا الفضاء. ومن يحيا في البراري يرتاح من ضغائن الناس.

وعلى شاشة الخمر والتذكر عبر وجه أمي الشبيه بوجه أمينة.

قال راني : لها زوج في باريس هجرته ونحب شاعرا في بيروت.

وارتمى ظل أمينة على ساحلي. في حجرتها الآن ترتقب يقظتها قدومي الطارق. انا المخمور الناشد نساء العالم في حضنها المبهج.

- « الى متى يستمر ذلك النشدان ».

وقال : أنا اشتبهها.

وبدا أسانا لعنة وقعت علينا منذ اعوام طويلة، ربما لا يعرف بدؤها. لست أدري كيف خطر لي أن العربي يستلقي في تابوت محكم الاقفال، ومن داخله يحلم بالشمس والنساء ونفص الغبار وخيوط العنكبوت التي نسجت حوله. بعنف أتخيله يدق الجدران للطلوع من العتم. تدمى قبضته وهو يقرع لكن سمعه يظل موقراً بالقهر والصلوات والقوانين التي استنت لزجره عن الحرام. القوانين التي وضعت من خارجه.

ويرج صوت راني سمع الشوارع: لتسقط أخلاق السائمة. الموت للشرائع وليعيش المارقون.

واقول: لو سمعونا؟ انتبه!

وصاح: السجن أشرف من الحياة الموسومة. أنا من انصار باكونين والموت للدولة.

قلت لنفسي: اصرخ يا عزيزي راني وتوجع فالعالم أصم كأيك.

في الشوارع والازقة طوّنا. غنى راني بشبابته ومرّ صمت وكلمات محزنة.

تبعثرت الحشرات الصحراوية في فضاء مدينة تضم اكثر من نصف مليون

بشري يعيشون اكثر من مليون فاجعة ، يسكرون ويتزوجون وينامون ليهدهدوها.

- «نام يا حبيبي نام تادبحلك فرخ الحمام».

فجأة داهمنا فجر دمشق البنفسجي ، خجولا فتيا كطفلة تفتح ، فهرم المساء فينا . رفع راني اصبعه مودعا ، وانكفاً.

- ٧ -

دمشق وليالها ، حزني والوطن الجريح . ثم منى .

- من كل الذكريات التي احملها ، انتِ ومواطن طفولتي . هذا ما تبقى . قلت ذلك وانا اقدم لها حفنة ياسمين حوّشتها من غيضة وانا اعبر ارصعة المدينة . شمت رايحتها ووضعتها على كرسي مجاور . كنا نجلس يومذاك في ساحة بيتها ، والقمر يتسلل من الشرق فارداً ضوءه على جزء من الساحة والجدار ، ولم يكن في البيت سواها .

من داخل غرفة نومها كانت تأتينا موسيقى خفيفة ، وبين لحظة واخرى كانت تدخل الى البيت ثم تعود ومعها منفضة او تربيضة ، وكان يبدو عليها انها قصت شعرها منذ أيام ، وطلتُ قسماً منه بطلاء مذهب راح يلمع تحت ضوء القمر . كانت هي المرة الاولى التي تقدم فيها على تغيير من هذا النوع ، وتوجست ان اراها في مرات قادمة تظلي وجهها وشفتيها .

خلال غدوها كنت صامتا ادخن متكئا بكرسي على الجدار ، محدقاً في الفضاء المُنار وشجر الشارع . عندما جلست ربت يدها على ركبتي : هيه . الى أين وصلت ؟

وانتهت . كان معها دفترها الصغير ، فتحته وراحت تقلب صفحاته : كتبت قصيدة وداع . هل تسمعها ؟

وأومات موافقا فبدأت تقرأ بصوت حار ما لبث ان خفت وراح يرتعش . وهي تقرأ توزع بصري على وجهها المنور الاسيان ، وعلى اناملها وهي تقلب الصفحة بين اصابعها المرتجفة .

في ذلك المساء احسست بالحزن يكاد يرشح من شقوق الجدران ، ومن الضوء

المهمر فوق بلاط الفناء، كانت القصيدة لميسالينا ولد دمشق ولجميع الذين عشقوها وتاجروا بطفولتها، وللذين لم يدركوا لماذا سترحل.

بعد ان انتهت تناولت لفافة واشعلت لها. عن التريزة تناولت الدفتر. أعدت قراءة القصيدة واذ وصلت الى عبارة «متعبة تبدو الشمس فوق مدينتي. إنها تسير بترهل بشي بالموت. قلبي مرهف وعينا تبحثن عن عينيك في صحارى مجهولة المدى بلا ماء»، تصورت مدى فجيعتها بنا هذه التي انسكبت يوماً فوقنا كمطر شتائي خصب قبلتنا، ثم مضينا عنها، فضت وهي تديننا جميعاً.

في تلك الليلة فاجأتني بانها سترحل بعد ايام، تاركة دمشق نحو مكان اعتبرته احد اسرارها الخاصة، ولكنها وصفته بانه مريح وعذب ولن يكون مملأً على اية حال. وسألته: أهو الملل أم الانتهاك؟ فابتسمت بهزء: ربما كلاهما معا. ومرة اخرى دارت الاسطوانة القديمة بيننا، عن عبث الهجرة والزواج ومحطات الحلم المفقود، واذكر انني شعرت بالرعشة وبشيء من العار وهي تقول: انك تنسى انني ارملة واسمع يوماً الاصوات القذرة وهي تنالني. عالم دمشق ما عاد يتسع لي. في كل ليلة أشم في مخدتي وثيابي رائحة الاقدار. لقد تلوث وتسعم كل شيء هنا.

كان شعور الوحدة في غيابها يطغى علي وانا مستقل في كهني المقفر، فأغفل مرارة هذه العزلة، وضعني في هذا الزمن الخائن. لم تكن الكوايس تغادرني في تلك الليالي. كوايس طاغية خائفة أرى فيها اني محاصر في شعاب ضيقة وحفر لا قرار لها. واقف على حافة منحدرات عميقة مزروعة بالصخور، وخلفي مطاردون وانا لا استطيع ان اجري، ثم ارى ابي بوجهه الاصفر المحروث بالثلام الموت يناديني كي اعود الى سهول الطفولة وخيمة البحر وانا عاجز عن العودة، أمضي عنه عبر بحار مظلمة مليئة بهوام البحر، احاول ان اصطاد اسماكاً بشصوص هلامية، فأهوي في البحر وأوغل في الاعماق وورائي حيتان واقراش جائعة. وفي تجاويف الصخور اعلق. فينتقل الكابوس الى صحارى وبرار لا عشب فيها. حيوانات ميتة، وعول وغزلان وأرانب وطيور سود تحلق في سماء حادة. تطاردني الطيور فأسمع انفجارات واتعثر بقتلى فأسقط. عبر الصحراء اشعر بجثتي تنجر وانا منكب على وجهي وخطوط دم تمتد كالافاعي ثم تتحرك. تطير الافاعي في آفاق رمادية وصفراء. فأندكر في الحلم بان هذا الاق المغير يذكر بيوم من ايام الحرب. مذعوراً اصيح: منى. منى. أين أنت؟ بضيع صدى صوتي في الغبار. وتستمر المطاردة. واصحو.

بعذوبة شهوية كنت أتمنى الزغب النابت تحت سالفها المرسوق بالضوء. واذ حاولت أن أخرج صخرة الحزن الملقاة فوقنا بكلمة: سيفتقدك القمر! نظرت الي ثم الى القمر الذي بدأ ينحدر خلف احدى العمارات: تحملون اكثر مما ينبغي.

- ستبعدين لكننا لن ننساك!

باستخفاف تهز رأسها وتقول: لا شيء في هذا العالم لا ينسى. الناس هنا يغوصون في آبارهم بما فيه الكفاية.

أقول: نحن ناقصون. لا بد لك ان تفهمي ذلك.

وبعيني وعلة مقهورة، أصيب قلبها بيتم مبكر، تنهد. لا تحبب. بهدوء أمد يدي. أنيم نصفها الاعلى فوق حضني بينا النصف الآخر يتمدد على الكرسي. يتصالب وجهانا. تتسلل أصابعي لتمسح خديها وصدغها ونحوها. وأنا أفرد خصلات شعرها القمحي، افغمتني رائحة انفاسها وقد عكرتها رائحة الصباغ: لم يكن شعرك بمثل هذه الخشونة فيما مضى.

مسدت حاجبها وأنفها الصغير: وستفتقدك دمشق. منى!

في الضوء التمع بريق راح يترقق تحت الجفنين، تمر لحظة، ولما رفتهما انحدر خط متعرج احسست بدفته يعبر رؤوس اناملي.

لقد عاد الحزن يشعل المكان بينا انطفأ ضوء القمر وغاب.

وانا اخرج، كنت ما أزال مبللاً بالكآبة. وثباً اجتاز الشارع. وجهي مغروس في الارض والناس يعبرون. نحو جميع الدروب التي عبرنا: «الى أين؟»

ودمشق تبه. كذلك منى. صحراء من العطش والجوع واللهفة، تضع فيها ولا أحد يسأل: من أنت؟ كيف ولماذا جئت دمشق في هذا الزمن الضيق؟ منذ قامت هذه الحجارة، وشمخت، كانت ممرأ فقط.

مقبرة للذين حكموا، والذين عشقوا، والذين جاؤوا من الاقاصي. خطر ذلك في الذاكرة شبيه ومض قاتل.

هي ذي حديقة السبكي مزدهرة بالضوء والهجران البشري. هنا لم يبق الا المكان والروائح وهبوب الزمن القديم. وفي كل غروب كانت تأتي ومعها مفتاح، وانت مستقل على فراشك تصلي لقدمها الاصيلي، صلاة المغرب. هوذا صوت حذائها يضرب بلاط المرمر. ويشن الباب.

- منى!

بها كان يمتلئ المكان. تعمر الحجرة بالفاتنة الدمشقية الموردة كالشفق.
فتزدهر الاحاسيس وتتلون. تهب بقدميها كل أفراح الحياة مشتعلة في النفس
والحجارة.

وتهزني. تقذف اللحاف: أيها الكسول المتغافي.
في غرفة معزولة عن ضجيج العالم يورق نشيد الفرح والتملك. أتملئ نافضاً
غبار النوم الكاذب، ثم أتب مسحوراً لأتلقاها داخل هذا الحجر الصغير الذي
يؤويننا. تحرك. قلب الكتب ثم تتناول زجاجة بيرة، وتفتح الراديو.

- انا جائعة.

تحضر الطعام وتبدأ المسرة.

تقرأ شعراً بدايلاً. تسألني: ما رأيك؟

ابتسم اغماضاً. ندخن. أقول: لديك امكانية.

- سأكون شاعرة هاه؛ احلم بوطن من الشعر.

- بل بوطن من الانس. أنت مستوحشة.

بمحادة ظاهرية تضحك. أتملى بشرتها المعجونة بالثلج والنار، ثم شفتيها وهما
تمصان اللقافة بعصبية وتوق.

اقلبها بعبودية خاصة، ويبقى وجهها الساكن بلا تعبير، فأطوق خصرها
أضغط بعذوبة: نخب... نخب ماذا منى؟

- نخبنا.

- ومن نحن؟

ونرفع كأسينا. يضيع السؤال. تتحرك حركة مقصودة مفلتة خصرها من يدي.
وتدير مجرى الحديث نحو عالم آخر.

- «لماذا يحدث ذلك»؟

أنساءل في سري، رانياً الى تعابير وجهها بحسرة خائبة.

هذه المرأة قائمة قربي، تلامسني، داخل اربعة جدران، تحت سقف، فوق
فراش فيه رائحتنا الآن وقبل. أشم رائحتها في الحجر، وفي هلام الغرفة، في
الكتب والاواني، وعلى الحصى والمخدة. ألمسها، أمسد شعرها كما الام للطفل
وأحتسي الرائحة من النحر والتدين والابط، ومن مرج ظهرها اللامع الفسيح
المهد.

مرة ايضاً، وايضاً، لا الجسد يجيب، ولا النفس.
تتنفس فقط كمن يُحتضر. بحشرجات قسرية تملل كأنما تستشهد.
دونكيشوت السهول الباقوتية، المبحر عبر جحيم الجسد، والموت اللذيذ، ينكسر
طعناً في ساحة حرب.

- الم تعرفي الجنس منى؟

-

- قولي ما الذي تحبينه؟

باشمئزاز: هيا... يجب أن ننتهي من هذا القرف!

وتتملص كمن يختنق بجبل مسموم.

وهي ترتدي تنورتها على عجل، تبسم هزئة من كل قيم العالم. تصمت ثم
تقول: لماذا تسأل؟

- لماذا تخافين الجنس؟

- هل ينبغي أن أقول أنكم مغتصبون؟

- هذه الأنتم القذرة. كم هي مؤذية!!

- بيننا مليون سنة ضوئية. أنت لا تفهم احياناً كما ينبغي..

- بل بيننا اللطخ الداخلية.

محزن وجه منى المظلم اذ يتعثر بالجنس. أقتل مع نفسي كي يُضاء. ومع
الايام كانت كالانلام تنحفر في ذاكرتي، واشمة ممرات النفس بعلامات لا تنسى.

- ٨ -

في دمشق تبدو الاشياء حادة كحرف السكين. ثمّة نذير تتوقعه يحدث في اية لحظة. وفي جميع النهارات والليالي نبتلع تلك السكين الواقعة في الحلق. السكين التي لا تسقط وتنهينا.

ودمشق ليست كما انتهت وتصورت: اوقيانوساً مزدهراً بالغبطة والكشوفات النبوية.

أصوات البيع والشراء. النساء الشهيوات يتصبّن امام عينيك ورغباتك المكبوتة بقامات كالقصب ثم يختفين كحلم. الخمارات، والمقاهي، والسيارات المجنونة، والناس غير المهمومين ما بقي البيع والشراء. ثم هذه التي دُعيت زوراً: الثورة. الحياة تجري باسم الله مجراها ومرساها.

ووحدهك تعتقد انك حامل هموم العالم، تبحث في المداخل والمخارج، في الزوايا والتكنات، وفي الكلمات والوجوه، عن شيء محباً ترومه امانك الخاص.

محطات. محطات. ولا امان. والغبطة الروحية تبدو وهماً خادعاً. مدينة بحجارة وبشر، وأينما وُجد البشر تنوخ الاحزان. وتعبّر. تتوقف قليلاً ثم تمضي. القطار يمضي، ومن النوافذ ترى الزمن. الناس والاشياء تمحوهم سرعة القطار، ويمضون. والريح تحمل الروائح فقط. وتتساءل: «ما معنى هذا الجسد ان كنت لا تصل»؟

وينفجر الشوق لامتلاك العالم. يتبدد داخل حوافي الجسد. بضوئ وتشم الروائح فقط. وسامر البدوي وحده يتمرد خارجاً من منطقة الروائح.

زمن قاس بيده سوط. يسوقك من بوابة البيت الى مستنقع الوظيفة، ثم الى الشوارع والامكنة الاخرى. مهرولاً تحت غمامة كثيفة توشك ان تمطر كذباً وخدائع.

يكاد صوت رعدھا يدوي فيك، فيه، فيهم: احد ما ليس في مكانه الطبيعي. أحد ما لا يستطيع ان يكون ما يود أن يكون!

وفي سري احببت سامر البدوي. وفيها بعد حزن من أجله ثم اكتأبت اكثر لأنني لم استطيع ان أحبه كما أريد.

لم يكن صعباً اكتشاف فسحة بؤرته المركزية التي تمتد لتطال الآخرين، ولا حماسه لخلق إشعاعات مغناطيسية، تقول ساحة الانا فيها: مني تصدر قيم الأشياء والتي تعود.

لكن هذا التدرن الأعلى لا يمزق علاقتك به بعد أن تفهمه جيداً. سيتم ذلك بعيداً حتى لا تصبح شاشة يعرض عليها مغامراته ومهرجانات ألعابه الصغيرة. في بيته سقانا ويسكي ناشفاً بلا أي مزج، وأسمعنا موسيقى، وشعرأ له.

قيل الفجر انسحب راني، هارباً من الجوّ الجاف الثقيل. واذا عرفت ذلك متأخراً، أحسست بالغربة والحق. حتى انبلج الصبح، وأنا أدور في شوارع الطرف الشمالي من المدينة. في رأسي المصدوع طنين لا يتوقف، وفي عظامي استوطن كل برد الفجر. ألف الشوارع ولا أعرف كيف أعود إلى البيت. وفي دمي شهوة مخمورة لامرأة تنتظر وحيدة في حجرتها.

- متى تكتب الشعر؟

- عندما يتعتني السكر. آنذاك يصير العالم طيفاً ورؤى فأدخل هلام الألوان والصور المترائية.

- لعل هذا يفسر ضبابية شعرك.

- ليست ضبابية. أنا أكتب بالرائحة واللون والوجع.

- الوجع الخاص!

- ومتى كان الشعر غير وجع رؤيوي شديد الخصوصية؟

- لدى معظم الشعراء العرب القدامى على ما أعتقد.

- أبدأ. في شعر طريقة إحساس أبدي بالموت، وصوبة ذاتية للخروج والرفض لعصره. أمرؤ القيس كان صوت الفرد الذي يرغب امتلاك العالم من خلال رغباته. النواصي أيضاً. الشفري وعروة، ذؤبان العرب ماذا كانوا غير ذلك الصوت الخاص الذي ينمو في النفس وبعد حين يصدي بوجعه.

- كانوا استثناء!

- هؤلاء هم شعراء الأصل. لقد تخلصوا من سرطان المديح والهجاء والوصف السخيف المتمثل في مدرسة البحري وجريز والفرزدق إلى آخر القافلة المعروفة.

- لكنك تبدو مغرقاً في الذاتية. يخيل لقارئك أحياناً أنك تهلوس.

- ربما. الشعر رائحة وطعم وموسيقى. تماماً كما تنتشي بموسيقى موزارت لأول مرة دون أن تعرف عنه شيئاً. الشعر لغة سرية. نوع من الغيبوبة الصوفية تبحر على منها دون أن تسأل إلى أين.

كان الآن على نجوم حالة كتابة الشعر. وجه دام يتألق بجمرة خاصة، وعيناه تلمعان كمعني قط بري متأهب. وراح صوته يقرع كصنج من نحاس بينا يدها تتحركان في الفراغ حركة افتراسية، وفي ربي وجهه امتزجت القسوة بالامتلاك. كان منفعلاً بضعف باد.

واذ سأله: في شعرك لا يبدو أي أثر للثورة، رجّ ضحكة واثقة. غبّ شيئاً من الويسكي واشعل لفافة «لوكي» ثم نشق: ماذا تعني بالثورة؟

- الالتزام بالجماهير. ألسنت منخرطاً في الحزب؟

- أحياناً تبدو خبيثاً رغم ان هذا لا يبدو عليك. يا عزيزي المثقف المتغابي من الذي قال لك ان الشعر صدى للجماهير؟

- وهل هو صدى نفسك؟ أنا ماذا تعني حياتك الشخصية المبجلة؟ ثار. رفع صوته. ضرب بيده المنفضة. اتهم. قدم تقارير مشوشة عن رامبو وبودلير وأبو لينير وبيرون. لكنه ظل متهماً فغادرته.

حياة مفعمة، مرتعشة غريبة. ارتعى في جحيمها يوماً، ومع الزمن صارت طقسه الأبدى. قفصه المحكوم بالعيش فيه.

ومن راني إلى سامر البدوي تمتد مسافة من العلائق البشرية. راني مسحها واستطال فوقها، بينا كان سامر يرعاها بثوانيه لتصله بعالمه الفردي، وتراثه الجنسي.

بحياته فقط أقنعني. بهذا الاخلاص اللانهائي لما يرغب جسده الفاشي الذي استعبده.

□

أمسكتني يد. بصعوبة فتحت عيني. نشب الصداق، وجرتني أمينة إلى الحجرة.

- أهكذا تفعل بنفسك؟ سمعت الجملة كطنين. تمتت كلمات ناشقة. وارتعيت على الديوان: كم الساعة الآن؟

- الخامسة. أين كنت؟

- في الشوارع.

- أنت ثمل.

- متعب وأود أن انام. متى يستيقظ؟

- منذ ساعة نام.

وباستسلام تمددت، غير عاى بما قد يحدث.

بين النوم واليقظة سمعت سقطة الباب تسحج، وأحسست لحافاً ناعماً يغطي. ثم لا شيء.

بعظمة الموت وكراهيته، قام من قبره. خطا نحو بيتنا القديم، خطوات وثيدة كمن يمشي في الهواء. كنت أراه وما كان باستطاعتي أن ألمسه. كان ميتاً وحيّاً في مكانين مختلفين. رأيته يطوف حولي ويرفرف بأجنحة شفافة. يقترب ثم يبتعد كأنما في وجهه كلام يود الافصاح عنه لكنه لا يقوى. وسألته لماذا مات هكذا بغتة وتركني وحيداً، فأشار إليّ بأنه لم يتركني، وفهمت انه يراني أبداً ويشاهد حياتي. وبدا لي هناك على حافة الضوء والظلمة أسياً غير راض. وسألته ان كان راضياً عن حياتي وهل حياتي رديئة. وماذا تقول عني أوراق الباطن والظاهر التي ابتلعها فارتسمت ألواحاً أبدية على جدار جمجمته.

وقلت: ألا يكفيك أنني ورثت عنك الخمر وحب النساء، وأن عصور الرداءة الدونكيشوتية لا تنتج فرساناً كالذين حلمت بهم وأنت تصبّ شهوتك فيها، وأنني وقعت في المغريات وفي حباثل نفسي التي وصفتها بالأمانة بالسوء. وأنا لا أرغب أطفالاً من امرأة، وما عاد باستطاعتي أن أعود إلى البيت.

ورأيته يشير نحو امرأة قريية تشبه أمي ونهاني أن أبتعد عنها. وهلوست بأنها امرأة وحيدة تهدم بيتها، وأنا أحاول أن أعيد لها بناءه من أجلها وأجلي. ودخلنا في حوار مشوش غير مفهوم حول الحلال والحرام، والخير والشر. وبدأت هالته

النورانية تشحب وتنسحب. كان متشحاً الآن بألم عميق ويجراحه ، وبدأ يغيب .
 وصرخت : لا تتركني . خذني معك . وهزئ مني ، ودنا نحوي فغطتني نظراته باحتقار
 شاحب ، ثم استدار وراح يخطو في الفراغ . وقلت : امض . أنا أكرهك وأكره أمي
 وأكره بيتي القديم . عد إلى قبرك . عد . وفي غمرة من ضباب اختفى وحضر وجه
 أمينة متعباً ، ضارعاً ، ثم حضر وجه منى ، ألقاً ، حزناً . وامترج الوجهان داخل
 عالم غريب مسحور . ورأيت مرجاً من عشب أخضر قرب ساحل بحر بعيد .
 استلقينا متعانقين بين الأعشاب . كانت الأعشاب رطبة والمياه تجري قربنا . وكنت
 ظامئاً كأنني ابتلعتُ صحراء . عندما أيقظتني أمينة كانت تمد لي كوباً من العصير ،
 واذا استفهمت بعيني منها قالت : كنت تصيح : الماء .. الماء ..

- ٩ -

ذات مساء داهمتني فكرة صياغة نظرية عن الانسان العربي ، سميتها بيني وبين
 نفسي : التعويضية . واذا قرأت قليلاً من علم النفس التحليلي وآدلر ، انكفأت
 وقلت : لا جديد تحت الشمس .

كانت الحياة في دمشق قد انحرفت عن مجراها الطبيعي ، بعد أن تاهت مني
 وابتعدت . وتعثرت بأمانة .

لقد حدث انحراف فردي تعويضي ، نحو جداول فرعية اسمها : الخمر والجدل
 السري والبحث عن النساء والأرصدة وميتافيزياء الأحاسيس المنفية وسائر التثرثرات
 الأخرى .

بدا ذلك رداً فاشلاً ضد التبريرات الواقعية الملونة بالكذب ، وضد القصور .
 وفي الوطن الذي تغلغل في مجرى الدم ، كانت الأنماط تحترق بهدوء وسكينة في
 عربة العطالة .

لقد تلوث الزمن .

وفي ذلك الزمن كنت أشعر بأنني متوحد ومنني كشجرة في قفر ، في مهبّ
 ريح سموم .

ولأنني صممت أن أكون نفسي ، رفضتُ واثقاً التبرير ، فكرة الضحية
 للأجيال المتقدمة على انقاضي .

في لحظات الصحو كنت أتملّل كمن سرى فيه سمّ ، سائلاً اللاشيء : كيف
 حدث ذلك ؟

في النادي التقينا . عاتبته لأنه تركني في بيت سامر وحيداً . وفسر هروبه بملل
 الجوع ، وكان حزناً في تلك الليلة .

- ضاجعت أمينة صباح ذلك المساء.

وزعق فرحاً: معلوم. عوضت أياها الشبل اللعين عن غيابي. اشهد أنك قت بعمل ثوري عظيم.

وقلت: حدث ذلك صدفة.

نه: في علم النفس لا يوجد شيء اسمه صدفة.

- إلى متى ستظل تطاردني بالرفيق فرويد؟

قهقهه لكلمة رفيق: علم النفس التحليلي يقول ذلك: أنت كذاب. ما سيحدث جاهر في اللاوعي. ايه. احك لنا كيف كانت أمينة؟

- لماذا لم تقل الرفيقة أمينة؟

وأشرعنا ضحكك تناسلتا في لحظة واحدة، ثم قرعنا كأسينا.

يصح جسدي عندما أضطجع مع تلك المرأة. أشعر وكأنني خارج من حمام بارد في نهار قاتظ. في أزمنة الرداءة تختفي الأشياء الجميلة. حدثت بذلك وأنا أسوح في بحار جسدها المجهول: كيف لم يكتشف زوجها الغبي هذا الجسد الفاض بالنعم والخيرات الالهية؟

- أليس حراماً أن يهجر ذلك الجسد من أجل الخمر؟

قال راني: يا سبحان الله. يا أخي خلق الانسان ملولاً!

□

راني بوجهه المحروق، بعينه العميقتين، وكلماته المنبوشة من أعماق الفهم النفسي للانسان، يعيد بعض الطمأنينة. يعطيك مسرة خاصة في عالم مقلوب يمشي على رأسه.

- حياتنا الطبيعية تحولت اسراراً بفعل التعامل مع المحرمات والتوق النابع من حاجة الجسد والنفس.

- يحيا التعويض في العالم الثالث.

وفي ذلك المساء يفيض شجناً عن التي يحبا. بوله حكى بعد أن شرب كأسه الثالثة. كنت صامتاً أكثر الوقت لهذا الذي تلوح فيه بشائر الضعف البشري المقدس.

كانت المرأة تنسكب نحو اغواره فتحيي أحزانه النائمة في أرض مقفرة، واذ يفور حزنه يصير حيواً شفافاً كالدمعة، آنذاك يلمع الانسان فيه منبثقاً من خلال كل ذلك الوشل والركام الطافي فوق سطح حياته.

قرأ لي رسالتين في تلك الليلة، احدهما منها والأخرى منه. وتحدث عن أزمة الرضى والاكتفاء. عن الطفولة المحرومة وحنان الأم، وعن الفشل صديقه الحميم، «ولينا» الخائفة الا ترضيه.

على وجهه لمحت الرعب يمشي. قانع وخائف، لأنه اعتاد فقدان واختار الغضب النفسي، حتى أزمّن النقص فيه، بدا موجعاً ومذعوراً من قناعاته الموبوءة بالشك.

ولست أدري كيف تحلل راني في تلك اللحظة الخاطفة، وامتد تحت سماواتي الملعونة بالرصد حتى صار جيلاً موسوماً بلعنة دهرية تسحقه صخور الاحباط، يسقط ألف مرة ويقوم، وفي كل سقطة يخسر شيئاً من جسده ونفسه. عبرنا جميع الشوارع التي نحبّ خباءها العنمي. غنينا أحزاناً لدمشق الغلسة. جلسنا على الأرصفة. بكينا. صرخنا.

قال راني دامعاً: لو ان لنا معنا الآن!

صمت.

- أحلم بحياة مفعمة نعيشها سوية.

رنوت إلى النجوم الذهبية اللامعة.

- ستكون لك غرفة خاصة في بيتنا، تنام فيها مع أمينة ومنى. ما رأيك؟ تحركت الريح بشجن مسائي، تغلغل في حشا أيامي التعتات. أرسلت صغيراً غامقاً امتزج مع أنين الريح. كنت منفطراً من الحزن.

وهاجس راني الليل بشبابته: «هيات يا ام الزلف. لنا يا عينا».

قطفت زهرة ياسمين. ناولتها له: هذه لينا.

في الفراغ قفز بطفولة غنائية وقبلني: يا أعذب من في دمشق.

وسرحنا في الليل. صبيين فقدا الهناء. رانين إلى الطمأنينة الهاجعة في الغرف النائسة الضوء.

فجأة سأله: هلا حدثني عن المرأة الأخرى؟

ونفض. مشى نحوى مترجاً ثم تخطاني، وراح يدق بايقاع وجيع أرض الرصيف.

[]

بتهمة العطب ألقي القبض عليك. دمشق قالت لي ذلك وتاريخك الوريثي. ثم الحب المفقود.

- «أين يوجد المثال؟».

- في براري المفيين الذين اختاروا مناطق الخطر.

ويوما وددت أن تجري الأحداث كما يجري النهر، بعيداً عن ردود الفعل والثرات.

كما الإبرة المغناطيسية تتجه نحو الشمال، اتجه نحو غرفتها. الخمر، أم الرغبة، أم شوق حنان الأمومة، أم صوفية الليل، توجهني مأخوذاً منوماً نحو المرأة التي جرثمت جسدي؟

ضوء الغرفة ينتشر من خصائص الشباك، والمطر ينهمر، كذلك ضوء غرفته هو الآخر.

لما تم. هو أيضاً يكرع الخمر، وحيداً مقرصاً فوق جلد خروف متسخ، قرب مدفأة حطب موشكة على الخمود.

تحت المطر أتوقف. ثم باسم العطب والتوق، ادخل.

الطفلة سهري. تحية محترمة. سؤال رصين يحمل أقصى النبل الظاهري.

- كيف المدرسة سميّة؟

ثم جلسة متماسكة فخورة بالشرف والحياء الفجّ.

- نحن لا نراك إلا لماماً. قالت الطفلة.

- العمل حبيبي. أسافر في إجازات ومهمات باستمرار.

- لكن نحن نود أن نراك دائماً.

أبتسم.

وفجأة تسأل أيضاً: لماذا لا تأتي وتسكن معنا؟

بعينين حائرتين أدور في سقف الغرفة. أسأل نسيج العنكبوت المتدلي من زاوية

وحكى بشجو: متروجة ولها أطفال. فاجأتها يوماً وكنت مغلفاً بشوق حقيقي إلى امرأة: أريدك يا أنجليك. كان ذلك في ليل معتم وهي في ثوب نومها الشفاف، أصابها مس من دخولي المفاجئ. ودّت أن تصرخ فكمت فيها. سحبتها إلى غرفتها الخاصة. كان هناك سرير وأرض مفروشة وكنت مبللاً بالمطر. بعد صمت أشعل لفافة وتابع:

تعرينا. أنا عريتها بيدي هاتين. كانت ما تزال في بحر ذهولها عندما انتهينا.

- ألم تخف؟

حرك رقبته يميناً وشمالاً. توقف فجأة: لم أخف؟ سمعت الخوف يخرج من حلمتي ثديها ومن أظفاري. كان يختلج في الثواني وفي الأنفاس وعلى سجادة الغرفة حيث تمددنا، صار للخوف أرجل وعيون وآذان. تصوّر أن تقتحم بيت امرأة ضابط في غيابه: لقد تقمصني الموت لكن الجنس كان أقوى.

- كانت رائعة؟

انجذاب حزنه لحظة فصل كمهر فوق مرج أخضر. مد ذراعيه في الفضاء وجرى مسافة، ثم توقف: أسأل أيها الزنديق عن امرأة دمشقية ان كانت رائعة؟ كانت ذهولاً جسدياً يُشَم ولا يلمس. أم... أم...

حمحم واثباً في الهواء، بكل انتشاء الانسان، وفجأة سكن. ومن سهاوات خفية، انهمر الحزن. شطر لحظة الفرح المباحة، وولدت اليقظة لماذا الفرح ناقص فوق هذه الأرض الملعونة؟

إزاء حديقة «المدفع»، رحت أسير ببطء، مُكِبّاً نحو الأرض أعد مربعات الرصيف تحت الضوء. تحرك نسيم صيني رخاء هز سكينه الورق الأخضر فوق أشجار الحديقة.

- راني. أنت نادم؟

لم يجب. انكبّ هو الآخر فوق سياج الحديقة. فبدا مطوياً كجنين في رحم أمه.

وأنا أسير تذكرت حديثه عن الأحلام العارية مع أمه، والندم الذي يطارده مذ ماتت، وندوبه الداخلية.

- أنت تتحب!

السقف أن يسعني بجواب. أقول كاذباً: أسكن مع أصدقاء في بيت واحد وأحياناً تأني أُمي.

— لماذا لا تأني أُمك وتزورنا؟

أُمينة يكاد يغمي عليها. تود أن تصبح بالبنت: أن اصمتي. تتجهم: سمية. آتني بالسماور من المطبخ.

وإذ تطبق سمية باب الغرفة، تثب أُمينة كغزالة عطشى. تشرق ابتسامتها مغموسة بشهوة مستورة. تنفج حولي قليلاً، ثم ترتني في حضني وتغرس شفيتها البارتيين في شفتي. تطوقني بقسوة جنسية مفعمة بالأمومة. ثم تدور بردفها في حضني. وإذ اعتصرها تموء ثم تزقو بدلال دمشقي: أووه. أنت قاس علي. تعذبني بغياك الطويل. قبلني. وأمتص شفيتها بشهوة ولدت الآن.

إذ يقبل خوفها، تنهض. وجهها مورد، وعيناها تلمعان ببريق مستسلم. تنفث بعيداً عني وتغمز نحو غرفته، رافعة يدها الفارغة مشيرة إلى الاحتساء اليقظ.

— أعرف. اسمعي سآني اليوم.

وتقول همساً: لكنه يتأخر. منذ أسبوع يسهر حتى الثالثة بعد منتصف الليل! تهب في الجسد رغائب الطبيعة، وشهوات الدم المحرور فأصرخ فيها: اسمعي. سآني ولو كان ينام معك في فراش واحد.

كمهرة صغيرة فرحة، تقبل سمية. راسمة ابتسامة أزلية لا تغيب. تنظ فوق سجادة الغرفة معلنة بحركاتها الترحيب بقدومي.

تفرد ذراعها وهي قادمة: ماما..

تعرضها بعبوس: سمية!

— دعها. لماذا تصرخين بها هكذا؟ الأطفال لا يُصرخُ بهم.

تشر أنني أمرها كزوج، فتصمت.

— عمو. لدي لوحة جديدة رسمتها في المدرسة.

— أرينها.

وأبدي إعجابي باللوحة. أشير بملاحظات هامشية عن اللون والمنظور بينا أُمينة تعدّ القهوة.

أنا وأُمينة حالة هوس. قطبان: موجب وسالب يتجاذبان. أفكر بالحرام الموروث، والصبوة الدمشقية الممتعة، وخسائر الحروب الطويلة، والتعويض. ثم أقول: «عشاً تعوّض بك زمنها المقرض. لقد سافر الرضى إلى مجاهل نائية. وها هي وحيدة معك داخل زمن تبدو فيه حراً وهي مأسورة؟»

تقدم القهوة باجلال. أتناول منها وهي جاثية على الأرض قرب قدمي.

— «أنت حرّ في زمانك أيها السيد».

وأنخر سخرية من نفسي، ومن هذا الزمان الذي أحيا فيه. زمانني المخصي. وأنا أحتسي القهوة أرثي الطفلة وظائفها. صحّحت لها بعض الأخطاء بعد الشرح. وراحت تحدثني عن غباء مدرّسة اللغة العربية، وقسوتها عندما تثير أية طالبة سؤالاً يخرجها.

كان وجهها مائلاً، قريباً من شفتي. شممت رائحة شعرها القصير الكستنائي. كانت لها رائحة أنثى تدرج نحو النضج.

وداهمني إحساس آثم، جرثوم العطب نغل في الداخل رغماً عني. كان ذلك مربعاً ولعيناً رغم لذته الآنية. الام والأبنة معاً: آه. يا للهول!

— كانت أُمينتك أن تختص في علم النفس.

وقال راني: سأحقق هذه الأُمينة في نيويورك أو لندن.

صحت بخباثة: في بلد الأمبريالية العالمية؟

بدعابة قال: أنت جدانوفي. هكذا تبدو لي أحياناً.

وقلت: الذي سيمنع روايتك جدانوفي ومكاريثي معاً.

بَهْه: روايتي رواية قومية.

ابتسمت هزئاً: هيه. يا للراوية القومية المفعمة براائحة الجنس!

— أيها العقائدي. إسمع.

— تفضل.

— أزمة الثورة مرتبطة أساساً بالجنس في جانب من جوانبها الإجتاعية والنفسية. أحد السياسيين الكبار في هذا البلد قال: لن تكون هناك ثورة في هذا الوطن ما لم تُحلّ قضية الجنس والدين.

بدهشة مرحة قلت: لو كنت مكانك وسمعت هذا التصريح لالتزمت فوراً بالحزب.

مرة أخرى انتفج: أنا عقائدي حقيقي بلا هتاف ولا صنوج.
تحت مطر دمشق الليلي أيضاً. متعة ذاتية بخاصية المطر والبلل. في مكان ما امرأة تنتظرك، ستسرح عبر مروجها الخضفر الطرية بعد دوار طويل. إحساس يسكن قرارة النفس، يبرر هذا الدوار المتعب.

دوران الشوارع في ليل بليل. حبات صغيرة باردة تنقر معطفك، تورث إحساساً شعرياً بالتشرد، إحساساً مبتلاً بالحزن الخفي، بالعودة البدائية إلى فرح الأشياء. ثم هذا الوميض السحري للجنس المرتبط بالأسى في أخريات المساء. الناس الأسوياء والناس الناقصون. النقص الهرموني والطفح النفسي. ما في الرأس وما هو قائم على الأرض.

عوالم بعيدة ساقطة في أغوار التاريخ. تشيل، تشم روائحها في هذا البلد الأمين الذي باركه النبي لكنه لم يدخله.

- «أهذا ما كنت تحلم به يا عزيزي المهاجر من وطن الشمس والبحر إلى وطن الحب والشعر والثورات والبشر الأنقياء؟»

- «وأنت ماذا تفعل الآن؟»

وقبل الآن وفي جميع الأماسي والنهارات.

الليل يدخل في النهار، والنهار يدخل في الليل، وأنت تدخل فيهما، وهما يخرجان منك. أمينة فيك، وأنت في منى، ومنى خارجك، وراني يعبرك، وسامر البدوي يحاذيك، وأنت خارج من نفسك ومن أمينة ومنهم. مرثية معاصرة ينشدها رجل ثمل، مفعمة بالحزن ورائحة الموت. آه. لو تدري ما تفعل! هم أيضاً لو يدرون!

- «اللهم اغفر لي ولقومي!»

- إفتح ياسمسم، إفتح. إفتح للعربي الناقص في العصور المنحطة.

وتتب أمام وجهي هامة: لما ينم بعد!

- ١٠ -

أختي ماتت بالربو في عامها الثالث. هكذا أخبرتني أمي بعد أن كبرت. وإذا سألت أمي: لماذا ماتت؟

تهدت وقالت: بإرادة الله. الله يحبي ويميت من يشاء بغير حساب يا بني. وظلت طوال حياتها محسورة عليها.

سألت منى: أريد منك صورة وأنت صغيرة. هل لديك؟

- سأبحث لك. ولكن لماذا؟

- أريد أن تراها أمي.

- أمك أم أنت؟

- أمي.

- ما علاقة أمك بصورتي.

- سأمزج معها قائلاً: أنظري. هذه كان من الممكن أن تكون خطيبي يوماً.

- وإذا ما سألتك عني؟

- أقول لها هاجرت إلى بلاد نائية لقوت بالربو.

رفعت ضحكة عالية: بالربو. لماذا تميّنتني بالربو؟

واستمت: نكتة عابرة. أنت مسافرة ويجب أن تفرحي قبل الرحيل.

كانت منى تعتقد أنها وجدت زورق الإنقاذ الذي سيحملها بعيداً عن دمشق بعد أن صممت أخيراً على الهجرة.

كان مساءً عذياً، بدا وجهها فيه متألقاً كقمر ناضج. وكنت قريباً منها في ذلك المساء. الإحساس نفسه لصديق اختلفت معه ثم غاب فجأة أو مات. لست أدري كيف اقتربت مني، وبدعابة مفاجئة طوقت عني مبتسمة: آه لو أخفك!

كانت أناملها الملساء الطفلية تضغط بحجارة، وانحدرت نحو صدري وراحت تدغدغه.

وجهها الملامس لوجهي يغسله ضوء القمر. وذوائب شعرها الفاتح يمس فوق شفتي. يومها كانت أنفاسها المفعمة تدخل في مسام جسدي كله. لحظتها تذكرت أحلام المراهقة عندما كانت تذكر دمشق هناك.

- «أية آمال حلمت بها قبل أن تدخل دمشق دخول الفاتحين المنكسرين؟» وأملت وجهي فالتصق بخدها. رمت ثقيلها وحملها إلى الغرفة المجاورة وفجأة تذكرت أصابتنا.

من جيبي أخرجت علبة التبغ، ثم قفزت بعيداً، وبحركة مرتعشة أشعلت لفافة، مجت منها ثم ناولتني.

ثمة صديق يموت. يقوم بحركات وداعية في لحظة مزج بين الحياة والموت. هكذا كنت أشعر. لحظتها ولأول مرة أحسست أنها تحبني أكثر من أي وقت مضى.

- «لو يموت أحدنا تنتهي هذه الملهاة!»

مصصت عقب اللفافة، فأحسست طعم شفتيها. كان كل شيء يتراقص كحلل في تلك الأيام العصيبة.

الشوارع أيضاً. قرع حذائي على الأرصفة والأسفلت. مطر. مطر. مطر. حزين، له طعم الجنس والشعر يلالي فوق رأسي ثم ينسكب في داخلي: أبو ناصيف. بطحة من فضلك.

ولا ينبس. أناوله وناولني. وأهيم فوق الدروب تحت السماء المطيرة.

أذكر أحبابي وأشرب. أذكر أحزاني وأشرب. أذكر وطني وأشرب.

أنعطف في طرقات دمشق. أكرج وأدندن تحت المطر ولا عزاء. وفي الداخل يسقط مطر آخر.

[]

الضوء الأحمر يعقبه ضوء أزرق ثم أصفر، تلك هي الثورة.

لا. هذا عالم «التيفولي» الصاخب، المفتل. نوازل كاذبة مدلاة من السقف، صنعها ديكوراتي يتقن اللعبة جيداً. ثم الرقص والموسيقى المحمومة.

عالم مصنوع. عالم سامر البدوي المستلقي الآن في حضن إحدى عشيقاته

المسنان، يغيب فيها حتى يفرغ ثملته، ثم يسترخي ويضعج، ثم يهاجر في ظلام دمشق مهزوماً مثلي الآن. ولكن من الذي قال انني محمور؟

أنا مضوياً، مبحر في عالم سري نحو بواطن الأشياء. أريد أن أكتشف الذي لم يكتشف. هذه كذبة ضخمة صنعها المثقفون المعزولون. أريد أن أشم روائح الأشياء، وأن أضبط العربي في جلسة سرية. أن أقذف به عارياً في وجه مرآة. أريد أن أشرف عليه وهو يتزف لأقول له: أنظر إلى دمك. أنظر إلى تاريخك. أخرج من العصور الوسيطة وانظر إلى شمس القرن العشرين.

وأقول له: أنت... أنت... أنت... و...

ولكنه يعرف نفسه جيداً عندما يخلو في غرفة خاصة. وعندما يسكر. ها. ها. تلك هي طاقة الإخفاء.

مباركة أنت أيتها الخمرة. طوبى لزارعي الكرم وصانعي الخمر وسقائها. طوبى للإنسان الذي يكتشف أسرار الخمرة فيفصح عنها بعد رحيل الخوف وإنهدام الجدران.

ودمشق قطار مُحَمَّل بالأمتعة، مُحَمَّل بسراب ملطخ بالدمقس والبروكار والنوازل، والانقلابات التي تركب قطارات الثورة. وفي دمشق كل شيء يتلوث بعد حين. تاريخ رخي موشى بالدعة والمقايسة والكسب.

هنا الحياة هلامية. غبراء كسطوح المستنقعات وهذه مملكة السباح. جمهورية القتل والنساء البيضاوات، يحتدبن برخاوة أصواتهن، وتهدج بحثائن، سامر البدوي: الثوري اليساري المفلوج بشمس الصحراء، والحامل في دماه كل عطش العربي في القرن العشرين.

- «غَب حتى ترتوي. هذه المدينة مباحة الآن ولك زمن محدود».

- التاريخ لا يتراجع. ومن يمتلك ذاكرة وقادة كالبرق ينتصر في النهاية.

ولو حاول شاهد إحصاء خطواتي تحت المطر، لتعب. نامت المدينة الآن. أضواء حمر تشق من النوافذ المغلقة، والمطر بلبل العائق الهيمان الذي صار كالخرافة.

- «إلى متى؟»

وانعطفت.

حي المزرعة حيث تهجع حبيبة جسدي، متشح بظلام يوحى بالسكينة، والحراس قد ناموا. خطوات في الشارع الفرعي. اللص التل المجنح بالجنس يطير إلى مراقد الخيانة. لكنه لا يسرق مالا ولا مدناً ولا سلطة ونحت أبطه لايخفي بندقية. لا يطمح أن يكون ملكاً ولا قديساً. فقط يشتهي امرأة في ليل ممطر. في ليل حزين.

خطوات. قلبي يدق فزعاً ورهبة. مُشْتَبِهٌ ومتوجَّس. مقرر في ليل دمشق أبحث عن كهف دافئ.

نقرات ثلاث هي كلمة السر. ويشق الباب الهويني.

- أهلاً وسهلاً. تفضّل.

تحت الضوء النائس، وجه مدلّى مقهور، حرثه الزمن باليأس والخمرة. قامه أحنائها التعب والمرأة المضغونة.

- كنت ماراً من هنا ورأيت نورك مضوياً.

- جئت في أوانك.

وولحنا. قادني إلى غرفة، ومهد لي السرير:

- هنا. إجلس هنا. أنت مبلل. إخلع معطفك وتدفاً. ورميت المعطف.

تناوله وراح يحففه: مطر عجيب لم تشهده دمشق.

- تصور من النادي إلى هنا. صرت هكذا.

وبصوت متعب قال: طقس الشام معروف. بلدنا صيفاً محراق وشتاءً مفراق.

وغزلت عيني أرجاء الغرفة.

- « هذا كهف أيوب السرحان اذن! »

سرير عتيق، وثياب وسخة مرمية بفوضى في كل مكان. كؤوس وزجاجات فارغة. مدفأة حطب رمادها أكثر من نارها، ثم هذا الغبار فوق الجدران المطلية بدهان باهت. وهذا الرجل المهتم.

في رأسي كان العالم ينقتل، وخارج أبواب الخوف والمفاجأة، استقرت أحاسيسي.

- ما رأيك بكأس؟

تجاوزت السؤال بمحايدة خبيثة وسألته: هذا البيت أليس كبيراً عليكم؟ صبّ كأساً من العرق مزجه بالماء: كبير ورطب.

ثم هز رأسه بتوجع: ألف مرة قلت لها لنؤجره ونسكن بيتاً صغيراً. السيدة المحترمة لم توافق. محال. الحجر يفهم أما المرأة فالعاياذ بالله.

ثقب صغير تفتحه في سد فيندفع الماء المحصور، هكذا بدا أيوب السرحان في تلك الليلة.

تحدث عن طفولته وتاريخه وأملأكه وأسرته التي كانت تحتاز السلطة الدينية والمادية، وحكى عن زوجته العنيدة: المرأة بنصف عقل تصدق ما يقال لها بسرعة. أقول لها: دعيك من الناس يا امرأة. فتقول: أنت رجل خرف لا تعرف من الحياة غير الكأس والثرثرة. ما عدت تصلح لشيء.

ويستطرد: إشرب أخي إشرب. اليوم ذكرناك والله. ابن حلال. ونشرب.

وهو يتحدث لا يرفع بصره إلى محدته. عينان خائبتان انكسرت نظراتهما، تنغرسان من تراكم الحزن والذل في الأرض. تحت العينين الحمراوين نصف دائرتين متورمتين، شادهما التعب والزمن.

- كانت لنا أراض وضياح ومواش، أكلها الناس. نصف السهول بالست زينب كانت لنا. بيوتنا ومزارعنا في البطيخة أخذها الفلاحون. أنت تعرف البطيخة؟

- خدمتي الإلزامية كانت في الجبهة.

ويتنهد: الحمد لله. نشكر الله الذي أبقي لنا هذا البيت من كل الورثة. تصوّر حتى أخوتي نهوني. أكلوا زرعي وضرعي.

أقول لهم: لنقم بحصر الإرث لما تبقى فيقولون: الإصلاح الزراعي سيأتي على الباقي.

ثم يستدرك: أمينة تذكرك بالخير دائماً وسمية. لم يعد لنا صديق غيرك. أخي والله نحن نحبك وأنت لا أدري لماذا تجافينا. تعال واسكن معنا. نخصص لك غرفة مفروشة وكلنا بخدمتك. أنا أدري بحياة العازب.

ويصمت قليلاً. نحو شجاعته القديمة التي فقدها، يحاول الاجبار، يريد أن

يقول شيئاً أحسه، لكنه يخاتل: شباب هذا الحكم طيبون. شهادة لله. يحبون الفقراء وشجعان. ويتوقف. يتم: أما نحن فكما ترى.

وتر لحظات من الصمت. أشعر بالضجر وأنا أستمع إلى أنينه التاريخي والنفسي، هذا الرجل المهذوم الباحث عن جسر مقايضة معي مهما بلغ الثمن. وأبتسمُ بهزه إذ تعبرني فكرة أن أيوب السرحان يعتقد أنني ابن حكومة. - «أمنية يا جحيماً من جسد محرم لا يروني». صاحت الخمرة والضجر.

على بعد عشر خطوات كانت تستلقي فوق سرير جاف أيوب مذ عرفني. طويلة بيضاء ممثلة، تعبق برائحة أرض تشتهي تجاوبها العطشى مطراً انتظرته سنوات.

هوذا يتكور أمامي على جلد خروف عتيق. رجل منقرض يمتُّ إلى الدهور الماضية. يدخن ويحتسي خمرته في غرفة عتيقة تفوح منها رائحة العفن والإهمال. يرتدي منامة كابية تخرج منها رائحة حموضة.

حزينان وكلانا يفكر بشيء واحد في لحظة واحدة.

- لو يموت هذا الحيوان!

وأصمت. هذه المرأة تحلم بحياة تولد من العجز، تخرج من الزمن الذي ركض فيها حتى أنهكها وظل فتياً.

- «لو ينكفئ الزمن»!

لكن الزمن يمضي فقط. يخترق كالمديّة وتين الإنسان ثم يخلفه وراءه خطافاً. الحياة هي الماضي يا عزيزتي أمانة. والثورة تحدث بقوانينها أو لا تحدث على الإطلاق، وهذه القوانين ما تزال طي المستقبل.

ذلك كان جدار الوعي المضاء من جانب واحد، وفي الجانب الآخر كان العجز والعطب. منى وأمنية وبقيّة الجسور المهدامة.

- أمانة. أحلم لو كنت لي...

ووراء الجدار المظلم أخفى النصف الثاني من الجملة.

أكان ينبغي أن تزوج فتين، قبل أن يغتصب حياتها أيوب السرحان وقبل أن تنهوى في الاثم وغارات الثأر لاسترداد النقص الموروث؟

لم أكن أود أن يموت كما اشتبهت أمانة. وإذا أفصحت عن رفضي لموته، سألتني: لماذا؟ أنت لا تحبني إذن!

وما كان باستطاعتي إفهامها بأنه يعاقب بما هو أشد من الموت. وتساءبت.

- ستنام هنا. قال أيوب السرحان.

قلت: هذا ازعاج لكم.

وبقوة قال: لا. البيت كبير ولدينا سرير جاهز وغرفة لا ينام فيها أحد. بيتك بعيد ولا توجد سيارات بعد هذا الوقت.

برخاوة خمرية قلت: أمشي. أنا معتاد على المشي. ونهض يجهز غرفة نومي. كان يترنح محبباً.

أورثني الخمرة صداعاً، وحكاية أيوب مزقني ضجراً، لكن فكرة النوم في البيت أنعشتني قليلاً.

للحظة شعرت أن البيت ملكي، وارتمى على شاشة نفسي ضعف أيوب السرحان المقايض وهو يوشك أن يفصح: هيا إلى فراشها. إنها في انتظارك.

عندما عاد كان يتقدم مقوساً، متمهلاً، مخضوباً بالخمير. بلعشة قال: أخي. البيت بيتك. لا. لا تخجل من شيء.

نهضت. دارت الغرفة. وهوى أيوب السرحان مرتطمًا بالأرض. هلعت. سارعت إليه. تأ تأ: لا. لا عليك. ضعني... في الفراش. نح... نحن نحبك كثيراً...

حملته بصعوبة. أرهقني إيصاله إلى السرير. غطيته وجلست قربه منتظراً غطيته

كان وجهه بلون برتقالة نترت تَوّاً عن غصن أمها.

بصوت موجه خافت راح يثن: آخ... يا أمي... آخ... يا أبي... آخ يا أمانة...

ونام.

أطفأت النور وأغلقت الباب، وبهدوء مطمئن اتجهت إلى الغرفة.

الضحى. تمللت في الفراش. كنت ما أزال مصدوعاً. عبثاً حاولت تذكر الحلم الذي رأيته. أشعاث منه هومت: مطاردة عبر جبال وعرة. رجال مسلحون ثم

اختباء في كهف صخري. امرأة ريفية هاربة وطفل مذعور تركته تلك التي يمكن أن تكون أمه. وأنا محتجئاً أرتجف من الهلع. سحبت المرأة إلى داخل الكهف. كانت مذعورة تلهث. وإذا لامستها أحسنا بقليل من الأمان. فجأة مارسنا الجنس بصفاقة وسرعة ونحن نسمع أصواتاً وحشية لأناس واقعين في ضيق. كان الكهف مفتوحاً من جهات متعددة وبدأ ضيقاً. لم يكن هناك ظلام. شعرت بالقرع بعد العملية الجنسية. ثم لا أذكر شيئاً.

ونقر الباب. لم أتحرك، ودخلت بالفطور. حددت فيها تحديقة رجل يعرف مواقع حبات ظهرها الأرجواني: صباح الخير. وبهدوء طقسي وضعت صينية الطعام قربي.

- لم لم تأني؟

- لم أعرفك أنك هنا.

- كذابة. قلنا بحق رجل امضى ليلته متوحداً.

واستحال فرحها غمماً: ألم تسمعي الدقات؟

وهي خارجة لمحت كفلها يرتج. كان حوضها يثير شهوة الحجر وهو يرتج

داخل الثوب الوردي الشفاف، والمطعم بشجيرات سود.

إذ توارت فارت الرغبة وخمد الحق. وددت أن أصرخ بها: عودي عارية فقد غفرت.

لا بد أنني شربت بالأمس أكثر مما ينبغي، ومن كل خمور العالم. عرفت ذلك من هذا الجشأ والفراغ، ومن هذا العزوف العضوي عن كل شيء. موسيقى مبهجة انطلقت فجأة من الصالون، بدأت تعيد لي شيئاً من اتزان. وقفت أمينة الآن على الباب وفتحت ثوب النوم الوردي لتبيني ثم أغلقت. صحت بها: أنت امرأة فاجرة!

- لو تجسد الله في كيان امرأة لعبدته. لو تفهم معنى ذلك!

سامر البدوي قال ذلك في الليلة الماضية، أو قبلها، أو ذات ليلة لا أدري.

- ذات يوم اكتشفت ذلك بطريقة طهرية. وقلت له: أنت تكشف السر

عن العربي.

وقال: الجحيم الحقيقي هو التجربة. بالخير والمرأة نتعرف على ما وراء

الظواهر ونصل إلى نسوغ الأشياء.

وفي النادي صارحت راني عن منى: قالت أنها وجودية تعيش الخطأ والصواب لتتعرف على العالم والحياة الأساسية.

- هل قالت الحياة الأساسية؟

- أعتقد أنها قالت ذلك.

- هي أم أنت؟

- راني أنت رهيب. لديك إحساس بالتفوق. لماذا تعتقد أن الآخرين

ضيلون حتى الصفر أحياناً؟

- لأنك برومبيوس ملعون.

لما حوَصر ذلك الرجل المفتقد حنان الطفولة، حاول أن ينحرف. وراح يثرثر بتناقض معطوب يثير الشجن والمرارة. شجو الينايع البرية يأتي محمولاً على أثير موسيقى الصالون. صوت نهبة أمينة يأتيني مغموساً بدمع القهر والزمن.

- امرأة أساسية يا راني.

ويضحك من رغباتي المغموسة بالشعر والتصوف: امرأة فاقدة الحنان.

- أنت الفاقدة حناناً لأن العالم مركب بطريقة مختلفة لرغباتك:

وانهض. آتي بها من غرفتها: كنت تنتهين؟ هيا نأكل معاً. هيا. وأطعمها بعض اللقيات. شجوني أرميها في أودية النسيان.

أنقر أنفها: اضحكي!

ترفع كتفها رفضاً، وحول شفيتها ترغف ابتسامة. أقبلها، فتشع ببريق طفولي مفقود، ونغضي في الثثرة.

- أريد عصيراً.

بخفة امرأة مطوعة تتحرك.

- من منا الفاقدة أبدية الفرح العظيم؟

- الفرح. ها. ها. يا للمهزلة.

ورغم ذلك أحببته كما أحببت أمينة ومنى وسامر وجميع الذين أحاول الاندغام بهم في هذا الشرق الكهنوتي.

كنت أمتحن نفسي على نحو تطهيري، محاولاً الخروج من الماضي، مكتفياً بعودته عن طريق الذاكرة. وكان رائي يذكّرني أبدأ بالحزن والموت والمستقبل الغامض. كان يخاف أن يموت العربي بموته، لهذا اعتنق الثورة من خلال قوانينه الخاصة.

داخل نفسه خلّف موت الأم صدوعاً عصبية على البرء، وخلال الزمن حدث تركيز داخلي على حوافي تلك الصدوع، وتمزقت قوانين الخارج. ولم يكن غريباً أن يبدو في أحيان كثيرة، معادياً، متناقضاً.

وإذ كنت المح إلى مزاجه الحاد، المنفّر، يخترقني بعينين غريبتين: أنظر إلى نفسك. لا أحد نقي والإنسان قانون نفسه.

ولما أقبلت أمينة، غربت مشاعر الأسى وراء أفق حضورها، وتوقف التحليل. شربت العصير الحامض، وسألته عن أيوب فقالت أنه خرج منذ الصباح. حدثنا عن سهرتنا وثقته بي، وقلت لها: لو رأنا معاً في الفراش لاستدار.

وقالت بانه ابن حرام فلا تصدقه. يخمن كل شيء ويقول انني أراك وأحتني بك بشكل خاص في الوقت الذي أنفر فيه من كل ضيف آخر، ولا أرضى استقبال سواك في غرفتي.

وكعادتها بدأت تشكي من حياتها معه: لا ضمير ولا شرف. يأتي الغرباء إلى بيته من الشوارع والخارات. يقدم لهم الخمر والطعام. بلا سبب ينهون حياته لم يمشون. هل تصدق أنه يؤجر غرف المنزل لأناس من أي صنف ولا يدفعون الأجرة؟ ثم يقول لي: أنت السبب لولالك لما حدث ذلك. وتستطرد مكتبة: واقه لولا هذه الطفلة لأحرقت نفسي!

خلال لحظة يهب عليها عمرها المنقرض. تطفو كآبتها فوق وجه أمومي آخذ بالإنحدار والتهدل، فتشارف الانتخاب: آه. لم يعدني إنسان كما عذبتني. ليتني لم أعرفك. مذ عرفتك وأنا أنمرمر. أحبك حتى الموت. هل تعرف هذا؟ وتقترب مني. تطوقني وتنشج. أكفكف دمعها حانياً، مجروحاً بعجزتي.

تنهت: في منام قديم جثني. كنت على حافة هاوية على وشك السقوط فحملتني بعيداً عن الموت إلى بلاد بعيدة، فيها بحر ومروج خضر. وها هي الأيام تمضي ونحن لم نغير. في الليالي تأتي كطائر غريب. لحظات وتمضي. أسبوع

أسبوعان. شهر أحياناً ولا أراك. لا أعرف عنك شيئاً. حرام حرام هذه الحياة. كانت تحاذيني وفخذها يلامس فخذني، وكنا ما نزال بشباب النوم. وإذ بكت أحسست ونخر الاثم والكذب، وانتابني رعشة غمّ. برفق طوقت ظاهر رقبتها. دبّ ساعدي على حرير اللحم فأنجذب طيف الكذب. برفق سحبت ساعدي فشت رؤوس أناملني على مرج ظهرها الأملس.

رويداً رويداً راح نحيبها يتخامد. طويت رأسها في حضني، بينما خلخلت أنامل اليد الأخرى بإتجاه سفوح صدرها. كانت حلمتها قاسيتين كمستنات الصخور. وعلى مهل راحت الأصابع تضغط ضغطات رقيقة تلال النهدين الناعمين المستسلمين.

تملمت رافعة نحو وجهي عينين ضارعتين، وجلّتين. رمقت تورّد الخريف المكابر في خديها. وبعد حين بدأت أصداء الرياح تولول في غابات جسدنا.

[]

لا تسأل لماذا يعتكر عالم المسرة. ولماذا ينقص الحزن كالكسكين من عالم مجهول. المدهش في عالم هذا العربي، لحظة الفرح.

ويتزام صوت مني مفاجوعاً، ممدوداً من دمشق إلى القاهرة: ميسالينا. ميسالينا.....

في وطن بعيد مجزوء، كانت تنمو كفسيلة كرمه اجتّرت في شتاء قايس، وطلّت هناك.

— كم مضى عليك لم تربها؟

— اربعة أعوام.

— هل تذكرينها دائماً؟

ويعتمر وجهها بلهفة عشق مُستلب. تغني لها: ميسالينا قر مكتمل ينشر ضوءه في وديان نفسي، لكنه ناء لا اطاله. كل يوم أسافر إليها على أجنحة الشعر والتوق. تغمرني في الحلم واليقظة، وتظل قصبة، قصبة كنجمه نائمة. آه لو عرفتها

يا عزيزي. نسخة عني ميسالينا البتيمة. لا أب ولا أم ويوم تكبر ستلغني.

وتهاجر بعيداً عني روحها. يخضبها أسى الفراق وأنا قربها عاجز عن فعل شيء لها. على فراشي، كشجرة مقتلعة، مطروحة فوق رمال الصحراء، حلمت

بالعودة الى قريتي. الى امي. بدا لي ذلك، حيناً هارباً، منقولاً كالرعدة فوق جبل السرة العتيق، الممدود من بيتنا الريفي القديم الى بيت أمينة الدمشقي.

[]

مشتبك هو العالم كشبكة تداخلت خيوطها، ومبعثر. نحن بشر هذه الارض تبدو كشتات رمل منتشر على ساحل العالم. والكل يجهد لبصل الآخر، واخيراً نسقط كالودع من يد بصارة موشومة اليدين والوجه.

لوقلت لأمينة مليون مرة: أنا مفتت من الداخل، موسوم بلعنة البحث عن الاصل. عن الصدق. عن الرضى. وعن مطلقي الخاص في الاشياء، لبدوت أمامها ممسوساً يهلوس بكلمات هيروغليفية من قبل عصر امنحوتب. امينة تريدني وأنا أريد جسدها. أيوب السرحان يريدنا وأنا أريد منى، ومنى تريد ميسالينا.

وأنا وأمينة وأيوب السرحان ومنى وميسالينا، ندور كال دراويش في حلقات ذكر حول جدار الزمن المرفوع بيننا جميعاً.

لماذا فقدان الامان؟ ولماذا كل منا يلهث وراء جذره في عالم يبدو أحياناً بحجم غرفة وأحياناً بحجم اللانهاية؟ لماذا... لماذا؟

وفي ليلة خمر. في مكتبه الخاص، يقول سامر البدوي: الانسان مركز العالم.

أقول: قديمة. لقد انتهكت جميع القيم تحت راية هذا المغفل البائس: الانسان.

كنا ثملين تقريباً ببراندي كويية. سامر مشرف على منارات البوح الداخلي. أثرته: ماذا تعني بالانسان. الشخص الذي هو أنت، أم مطلق انسان؟

هدر في وجهي: أنا يا أخي. أنا قطب العالم.

وتظاهرت بالانكسار والغفالة فصمت. بنرجسية مغبطة راح يسرد: في سن الثامنة عشرة بدأت أشعر بالمواربة والتنحي. كنت قد بدأت أقرأ جوته وجبران. أي شعور خاص يتحرك فيك وأنت ترى احاسيسك مجسدة في كلمات الآخرين! فجأة قررت الصمت. امتدت فترة الاغتراب والصمت خمس سنوات تقريباً. خلالها تضاعل الآخرون وضمروا. وخلالها قرأت بودلير ورامبو وبيرون الى آخر القائمة الملعونة. كنت أرغب الخروج الى البراري، أمشي وحيداً وأأمل. اصطاد الحشرات وأناام في المغاور وأطارد البدويات. أول علاقة حب جنسية كان عمري عشر سنوات.

حدث ذلك في مغارة بعيدة مع بدوية صغيرة. وذات مساء وأنا اراقب الغروب شعرت بوحدتي المطلقة كالشمس في هذا العالم.

وفرك صدغه متوهجاً ببوحه الخمري. أشرب بصمت دون أن أرنو إليه. ندخن. يتهد بقهر شفاف، محترقاً بأشعة الماضي والحاضر، مذعوراً، من المستقبل: فجأة سقط البشر من حسابي. جميع البشر بلا استثناء: الاصدقاء والدم السلالي اللعين. الحلال والحرام. السلوك والشرف. الله والدين.

ويستمر: قررت أن أخترق صلابة العالم وتقاليد الناس بجسدي ونفسي. لقد صممت أن أدوس كل تابوات شرقنا العزيز بقدمي. «بروتوغوراس» يقول: الانسان مقياس جميع الاشياء هذا صحيح وحقيقي.

كنت أتملى مكتب سامر البدوي المطوق بالستائر الزهرية، مسترقاً البصر نحو وجهه المتعب وأنفه الشبيه بأنف سيرانودي برجرارك، ثم جسده الفحل المائل لاجساد المصارعين السبارطين.

لماذا دخل مغارة تنقيي عما وراء الظواهر، ان جسد سامر ربما كان منفاه وعلته، وان امرأة دمشقية تريد أن تصل من خلاله الى رغباتها الانتهازية، قالت له ذات مساء خمري: يا لجسدك الوحشي الرائع؟

على نحو لعين حضرتي ذلك، فقلت له عائداً الى النقطة المركزية: قررت اذن أن تكون قطب العالم!

ونهدت من خلف مكتبه: اما أن تخضع لما يريده البشر أو تريد ما لا يريدونه. ولأنني أردت ان اكون نفسي قررت أن تصدر أوامري من دماغي وليكن الطوفان. واستطرد: سأقول لك شيئاً في لحظة صحو صوفية. قال الحلاج: ما في جبتي الا الله. وأنا أقول: ما في جبتي الا رغبتني.

أنا البؤرة والمركز والمطلق وما عدا ذلك الى الحجم. هكذا افهم الثوري.

وفي متاهة الخمر والزجس تاهت دمشق وتاهت منى وتاه شيلي بن عبد الله الحزين. وكما ابتلعت آخرين. ارتسم الآن في الأفق دورهم الجديد عبر الفخاخ المنصوبة.

نسوة كالورد، كالصباحات العبقى المنداة. اجسادهن تفتتح في المساءات الرخية النسوة، كما يفتتح الياسمين والبنفسج في الظلال. الأجساد ظمأى ودمشق البحر والصحراء وريح السواقي.

هي ذي مدينة الملعونين ايضا. مدينة الانبياء الذين ماتوا جوعاً وعطشاً في
مغارات قاسيون وما كَفُّوا. تلوح صامدة، حزينة تحت البصر.

وفي الغرب تقوم صخرة شاهدة ما تزال. يسمونها صخرة قابيل. لونها بلون
النيذ، وتحتها مغاور هُجرت من عصر قديم، من عصر الاسكندر ربما او عصر
معاوية، أو عصر كسرى، أو السلطان سليم. في الغروب تبدو مكلفة بكآبة خاصة
لا يعبرها غير الزمن.

بذلك كنت أفكر بعد أن خرجت من مكتب سامر، تائهاً في الشوارع
والصمت. وأمامي قاسيون.

الفصل الثاني

- ٩ -

سامر البدوي ثوري العصر الملعون ، ثم الطبول التي تفرع . الطبول . الطبول .
أفريقيا الوطن والجنس . وآسيا الساطعة بالشمس والأجناد المنكسة .
آسيا الملعونة . أفعى تحت إبط حاور الرقص في الليالي المشحونة بالاثم المقدس .

الضوء الأحمر ثم الأزرق ثم الأصفر مرة أخرى . ودمشق مدينة آسيوية محاطة
بالصحراء والغابات ، ملفعة بالثلج آنأ ، والنهارات الحارة آنأ آخر تقع في أواسط آسيا :
أرض الشهداء والجنس والرغبات التي لا تتحقق .

من المتشحة بياضاً هفهافاً ، يرف فوق جسدها الأبيض . في حلبة الرقص
كحامة برية تطير ، تدور . تتلوى . وشعرها الحريري ينفرد ويلتم . يخرقه الضوء .
يحجب الضوء . تنحني . تنهض فينهض الثوب منحسراً ليلمع فخذان مغسولان
بالضوء . الضوء في الضوء والجسد نهار ، وعينا سامر البدوي رحمان يخترقان بحيرة
الجسد .

يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، والطبول تفرع . تم . ترم . تم .
تم .

- الريفيون غرباء في هذا العالم .

- غرباء ومقهورون في عالم التم . تم .

تنفرد الحامة الآسيوية بذكر آخر . تجوح رأسها يميناً وشمالاً . الى الامام
والخلف . تدوخ فتدخل عالم المس . عالم التصوف الجسدي . الدراويش يهتزون في
الحضرة النبوية فيدخلون عالم فرويد . يتضوأ الجسد جنساً مفتوحاً فتفتتح المسام .
تشفى . والجنس هبوب صحراوي لريح سموم تنطلق من الجهات الاربع لتصب في
آسيا .

فضاء المرقص وشاح من دخان وكلمات سكرى، تتبدد قبل ان تصل السقف، وشهوات.

ما تزال الحمامة تنوح بحسدها، ترفرف فوق اليمّ بينا عينا سامر البدوي تمارسان التعرية، ناسياً مرافقيه والصحفية السويدية المنهكة في التحدث عن العرب واسرائيل.

على جدار العمود يتكئ ظهري، وعطر الصحيفة النفاذ يضع ماسحاً وجهي. جاري يرطن معها بفرنسية مربكة، والويسكي العظيم يسحني بطيئاً وسريعاً الى وديان الدوار.

لم أبال كثيراً بالسويدية التي قدمت لنا سيكاراً، لكنني قلت لجاري: عيناها كحيتي زيتون في كرومنا البعيدة.

وترجم لها فأصابها فرح خاص. وسألته عني فعرفها بي واستدركت بفرنسية عربية: لا. لاتصدقيه. انا موظف من الدرجة السادسة. وانخرط في حديث سياسي.

الرقص هناك على مسرح آسيا، والموسيقى. اذرع رشيقة تتلوى وتنادي. نحور مكشوفة، وظهور كتلوج السهوب، ارجل تقيم طقوسا وعيون تلتهم كالشرار. فساتين كالرايات تحقق. ترتفع. تتسع. تضيق. أعلى أيضاً. هاي. تم تم.

احتفال الشبق بوجهه الرسمي وطقسه الوحشي. ووحده اللاوعي ملك المخلوقات المتمدينة غير المتوج.

لا شيء يعيد صفاء البحيرة المعتكرة. الموسيقى والروائح بحر مجنون يضرب موجه صخور الاعماق، والهياج يرتقي مدارجه، وآسيا تترنح.

وسط الهياج يسألني سامر: أين أنت؟

فأقول: اغوص نحو لا مكان.

- ما رأيك بهذه الشقراء الالهية؟

ثم يغمز بعينه الى الصحيفة.

- بروحي كل نساء التابو وكل نساء العالم. ولكن... وهمس في اذني: لذينة في الفراش كالشعر.

- نمتَ معها؟

وسامق ضحكته الجنسية في فضاء التابو، كأنما رام اهانتني وقصوري عن نيل النساء اللواتي يطاهن.

- سامر ألسنت كاذباً؟

وصاح: أنا؟ الهك يكذب أما أنا!

نجهم كمن طعن في قلب تاريخه الشخصي: عندما جاءت قبل شهر سهرنا معا في التيفولي. شربت ويسكي حتى ثملت. عرضت عليها ان اوصلها الى الفندق. دهشت من العرض وفاجأتني: أليس لك بيت؟

كانت زوجتي مسافرة.

واشعل لفافة ثم تنهد وزفر الدخان: آه يا الهي كم كانت عذبة!

ولا اقفر من توحده. هذا الذئب الصحراوي الذي اختار الجنس مأوى كما اختار الآخرين شاشة عرض لأناه التي تدرنت حتى شارفت نلال النبوة، صائغا حياته جحماً ومطهراً في تجربة الائتلاف الحسي.

ذات يوم عبر عن ذلك: في وجهي-أعرف ذلك- ثم خاصية شهوية تجذب النساء. آه. انها لعنتي الخاصة ان اكون هكذا.

ذلك المساء كان مبهجا في البدء، فيما بعد ارتنخى بالرصد والتحليل، وأمواج حكايا سامر الكاذبة، حتى خبا. وكجميع مساءات الغرباء القادمين من جرود آسيا الملتبة، هوى في بؤرة النفس واستكان.

وفي الذهن طنين ابدى. تساؤلات بعدد رمل البحار من يحجب عنها ؟ وكيفما
انجبت ابرة المغناطيس يظل سؤال دائم يدوي : ما قيمة الانسان في العالم بلا ضوء
نفسى يهديه الى نسوغ الاشياء ؟

- « اتلف حسك حتى يتلوث نقي العظام ثم ابدأ حياتك على انقاض المغامرة
الشخصية. ».

سامر البدوي والزمن القصير يقولان ذلك. عمرك الذي لا يعاش الا مرة
واحدة يصدي عبر وديان مقفرة : « أين انتِ أينها الكفاية المفقودة في مدار النقصان
الصحراوي ؟ ».

- ٢ -

صراع من أجل الخلق. من أجل الحرية، ومن أجل التوكيد، عبر عالم
يتشكل بشخصه الذاتيين وشخصيته الاجتماعية. عالم يحاول كل فرد فيه ان يكون
هو بطريقة درامية مضحكة، مغفلة احيانا اخرى. فجأة تسقط داخله. ومن كل
جانب يلطمك الموج. موج أهوج اضاع بدهه ونهايته، والقاطنون قديما هنا، قساة
وناقصون. استطالت انيابهم وأظافهم وألسنتهم حتى صارت اكبر من اجسادهم.
يحدقون فيك وتبدأ معركة الطعان تغطية للنقص والبنيان الخرع.

ملايين الافكار التي تتضارب وترتطم كموج يفني نفسه بنفسه. والكل مسؤول
ومهمّ متى شاء، والكل محايّد في ازمة الحرج والضيق. أهو العربي يعبر التيه
ولا موسى ؟

أنبياء وصعاليك. قادة وجنود. شعراء وباعة. مناضلون وبورجوازيون. آلهة
وسفلة.

ارث جاهلي، ووشم من عصر صدر الاسلام. نزوع جنس قديم قدّم
الصحراء والشمس، خمر وجدل من عهد ابي نواس والمعتزلة، مزيج الانحطاط
مع شرارة اليقظة المعاصرة. وفي خضم هذا التاريخ المرتج تنزع لأن تتطهر.
وترى كل شيء ملوثاً حتى نقي العظام، ملتويّاً حتى درجة قوس الانكسار،
فتساءل : هل ثمة خلاص ؟ وكيف ؟

جمهوريات العدل. ممالك الشعر والفن. انفجارات الجسد. كهوف الغزلة
الخاصة المريحة، حيث يبحر فيك العالم وأنت في جزيرة حي بن يقظان تحاول
اكتشاف المعرفة البدائية بالتلمس والتأمل والتجريب. واذ تُنهك بين هذا الموج المحتدم
ينده وجهك الداخلي : هل لهذا المسكين في هذا الزمن الضاري بقعة تحت
الشمس ؟

- منذ سبعة عشر عاما وما يزال ذلك البرج السامق الذي كان يكسر الحديد، ملقى كجثة فوق فراش قدر لا يقوى على النهوض. اخيراً سقط النمر في حفر الخيانة.

وجرع ما تبقى.

في تلك اللحظة الصافية كالدمة، الداوية كالرعد، احسست اني قريب من وائل الاسدي قربي من سائر المفجوعين الآخرين.

بعد اشهر من تعارفنا روى الحادثة في مطعم الجندول. اثرها ادركت لماذا يسوق سيارته العسكرية بسرعة الريح، ولماذا يشرب الخمر بتلك الطريقة الوحشية، وينتقم من نساء دمشق على الطريق المؤدي الى قطنا والقنيطرة، ولماذا اختار ان يكون ضابطا في الجيش.

في التاسعة والعشرين. عيناه بلون البحر، وصدره شبيه سنديانة فتية، ووجهه كرجيف أبيض حار. مع اسرته هاجر من اسكندرون وكان طفلاً.

يوم تعرفت اليه لم يثرني. في مشيته خيلاء مزهو أحرق يمثل، وطريقة حديثه عن نفسه ومغامراته تثير القرف والاشمئزاز وتغطي غبائه المستتر. يومها قلت في سري:

هوذا نرجس آخر يرى نفسه في مرايا وجهي. وافترقنا.

لا ادري من الذي قال: عندما تفهم حالة انسان تحبه. ومن الصعب ان تستدير للضعف البشري فتقابه بالكراهية واللامبالاة. وفيما بعد رأيت نفسي قرب وائل الأسدي فترة من الزمن.

- هدى شعراوي.

- ناديا ابنة عمها.

- الفوضوي شبلي عبدالله.

وأشرت نحوه ساخراً: وائل بك المحترم سيد مدينة دمشق وحاميا.

وبصق في وجهي: «بك» يا ابن الزانية؟

وضحكنا بجمرة.

واذ رمى معطفه للنادل مع معاطف النساء، استوى على الكرسي بأبهة رجل شرقي زاخر بالفحولة والثقة، بين صبيتين دمشقيتين احداها عشيقته، والاخرى

- ٣ -

- من أنت؟

- رجل يسابق الزمن.

ضحية جديدة في عصر الخلل العربي، هذا الذي يفعل ذلك. متوحش صلب من نسل مشوه. يفيض غضباً وانانية. في نفسه قبلة موقوتة، يود لو يضرب الشمس والقمر والارض ليثبت أنه اله في عصر القروء. على اجساد النساء يلاشي عمره ليقهر التشويه وغلبة الزمن للأب الذي سقط جريحاً، مشوهاً فوق تراب فلسطين.

أحببت سامر البدوي بعد ان تعرّى أمامي بكل أدراجه، وتآلفت مع راني حتى المكامن المخبأة، كذلك أمينة ومنى، جميع هذه الجحافل المقهورة كانت جزءاً مني، لكن هذا الوحش كان استثناء مفزعاً.

- كان عمري اثني عشر عاماً آنذاك. أخبروني ان المصابين والجرحى قد نقلوهم الى المراكز الخلفية في القنيطرة وان والدي بين المصابين. خرجت من البيت عدواً. هناك في باحة ضيقة كانوا يثنون. كان بينهم رجل جسده في لون الفحم، محروقا مدلى القدمين فوق نقالة، الدم والعظم قد امتزجا بالغبار وبارود القنابل. أغمضت عيني حتى لا اراه. ويحتقن في جبينه غضب مر. يتابع: لم يكن هو. أبي رجل طوله متران. اشقر. صدره عريض كالجلبل تخافه الانس والجحش. ابي... وكّر فسمعت سحج أسنانه. وصفى كاسه.

كانت أصابعه تتخلل شعره الاشقر وراح يشده بحقد. بقسوة رنا إلي. في عينيه لحت انحراراً اجتاحت بوابة الغيظ: من كان ذلك المحمول، تسألني؟

قهقهه بسخرية مفجوعة. وبطرف اصبعه اشار الى نفسه: اجل انا. ورفع كاسه ثم تأملني ملياً وبحركة مسرحية احتسى طويلاً.

شاهدة. نده بصوت عسكري: هيه. هاتوا لنا من خمركم القدر ما تيسر. واطلق شتيمة اثار الضحك.

- في كل مكان تنثر دررك. ماذا تترك للملمات؟ وشميني.

اخرج علبة «الجيتان» مررها علينا. رفضت اغاظه له: انا لا ادخن لفائف البورجوازية الجديدة.

زَوَرَنِي بعينيه البحريتين زاماً شفته السفلى: هِم. ثوري فوضوي لا يدخن الا التبغ الوطني.

ونخر متقززا.

- ادركنا بالخمير. ودع جانباً الوطن والثورات قلت.

- لماذا؟ انتم المثقفون جدا لا تطيب لكم مناقشة الوطن والثورة الا على موائد الخمر.

وقلت بقرف: اخي. الثورة لكم. انتم صنعتموها وانتم حمايتها ونحن رعيبتكم. مُرُوا ونحن ننفذ في جميع الازمنة. اما الآن فأرجو أن نسكر فقط.

- ولو. أنتم آباؤنا الروحويون. نحن بدونكم طبول فارغة. يا خاير هات أجود الخمر للفيلسوف.

واستطرد ماداً رأسه ولسانه باتجاهي: لم يوصلنا إلى الدرك الأسفل إلا الآباء الروحويون الأوصياء. ثم قهقه ساخراً.

- البركة فيكم سيدي. كل ما خربت تعمرونها بانقلاب. وجاء الخمر نبذا ايطاليا هلل له وجه وائل، راح يصبه في اقداح انيقة خاصة.

واذ صب لي نصف الكأس قالت هدى: ما أبخلك! صبّ له ايضاً.

- سيادته لا يجب الكؤوس الطافحة. واذاف: هذا الانسان لما تعرفه بعد. محبوب ومكروه بدرجة واحدة.

بعذوبة طفلية ابتسمت ناديا.

كانت قربي. سمراء بلوح على شفيتها وفي الزغب النامي تحت سالفها، أنس طفولي غامض.

وكعادته وهو يحرق في وجهي، بدا متحفزاً للحرب. للضرب بلا سبب. وشربنا نخب النساء الجميلات.

في البدء بدوت مرتبكا، أحسّ هو ذلك فانطلقت روحه الهجومية وأشرك هدى معه. كانت ناديا ملفعة بصمت شرقي خجل، بينما انبرت هدى تثرثر وتلرز حتى التصقت به.

كنا نجلس في زاوية منفردة، شريحة الضوء، وبعد الكأس الثانية انتشت هدى: وائل رائع. سيته الوحيدة انه لا يحبني.

توجهت الي يجملتها. قال وائل: انت مخبطة. وطوقته ثم قبلت وجهه. - هدى، لا تفعل ذلك أمام هذا الفضائحي اللعين.

بجناد ابتسمت. حككت جبتي تغطية للارتباك الذي بدأ بتخلخل.

وسألتني هدى ان كنت أعرف وائل من زمن طويل. وراحت تحكي عنه وعن رجولته وقلة وفاته ونعومته في الحب، وهي تداعب شعره القصير الأشقر، وعيناها تلمعان ووجهها يتوهج باشتائه. ازداد خجل ناديا. بعينه اوعز الي أن التصق بها. لمحت احمراراً يتشكل في عينيه، بانفعال متصاعد راح يكرع. كانت هدى تغفل بلا حياء اصابعها في شعرات صدره.

وسألتني مرة اخرى ان كنت اعرف وائلاً على حقيقته، ولم تنتظر اجابتي فقالت: وائل عظيم. انظر اليه جيداً. هل أصلح انا زوجة له؟

رفعت كفتي، وشربت من كأس. قالت هدى كأنما تحدث نفسها: لا.. لا... انا لا اصلح. البنت التي تسلم نفسها بسهولة لا تصلح. انا. انا. اعبدته. كانت قد ثملت فبدت في اضطراب هزه وائل بصوت جارح: هدى. كفي عن هذا الهذيان الاحمق!

وكالبروق طوق قبضته وهوى بها على سطح الطاولة.

بدا الجو مغلقاً. كان هناك حصار وصمت. وداهمني احساس الفرار. لم تكن الامور تسير في مجرى طبيعي. وقربي انثى غريبة ولم اكن اتقن المقدمات الكاذبة. وفي لحظة خيل الي ان الذي بدأت اكتشفه في الآخرين غائم ومضطرب. كان هناك عثم ومكامن تتوالد فيها اسرار. غابة فسيحة، مظلمة، مخيفة، يكتنفها غموض واشياء عصبية على الكشف. وقلت لنفسي: البراري هي ما يريد الرجل والمرأة. هناك تُفتح كل البوابات المغلقة.

واذ انتهت حولي للناس الذين يثرثرون، فارشين بالنوادر والضحكات والشوق

ما فاتهم للوصول إلى البراري، ورأيت الخمر والعيون المشتعلة بالأسرار، فارت في اعماقي ضحكات المعنويين. ضحكة فاسقة ومريرة ودت لوترج مكانم البشر، ووديانهم الداخلية. كتمتها وافرزت افتراة أسي. في عيني هدى لاح ما يشبه الدمع.

خرق وائل صمتنا: بماذا تفكر؟

قلت فجأة: بالاقدام التي لا تتقن الوثب المباشر!

وتتمة لما هجست به، ابتسم ساخراً مدعياً بخراقة أنه فهم ما قصدت، فقال مدارياً فهمه: الاقدام تثب في اللحظة المناسبة.

طويت الحملة والأفكار ومباريات الفهم، وقلت بعفوية: هدى. لا تكتني. في العالم لا يوجد ما يستحق ذلك. نخب وائل. وصفينا كؤوسنا عدا ناديا.

تجرات قليلاً بعد أن أحسست بمسؤولية إعادة الجو إلى حالة صفاء. سألت ناديا موشوشاً: أنت عادة لا تشربين الخمر؟

فأجابت باقتضاب: نادراً.

ودخلنا في أحاديث صغيرة قطعتها هدى مبتسمة: ها. بدأت الوشوشات. أخونا انتبه هذه ابنة عمي.

وقال وائل: تحركت الحجارة أخيراً.

وقلت لهدى: هل علي أن أقدم طلباً بطواع عن طريق التسلسل لتسمحي؟ ضحكنا. ناديا ابتسمت أيضاً فبدا وجهها صوباً مشرقاً. قالت بهدوء عذب: أنتما صاحبان من زمن طويل ونحن لم نكد نتعارف هل يمكن أن نتصرف مثلكما؟

بشبق قبلت هدى وائلاً على شفثيه، فانتشي. ومرة أخرى مصت شفثيه محدثة صوتاً. رنوت إلى هدى التي كادت تسقط خجلاً وهمست: لا تنظري إليها، هذين الفاسقين!

بين أصابعها خبأت بسمه، وهي تحددق إلى الأرض. لماذا تسرب إلي إحساس بفكرة الزواج من ناديا، وأنا أطل على وجهها المبتل بالاضطراب والخفر، وقد نكست رأسها وراحت تداعب ساق الطاولة!

من النافذة بدت حديقة التيفولي. أشجارها تحركها الرياح، وعشبا يلمع تحت الضوء. وهطل المطر. خفيفاً راحت قطراته تسح فوق الزجاج، وعلى الأشجار

والعشب شالت موسيقى منداة بالحزن والرغبة. الساعة الرابعة تماماً وأنا أتلقى بعد أن شربت جرعات سريعة لأتمل. الزمن تحلل، انسل مني ووقف على الباب، في ثقب المفتاح الذي لا يحدث صوتاً، وفوق بلاط الصالون الذي لا إيقاع له. الصمت. ومنى جرنوم يمشي في الدم. سككتني منذ الوعي الأول، تطارد ذرات أيامي، سكوني وحركتي. انتظاراتي، ولما تأت بعد.

ارم ثيابك في هذه الغرفة المقفلة، واخرج عارياً. اركض في الشوارع أمام الناس، واصرخ في وجوه الذين يهزؤون منك: المرأة شمس الرجل، ربحانه وكفنه، بحره وزمنه وبراره، فهل رأيتم لي أيها الشامتون شمسي الغائبة وزمني الذي لا يجي. هل رأيتم لي أنسي وكفائي ووطني!

تايس. عشثار. هيلين. سندريللا. منى. أمينة. ديانا. الماضي كيف ينزل ثم لا يعود. والتي كانت بهية كالغابات لماذا اختفى بهاؤها؟

لو أستطيع أن أصلب لك الزمن يا عزيزتي أمينة. لو كان بإمكانك أن ترد الشمس عن مغيبها. ان توقف الأرض عن الدوران، فلا يكون هناك ماضٍ ولا حاضر. تقف مع منى على سطح الأرض فتكونان الفصول والمطر والشمس، الشعر والرغبة، العشب والطيور، الحجر والنسغ، ولا تغيبان أبداً!

ساعات والخمرة تسوح في خلايا الدماغ، تتسلل إلى الأعصاب كمهر جامع، والرأس يتململ فوق المخدة، والأسنان تنتر شهوة. ومنى لاتأتي.

والصور تتوالد من الصور. أطياف خضر وحممر، أطياف مجنحة لها مليون لون. لها روائح ولها إيقاع. تدور في فراغ الغرفة. في الغابة الموحشة. منى في المركز تماماً رهو من الضوء الفار، عصي على الالتقاط. تدور فتأخذ أشكالاً أسطورية. أشكال حوريات عاريات، مجلدات بالمهابة والكبرياء. أميرات من عصور قديمة هن سطوة ومجد وجمال، بيهات كقوس قزح.

كل أطباء العالم عاجزون عن شفاء هذا المواطن الجريح. ومن كل مكان في النفس والجسد، الجراح تنترف. وهذا المواطن البائس ينترف لعجزه عن التقاط المركز والأشعة الداخلية. ثم هذه المنى لماذا لا تأتي؟ وقال وائل: إيه. جاءك الغياب أين وصلت؟

ارتسمت ابتسامة بلهاء فوق وجهي النازف كآبة، فافترت.

- نخب الأحباب.

قرعت كأسني بكأس ناديا. وإذ رفعت وجهي نحو وجهها الجامد كحجر،
لحت كاتبها أيضاً. بعد الرشقة سألتها: ناديا هل أنت حزينة؟

تململت قليلاً وتمتمت بأناقة متزنة: لماذا الحزن!

ولم تكن تسأل. وكما تعبر ريح خفيفة عبرت كلماتها. ودخلنا طور الثرثرة
والأسئلة العادية. عرفت انها خياطة، تقرأ مجلات السينما والممثلين، تحب التزهات
والسيارات. تخرج قليلاً مع هدى وصديقاتها ومن ألوان الثياب ترغب البيع
والسماوي.

- ناديا أتكبين مذكرات؟

- مذكرات؟

- أجل. أشياء خاصة عن حياتك؟

وضحكت بعذوبة وحياء، فشعرت أنني أغشى أهل الأرض.

- لماذا يكتب الإنسان مذكرات؟ الحياة تعاش وكفى.

[]

عندما اختار سامر البدوي أن يكون شاعراً وهو يرقب رحيل الشمس في
الصحراء، ذات أصيل، هل فكر أنه سيفقد الحياة الحسية من أجل الشعر؟

وإذ اختار هذا النمط من العيش كيف انخرط ملتزماً بالجاهير والثورة؟ جاهداً
يحاول أن يوحى، بأنه متوازن بين كفتي الحس والشعر، بين الانا والآخر، وإذ
تتقدم قليلاً قليلاً في دروب نفسه، تدرك بجزن أنه ربح نفسه فقط.

ثم تدرك أن حديثه عن التوازن، لا ينفصل عن الورم الراغب في تكثيف
العالم وحرقة في جرنه الخاص حتى لا ينهزم.

- شعرك تهويمات محض شخصية. تزوغ في رأس منفجر بالخمير والتمرد
الفوضوي. عندما تكتب الشعر تولد لك عين ثالثة ترى ما لا يراه الآخرون.

- ذلك هو الشعر.

- بل ذلك هو التمل الطيني عن طريق اللغة. هل تود أن يقال عنك أنك
شاعر سريالي؟

- هل يعني هذا أنك ضد الخلق؟

- لا. ولكني ضد التمرکز الذاتي المفرط الذي يفني الشعر. يخلخله فلا يكون
لغة العالم على مر الزمن.

- الفن ينطلق من التجربة الذاتية والشاعر ذاتي قبل أي شيء.

- الفن تجربة ذاتية عمومية.

- الحزن هو الحزن. والحب بجذبه الجسدي والنفسي لا ينقسم.

- أبداً. الدوافع تختلف وردود الفعل تختلف. داخل كل نفس للحب
والحزن معنى خاص. الفن العظيم أن تكتشف الحزن والحب العموميين من خلال
حزنك الخاص وحبك الخاص. بذلك تتم عملية الايصال إلى الآخر.

ومحال أن تصل إلى قناعة مع رجل اختار نفسه ونفى العالم. إنسان يقول لك
في نهاية الحصار: أنا هكذا. حجر في صحراء ليس لها أبعاد خارجية.

والطريق عثم والباص رقص وغناء. صبايا وفتيان. ومنى ملكة السفر. مليكتنا جميعاً. أنا وهي على مقعد واحد، والطريق مديد ومظلم. وحولنا البراري.

داخل الباص السابح في بحر الظلمة نثرثر.

- أحب البحر.

- أحبك.

- أرغب متراً يشرف على البحر. ينقر شبائيكه المطر ويعمده الضباب، ومن شرفاته أرى السفن المسافرة.

- أرغب أن نحيا معاً في بيت منفرد. في مغارة جبلية نائية.

- في رأسي قصيدة عن البحر أتمنى أن أكتبها يوماً.

- أنت قصيدتي التي أغنياها للبشر والرياح والزمن القادم.

- الناس قساة هنا.

- وضعاف.

- لو يستطيع الإنسان أن يفرح.

- أحلم أن أطويك تحت الضلوع ونهرب بعيداً عن المدن.

بطقس خائف أمد ذراعي مطوقاً ظهر منى، وتوجس تسلت أصابعي في ثنايا شعرها القمحي منحدره نحو رقبتها. يولد من الذاكرة توقع يغيب بعد حين. مع الأحاديث تندغم المداعبة. نحكي عن الشعر. عن توكيد الذات، وعن الخيبات في عالمنا المختل، وعن المناطق المحرمة، الملعونة. الدين والسياسة والجنس والحرية.

ولا في عالم الحس، أرق وأعذب من جلد هذه المخلوقة النائية، المترددة بين وجل التاريخ، ونقصي الكوني، وعالمها المغلق.

أحسست ذلك وأنا أسوح برؤوس أناملي، فوق أديم رقبتها وظهرها، متمنياً بشفاعة لوتترلق نحو ثديها الناهضين العذراوين. إذ أطفئ الضوء الداخلي في الباص، مال رأسي بتلقائية حتى شارف خدي خدها. شممت رائحتها. رائحة الغابات والمطر في ليل موحش.

وفي العثم سمعت ضحكها الصغيرة الحزينة.

خطفاً قبلتني ماصّة شفتي بألم خفيف.

- ٤ -

صلاب كالصوان. أنانيون وعدوانيون. موقتون كقنبلة زمنية. إذ تقترب من خباياهم تنعقد أقواس حواجبهم. شيء ما يغلي في دماهم، فيستدعون جيوش الأذى والافتحام. آنذاك فقط، تعمل ذاكرتهم على نحو مدهش ولثيم. يستعيدون هفوة صدرت منك. يضيفون إليها هفوات. يراكمونها حتى تصير كتلة من طين قاس، وفجأة يرشقونك في الظهر. إذ ذاك يشعرون بالغبطة، وإن نفوسهم المطعونة قد لقيت أمانها المفقود.

أشعلت الخمرة نفس وائل فشب الغضب في عينيه. احمرت أذناه، وراح يمج لفاقته بشيق واضح. تراجعت إلى الخلف. لحت فخذ. هدى العاري مشبوحاً فوق فخذ. كانت عيناه تطفنان صدري. غمزني فقلت فجأة: دعونا نرحل. أقول لمنى: أضيفي للذي يناضل ضد تاريخه. اقترني أكثر لعل شجرة أيامنا اليابسة تورق!

تحديق منى في وجهي البائس، وتخرق حجب الغابة. تهز رأسها وتبتسم بمرارة.

يغمزني ذل وحزن يشرفان من عينها. فأحس أنها تاريخ آخر، زمان آخر لا صلة لنا به. فصمته ميسالينا ودمشق المثلوية بقتل فرسانها على مهل.

ونسافر

الحلم. الوهم. الشيء الذي يكون ولا يكون في وقت واحد.

- الثورة تجدد الإنسان.

- الإنسان يحدد الثورة.

ويستطرد راني: الإنسان لا يحد. هذه مقولة تاريخية.

نكّست راية الحزن. هب فرح شبيه بفرح يوسف وهو يرفع من الجب.
ضغطت جسدي بجسدها. مال رأسها على صدري. مرغت أنفي في ثنايا شعرها.
سحرتني الروائح وسمعت وجيب قلبي يرتفع.

□

هوذا وائل الأسدي يستقبل البراري بسيارته الفارغة، يسابق الريح في هذا الليل المطر.

هدى قربه. نطوقه. وعلى المقعد الخلقي بيني وبين ناديا مسافة خائفة.
يقهقهان. فيزمني على طريق الصحراء، في الصمت، ألم خصوصي.

— ها. آه. يا فارسي العظيم. وتعصره بشهوة امرأة روضتها ساديته. السيارة
تطير. وائل رجل مهووس بالسرعة. يمضي. يمضي. والحدود بعيدة. وبعيداً. بعيداً.
يتمدد الاغتصاب.

وتصرخ هدى: وائل حبيبي. أنت تقتلني.

ناديا شاهدة اللامبالاة. سكينه مطلقة في ليل جريح. وعبر هدى يبدأ
التحرير. الرجل المقيد هوذا يشفى بطعن هذه المرأة؛ وأنت ما أنت! إنك ترى
كل ما يحدث وأنت ترغب امرأة. أكثر من امرأة. عربي أصيل من سلالة النبي.
داخلك بقعة صغيرة لم تلوث بعد. تود أن تغزلها عن الماضي. لكن الرجل الميت
ينهض في وجهك: أنظر جيداً بوضوح. إياك أن تنسى. إياك أن تنزل كثيراً. هنا
وهناك مليون فغ. مليون صوت. بينها صوت منحيم بيغن يدوي كالرعد. وتصرخ
هدى: أنتما رجل وامرأة أم امرأتان؟

ويعقب وائل ساخراً: دعيه. صوفي تافه يحلم بقصيدة يهديها إلى ناديا.
هكذا إذن. ولم أنبس.

على جانبي الطريق راحت البراري تنفرج تحت خباء الليل. كنت صامتاً وأحلم
وأتحيل.

وقالت ناديا: مالك صامت؟

رفعت كفتي: عن أي شيء أحكي؟

— أي شيء!

قلت: لو وشوش لك مثلاً أني أحبك هل تصدقيني؟
وصمت.

كان وائل وهدى يمارسان الجنس على ضوء الراديو الذي يصدح بالموسيقى.

وقالت ناديا: هل تنتظر من المرأة أن تبادر؟

طوبى للخمر. طوبى للرغبات.

ليل وسيارة تحتاج الاسفلت. برار وموسيقى. وشابان مع فتاتين خارج حدود

البشر المراقبين.

— أشعر بالبرد.

طوقتها. جمعت جسدها إلى جسدي، ومعاً احتفلنا بهبوب الفرح والدفع في

جسدنا.

في ممر الباص غنى الشباب والبنات ورقصوا، وإذ دعوا منى للرقص،

شجعته.

لأول مرة أراها تخرج من حدود عالمها، بهذه الحرارة. أحطناها باهتمام
فاندبجت معنا وراحت ترقص كأنها تعانق ميسالينا. شدهت بها. كانت جديدة،
هذه الأميرة التي رملها الزمن غدراً، وتخلّى عنها ناس مدينتها، فبدت كما لو أنها
ذهني، متألفة ساحرة، متوجة بالفرح العاطفي.

حولها الصبايا يرددن أغنية فيروزية راقصة وكأنهن جوار. بين الحين والحين ترنو
بانجامي والحزن والفرح يهلان من وجهها الدافق بالحياة. خيل إلي أن الرقصة لي
ولميسالينا، فغنيت لها لأول مرة وصفقت.

من أول مقعد حتى الأخير، مرت عليهم بابتسامتها المشرقة. كانت تنعطف
وذراعاها تحفّقان كجناحي نورس. في وجه الأميرة الطروادية تعلقت الوجوه. مرت
قربي، غمزت، وابتسمت، ثم عبرت.

كالجمر لاح وجهها، حبات من العرق الذي نضح، لمعت عليه. توقدت
أعين الشباب، وارتفعت الحمى. كانوا يشتهونها الآن.

جذبوها نحوهم. وشوشوا لها. أمسكوا أصابعها. مرت أناملهم فوق ثوبها
الوردي. رقصت مع أكثر من اثنين، وكانت تبسم. تجاوزتني ضباية الغيرة:
لا تكن سخيلاً!

دنيا تعبق بالروائح. تاريخ قديم يصطدم بهبوب معاصر. بريح قادمة من ريف
اسكندرون المغتصب. من فلسطين. ومن قرى حوران واللاذقية وحماه، وسهوب
الجزيرة الحارة.

- «لماذا استسلمت ناديا وهدي ببساطة في ظلام سيارة وائل الأسدي
الفوكسهول؟»

وخلف السؤال الصغير، كان سؤال آخر مابني يقرع جدار الذاكرة: ولكن
نحن لماذا نخور كثيران همة؟

ثلاث سنوات مرت، وأنا أحاول نيل منى، وعبثاً. وفي ليلة واحدة نلت
بغيتي من ناديا.

على المقعد الخلفي عريتها، ومن شفيتها حتى الأقصى من جسدها، قبلتها.
بين ذراعي كانت كالخرقة.

على شاطئ البحر استلقينا وبيننا مسافة. رغبت الاستلقاء على صدرها، أعدت
آلاف النجوم المزروعة في السماء الزرقاء وأنا أتابع اعترافها.

كنا طفلين في حي واحد نلعب ونتشاكس ونضحك. ذات يوم انفرد بي في
زاوية مظلمة وهمس في أذني: أحبك.

أذكر الآن أنفاسه الحارة، وعينه الخضراوين كلون هذا البحر. فيما بعد
اعتاد تقبيلي لكنه ظل يرتعش. كنت أشعر بقشعريرة تخترق جسدي ونحن متعانقان.
وإذ يستمر اللعب نغافل الصبية وأقوده إلى زاويتنا المهجورة. نلتحم لصق الجدار.
نلهث بولا ننبس.

وتبتسم براءة قديمة: كان عذبا. جميلاً كزهرة برية. عندما يتأخر أصدد إلى
متزله وأناديه فيهرول ورأني على الدرج المظلم. في الظلام نتوقف. يقترب مني يضمني
إلى صدره، ثم يبدأ ييوسني على شعري وجيبي وعيني وخدي. بعدها تشبكت
أصابعنا اللهنى ونخرج إلى الساحة. إنني أتذكر صياح الأولاد بنا إذ نقبل عليهم:
جاء العاشقان. تلك كانت أول رعدة حب في حياتي.

- ثم ماذا؟

وبين البحر والسماء توزع بصرها. تنكت الرمل، وتروح ترسم أحرفاً ودوائر
لا تلبث أن تمحوها: ثم مات!

وراحت تلهث. نهذاها النافران يثبان تحت الثوب، وخصل شعرها الكستاني
تبعثرت بهمجية، ومن تحت ابطها انبتق العرق. بدت وكأنها تخطت الاعياء
الجسدي، داخله مساحة القدرة النفسية التي تهب الجسد قوة جديدة خارقة في
لحظة التحدي. هذه منى. وإذ تحاول ألا تفهم لست أكثر من أحق مأفون ككل
هذه الأجيال التي تنهوى لأن العالم لا يُبنى كما تريد.

ليست لك ولا لميسالينا، ولا لدمشق، ولا لأي ذكر تشهى الرقص معها
سراً، ولم تكن زوجة الذي مات قتلاً.

على جدار الباص الداخلي قرأت عبارة: من راقب الناس مات هماً. وإذ
أعطت النفس قدرتها بعد الاعياء الجسدي، هبطت قربي.

أفسحت لها قرب النافذة. ناولتها منديلاً. رنوت إليها بمحايدة. ثم ارتج
الصمت بيننا.

ودفع وائل المرأة الملتصقة به كحيوان أليف، بعد أن أنهى طقوسه. وتباطأت
السرعة.

- الإنسان لا يُحد. هذه مقولة تاريخية! يقول راني العظيم.

رأسها. يرتاح فوق زندها المتكى على افريز نافذة الباص. في الظلام الممتد
فوق الأراضي البور، سهمت. هبت ريح رخاء تلاعب شعرها وتجفف العرق.

- الإنسان يقبل بكل ما فيه أو يرفض.

أنا هل قبلت منى بكل نقصها؟ هل ارتضيت توقيع صك الانكسار معها
خلفاً لكل المخلوقات الأخرى التي اعترضت طريقي في دمشق العجيبة؟

وهل كانت منى حقاً ضوئي الذي استحق أن أغادر من أجله طفولتي هناك؟

□

ناديا سهلة. هكذا بدت في تلك الليلة. كانت مطوعة كما ينبغي.

غطاء مبدي من الكذب، ملفع بقماش من البروكار والموسلين، ملقى أمام
تجار سوق الحميدية: حاجة يا بيك. بوبلين. ديولين. أهلاً وسهلاً. شرف. تركال.
موسلين. بروكار. أسعار متهاودة. وفي نهاية السوق المغطى بالصفيح يقوم الجامع
الأموي: مطهر الكذب والجشع والاستلاب. ناديا. هدي. أمينة. أيوب السرحان.

ومذ كانت طريقاً للقوافل بين اليمن ومكة، اتسم تاريخها بالمقايسة. وعلى مر الزمن ارتخى الذين هبطوها واستقروا. داخلتهم الطمانينة والرسوخ فكانوا مضرب المثل في اللدانة والكسل المسالم.

- أخي عابرون بعد الرمل والحصى مروا من هنا، منذ لذريق الرومي حتى عبد الناصر. ومع ذلك ظن قائماً المسجد الأموي، وسوق الحميدية والحريقة، وقاسيون، والنساء، والخارات. الذي يأخذ أمنا نسمة عمنا. هذه حال الدنيا.

وجيداً يدرك أبواب السرحان معنى الطرقات الخافتة في أواخر الليل. وأن كلمة: كنت ماراً من هنا فرأيت ضوءك لم يُطفأ، ليست أكثر من اختلاق مفاجئ يتجاوز ظاهرية الغباء، يُضاف إلى تاريخ المقايسة السرية التي ألّفها حتى امتزجت بالخمير والبسمات، وخبز الأفران غير الناضج، والخضار التي ترش بالماء ليزيد وزنها.

- قبل قليل ذكرتك أمينة. ابن حلال. أهلاً. أهلاً. وينهض بتناقل خمري، لكأنما ألوف الأعوام جائئة فوقه.

- بالله دعك جالساً.

- لا والله. هنا أخي. هنا.

ويمهد السرير الذي ينام عليه، ساحباً تكتة بموضعها بدقة خلف ظهري.

- لماذا عذبت نفسك بهذه؟

رامياً بصره على زجاجة الخمر الملفوفة التي أثبتته بها، وفي عينيه فرح ضمني حدوده تنتهي على تخوم جسد أمينة المحرم.

- ما رأيك بكأس؟

ولا ينتظر جواباً. يبدن مرتعتين، أعصابها مسكونة بالكحول، يصب كأساً. وترتعش الزجاجة فتكاد تسقط من أصابعه المعروفة. ويبطء يقدم الكأس. للحظة بخيل إليك أن هذا الرجل سيموت بعد أن يضع الكأس.

- الشعب نائم؟

يومئ ثم يستطرد فجأة: بسيطة نوقظهم. أخي لماذا طلائك قليلة؟

أنا وحدي كما ترى لا أجد من يؤنسني وسيرتك أبداً على الشفاه. أم سميّة

تقول: لماذا لا تأتي وتسكن معنا؟

- أسكن مع أصحاب لا أستطيع مغادرتهم.

هذه المخلوقة جرمثني. في الشوارع أشم رائحتها، وفي مركز عملي، وعلى الوسادة عندما تبدأ الوحدة السرية واجتياح المناطق المحرمة، والتداعي.

صورتها. جسدها. أنينها الجنسي وهي تفهق في بحر اللذة القصوى. بحركة لا شعورية في ساعات الضيق الليلية، تفكح قدمي باتجاه ذلك المطهر الجسدي، مثلما فراشة تتجه مغناطيسياً نحو النار. أقول: تحرر منها يا ابن آدم.

يشن الجسد: جسدها كعبتك.

أقول: لقد دمرت حياتها.

تقول الرغبة: الجسد الحزين في الجسد الحزين فرح ومسرة.

أقول: ولكن إلى متى هذا التريف؟

يقول الوعي مسوَّغاً: أنت تجدد حياتها.

- امرأة لها ما ليس موسوم.

- تتطهران.

- لكن الثورة تخسر.

- الثورة تحقيق رغبة.

- ولكن ما علاقة الثورة بالجسد؟

منى لماذا هذا الدم محرور؟ لماذا الروائح الكريهة تكاد تشم حتى مئات الأعوام القادمة؟ بناييع التطهير والاغتسال بالدم، ثم الغوص في المستنقعات كيف تجتمع في بؤرة واحدة؟

من منهم يسوع. ومن منهم يهوذا؟ وهل وائل الأسدي هو مخلص فلسطين؟

[]

على الرمل رسمت كلمات. أجيال تتقدم. تحتها رسمت: أجيال تسقط. بينها نحت كلمة: (تتقد قط) ضحكت منى من أعناق صدرها حتى كادت تقفو فوق الرمل. أدهشتني ضحكها. رنوت إليها: لماذا تضحكين؟

وهي تنهض راحت تنفض تنورتها من الرمل : أنظر ماذا كتبت؟

- ماذا؟

- ما معنى (تنقد قط)؟

واهتزت مرة أخرى بالضحك.

تأملت الكلمة ثم ابتسمت. بقدمي محوتها، وبحركة تراجيدية حفنت رمل الكلمات ورشفته أمام موجة قادمة. كنت أنفجر على تبعث الرمل تحت اكتساح الموجة القادمة.

كانت الشمس في الضحى، والبحر يلعب حريراً تحت الأشعة، ومن بعيد لاحت الجزيرة والسفن البعيدة العائمة، وعلى الشاطئ كان الشباب والفتيات يترشقون نصف عراة بالمياه، واثبتين فوق الرمل كالأطفال.

سأجري مثني متر فوق هذا الرمل الأملس.

- دعينا نتسابق!

- اجر أنت وأنا أعد لك الزمن!

أول موجة ريح رشقت وجهي، واندفع قسم منها إلى رثتي، أعطيتني إحساساً بالحرية. هأنذا أمضي كالسهم قرب البحر اللانهائي، متحرراً من منى وأمنية ووائل الأسدي وأيوب السرحان وراني وسامر ونفسي، ومن تلك الدمشق الضائعة وراني.

امض. امض. تجاوز المثني متر. حطم الأرقام وخلّف العلامات التي رسمتها. (تنقد قط). أجيال الرمل والزمن المحدد. مكتوب هذا في سفر العربي. في الجسد والنفس. أجيال الهبوط والصعود. والريح تنثر وجهي ببرودة بحرية، وفوق الرمل آثار لقدمي الماضيتين. اطو المسافات. جيل الانقلابات والثورة المؤجلة والجنس يصطدم برغباته. يخبط فينسى ويقع. ارم كل شيء في البحر الشاسع وامض. جيل الصعود يجري كالطلقة نحو غايته ولا يتوقف إلا بالموت.

«إذا لم يكن ما تريد فاصنعه أو انتحر».

وفي الزمن نجثم منى وفي النوايا. خلفوها ومضوا باتجاه رغباتهم. ثم نسوها. منى تخصي الزمن الآن بعد أن غدرها بالموت والهجر. لا تثق بي. ستفقدني يوماً بالموت أو بالهجران. تلك حال الدنيا يا عزيزي أيوب.

ويعيا الجسد فيبدأ الهبوط. تعيا النفس بضربات اليأس المتواصلة، وأحد ما

لا يفهم على الآخر. الكل في مدار سرطانته الذي ابتناه من خيائه وعشقه الذاتي، يدور: إذا لم يكن ما تريد فأرد. ما يكون. تلك حال الدنيا يا عزيزي أيوب:

«والرمل ما ينعجن

والشوك ما ينداس

والسر ما يعطي

إلا لناس وناس»

لم يعد بالإمكان الاستمرار في العدو. كانت تصيح من خلني بصوتها اليتيم. وإذا انعطفت نحو اليمين شعرت بالإحباط وانهمر الحزن.

- «لماذا لا يستطيع الإنسان المضي حتى النهاية»؟

على مهل كنت أسير الآن. وفي منتصف الطريق توقفت واثل الأسدي فجأة، ساحقاً الأسفلت بعنف. وهبطنا. رفعت رأسي. على الرمل تنهض قامة منى. نباتاً برياً اقتلّع من أرضه قبل الأوان. هوذا جذره يحف.

- «كيف أعطيها نسغي»؟

وإذا اقتربت منها فتحت ذراعها. مدتها كمسيح مصلوب فوق الرمل. إلى يسارها البحر، وجبال الزيتون إلى اليمين، وابتسامة في طراوة الغسق تتشكل بين شفتين في لون حب الزمان.

كانت على بعد أمتار منى. ونذهت بي: أسرع. أسرع. ما بك؟

ولم تغير السرعة.

خطوة. خطوات. فجأة سقط الاعياء في مفاصلي، وهويت فوق الرمل. كان الرمل رطباً. على مهل رحت أحفره بأصابعي. نرّ ماء من جوانب الحفرة. تهيل الرمل فوق الماء فغار.

قرب رأسي فوجئت بقدميها الخافيتين. أصابع صغيرة ناعمة. تسلقت عباي ساقها. ارتفعت. مسحت جسدها بطقوس من يتعبد بصمت. كان هناك نائياً يلعب تحت الشمس، وعلى وجهها لحت غمامة غم.

على الرمل قرب وجهي ركعت. غلغلت أصابعها في شعري. مسحت وجهي. رفعت. كان وجهانا متقابلين تماماً الآن واستلقى الصمت.

بعد هنية سألتني: ما الذي حدث؟

في الداخل كان شيء ما يختلج. وتمدد الصمت أيضاً.

- في عينيك انحرار!

وقفت. رفعتها عن الرمل. انتصبنا متقابلين على شاطئ بحر وفجأة طوقتها. حملتها من تحت إبطها ودرت بها حتى دخنا. وقعنا فوق الرمل ورحنا نتمرغ.

- الناس أيها العاشق الفوضوي. صرخت بي محاولة التملص والهرب. صاح الحزن الغاضب: ليسقط الناس. لتقع مؤق عيونهم على الأرض. هذا لا يهمني. ما يهم أن نبنى حباً يتحدى الزمن والبشر. أنا أعبدك وهذا كل شيء.

كعاشقين في جزيرة مقفرة تدرجنا فوق الرمل. وقفنا. سحبنا من زندها وجريتنا مجنونين على الشاطئ. لم نشعر بالاعياء. تجاوزنا المسافة نحو الكتبان البعيدة. خوصنا في اثباح الرمل. غنيتُ لها، وقرأت أشعاراً لرامبو ولوركا والسياب: أهوى أن أسرقك ونطوف العالم معاً.

وقالت وهي تمضي: ستملني!

قلت ونحن نجري في الريح بلا توقف: عندما أملك أنتحر.

وفوق الرمل خبينا. كانت أحزان العالم منسية ورحنا تمضي هاربين من الأصفاد. ذراعي حول ظهرها وما نزال نبحر: أنتِ معي وأنا سيد الزمن الآن. قبلتني خطفاً. ارتيمنا خلف الكتبان فوق أرض قاسية.

كانت الأرض ساخنة. فرشت لها جسدي فاستلقت عليه.

عيوننا مغروسة في سماء صافية، في العراء المقفر. كان صدري مخدتها وخصل شعرها موزعة فوق وجهي. وقلبنا ينبضان.

- سيكارة!

وأشعلت لفافتين في في، ناولتها واحدة.

- هل يوجد في العالم حب كهذا؟ وابتسمت بعدوبة ملاك. نفخت وجهي بحفنة دخان. ورفرت عينها محدقة في الفضاء الرحب.

الآن يبدو العالم رائعاً كبجيرة في صيف عذب. أنا ومنى عاريان في قلب هذا العالم، نستحم فتصفو النفس ويصح الجسد.

- هذه الأرض لماذا لا تجتاحها ثورة تقتلع جذور المحرمات الدينية؟- ما هذا الذي نحيا فيه إذن؟ يسألني سامر البدوي.

فأقول: مشروع فقط.

ينخر. ثم ييصق مستعيداً تماسكه: ما الثورة في رأيك؟

أجيب: الثورة أن تبني عالماً يعيش فيه الإنسان بصحة نفسية مطلقة. أعني أن يولد فيه إنسان جديد يعمل ويحب ولا يستغل.

- هذا تعريف نصفه اشتراكي والنصف الآخر برجوازي. تعريف عمومي غامض.

أدهش: سامر. أنت تقول ذلك؟

يمد عنقه المتوتر ثم يهز رأسه مؤكداً: أي سيدي. أنا أقول ذلك! الثورة أن تحرر الإنسان اقتصادياً أولاً وبعد ذلك يأتي التحرير النفسي.

أقول: ولكن أنا لم أقل لا تحرر الإنسان اقتصادياً. ما أردت قوله: أن التحرير الاقتصادي لا يؤدي ميكانيكياً إلى تحرير البنية النفسية. هناك الثقافة والحرية الفردية والوراثة والدوافع. العالم لا تحكمه القوانين المادية فقط.

- التشريع الذي استنَّ بطريقة تحكيمية زجرية بعيدة عن فهم الدوافع النفسية والرغبات البشرية، تشريع فاسد، معاد للإنسان. ما هو مهم كيف تنشئ مواطناً خلاقاً يناقش، يشارك، يرفض أو يقبل بوعي ومسؤولية. يرى الحقائق بعينين مفتوحتين وذهن واسع عميق. مواطن حر من الداخل وليس مصفداً يهز رأسه موافقاً كعبد.

بنقة اجتياحية يقرر سامر: هذا كله يمر عبر التحرير الاقتصادي أولاً. وما نتحدث عنه يأتي فيما بعد. المهم هو الاشتراكية.

وأقول: لماذا لا تقول انه يمر عبر التاريخ بمجموعه وعبر الوثوق بالإنسان. عندما نفهم التاريخ جيداً والإنسان هنا، ونثق بأنفسنا، تبدل المفاهيم والشرائع وتبدل الإنسان. وهذه هي الثورة.

- أنت مشوش. مفهومك برجوازي ليبرالي عن الثورة. أضحك من تشوشي، وصفاء سامر البدوي. من فوضويتي وضبابيتي ومن حياته وأفكاره النقية نقاء خمور رأسه.

منى وحدها مزارى. قدس أقداسي. معبدي الذي أتعبد فيه عندما يدامني التلوث والتدجين. هي ذي تستلقي على صدري. هذا المثلث الأود به في حميا العالم القحل المتصارع، بعيداً عن كل التصنيفات الحمقاء التي تحولت إلى حراب نطعن بها.

إلى الجحيم جميع النظريات التي لا تؤله الإنسان وتخلق لحياته مناخاً صحياً يتمدد فيه بحرية مطلقة.

وددت أن أهتف برواحة: أنا الحب وأنا الثورة، أنا الفرد وأنا المجموع، أنا الله وأنا الاشتراكية، ومنى يبتثق معنى العالم. وكل ما عدا ذلك هراء وقبض الريح.

لكني أحجم: منى هاتي شعراً رومانسياً.

بأسي عميق تدندن: « للناس ظلالٌ وعشبٌ وموائى، ونحنُ مرافقنا مهجورة. للناس بيوتٌ وأغنياتٌ حبٌ وأنا وأنتُ خرابٌ وغيومٌ صيفٌ ومسافات. وحيدان في هذا العالم، في هذا الزمن الصعب، ولا موائى وحيدان كحيتي رمل على شاطئ مهجور، في مدينة لَعَنَها عَرَفُ قديم من أَلَي عام. أنا وأنتُ حواريانِ نبحتُ عن مسيحٍ لا يُصَلِّبُ، عن أناجيلٍ لا تهترئ وتزور. عن تورا لا يرفعها السفاحون راية غزو، عن قرآنٍ لم يمسه إنسان. كتابٌ جديدٌ لم تأكلهُ أصابعُ الزمن. عن وطن لا يغتسلُ أبناؤه بدم الأجداد».

قبلت منى كأنما دمة وثبت إلى حلقي. هبت رائحتها أعذب من رائحة الأرض غب المطر. وفي لحظة كالبرق، تمنيت لو أطويها تحت ضلعي وأمضي مخترقاً بها حدود العالم؛ نحو الجزر النائية. نجيا على ضفاف الأنهار وفي الجبال الموحشة وداخل الكهوف. نزوي قصصاً وحكايا عن الجنّ والغفاريات والظلام المخيف وتماسيح المستنقعات. على الصخور وعلى جذوع الشجر، نفصّد دمنًا ونكتب أشعاراً. نستحم في مياه عذبة لم يمسه جسد إنسان، وتحت أشعة شمس جديدة نبكي ونغني ونرقص؛ نلتحم في ليالي الشتاء ونلدُ نسلًا جديدًا، هادئًا وغضبًا كالبحر، حاراً كالشمس، وكحدّ السيف مصقولاً. ثم نموت كالأشجار في العراء بلا طقوس دون أن يقرأ حرف على قبرينا.

سألت راني قبل أن يسافر الى بيروت لتتويج ولعه بالماجستير: هل يسبق الانسان زمنه؟

ضحك منى وقال: الثوري الطليعي يحرق مراحل التاريخ.

ثم سألت أيضاً: وهل نحن ثوريون طليعون؟

فاجاب بجفوة: بالمعنى الماركسي الكامل. لا!

واذ قلت لماذا؟ اجاب: لأن علينا أن نقدم تنازلات وتوَجَّل الاحاسيس والمعاني النفسية المتولدة في الهُنيات الشخصية. تجاوزت رده الشخصي وسألته: هل ينبغي أن تذهب الى بيروت من أجل الماجستير؟

وبوثوق قال: ينبغي.

- ولكن ماذا ستقدم لك هذه الماجستير السخيفة؟

وبثقة محض شخصية، ابتسم: ينبغي المضي في المعرفة حتى الاقصى. بذلك نتزود بأسلحة أقوى.

- التجربة والثقافة العامة، ألا تكفيان؟

- الاصول الأكاديمية تعطي تماسكاً أقوى.

ثم سألت: لماذا لا تقيم الماركسية كبير وزن للمثقفين؟

وأجاب بفجاءة: لأنهم لا يستسلمون بسهولة لقوانينها الحتمية والاقتصادية. - راني هل أنت ضد الماركسية؟

- أنا ضد الحتمية التاريخية والتعسف. أؤمن بالارادة وصراع الأجيال الى جانب صراع الطبقات. فرويد وماركس يمكن أن يفسرا العالم الى حد كبير. لكن يقيني بأن الانسان لا يُحدّد تماماً، ونظرية واحدة عاجزة عن استيعاب الانسان. سافر راني أخيراً. واختفت منى زمناً. وفي غيابها بدت دمشق فارغة في ذلك الفصل الشتائي الكثيب. وحده كان وائل الاسدي ملاذاً اضطرارياً في اماسي دمشق.

كنت مضطراً أن استمع اليه وهو يسرد مغامراته وتاريخه الشخصي وفحولته فوق أجساد النساء الجميلات دوماً. وإذا أضجر من ثرثرته أحتجب في جسد أمينة.

سيارة وائل تبدو سفينة المهمات العظمى، والسريان الليلي نحو المخادع والبراري.

أعظم ما فيها قدرتها العجيبة على الوصول قبل أن يكتشف أحد من فيها، لكن الرديء فيها أيضاً، أنها تفوح أبداً بعطر نسائي يثير التقرز.

- رائحة سيارتك كرائحة مبيغ.

بحق يزورني: كلب. سافل. تنكر فضلها عليك. هاه!.

أقول: فضلكم عيم سيدي. ولكن أنت تعلم أن العبد الفقير يحاول أحياناً أن...

- اخرس. تُمسكين نفسك. عليّ الطلاق في هذا البلد لا يوجد مثلك أفعى.

- وائل! والله أنت غلطان. حكك حكّم مخبرات. أقسم لك أن القط يأكل عشائي.

- طبعاً، من لا يعرفك جيداً يعتقد ذلك. انما بشرفي أنت ذئب هذه المدينة بثوب حمل.

- لعنة الله عليك يا كاشف ستر الدراويش.

ويصرخ: اسمعوا يا ناس! يا سامعي الصوت! قال درويش. قال. إذا كنت أنت درويشاً فأنا نبي اذن!

- لا سيدي. أنت ضابط مخبرات وبس.

ونقهقه عقب شتيمة لا بد منها، يطري بها لسانه الطاهر. نجتاز شارع بيروت نحو دمر. كل منا بعد هذا الحوار اللطيف يشعل لفافة، والسيارة تشبع فوق الاسفلت كحجل يسف فوق المنحدرات.

- على مهلك!.

- خائف على روحك الخبيثة؟.

- خائف على النساء اللواتي سيترملن بعدنا.

- لا تخف. يوماً ما سنموت كالكلاب ولن تنقص البشرية. تأكد من ذلك.

- ولكن أنا لا أود أن أموت بهذه الطريقة المجانية السخيفة.

- تريد أن تفلسف الموت. طز. هو موت وكفى.

ويمضي في السرعة نكابة بي، وبالجرح الثاوي في فخذ أبيه.

- لن تصل أبداً.

- لا يهم. الاساسي في هذا العالم القدر أن تعلن غضبك وتحتقر جميع الأشياء.

[]

ودمشق ليل وتوق لا ينقضيان أبداً. مدار الموت والحياة مذ نكتَ يزيد أسنان رأس الحسين المقطوع بطرف عصاه، الى أن بدأت سلالة أيوب السرحان بالانقراض في عصر منى.

ها نحن خارج المدينة. في البراري مرميون وتحت ضوء القمر نشعُ ثملاً ورغائب. ودمشق هناك في الطرف الأقصى، مشعة بالضوء والتذكر، بينما نتلف هنا بالحس العضوي بين الهضاب المارة.

سكون. سكون. كأنما نمثل أمام الحضرة الالهية. صدى الصمت برّده البراري، وفي النفس توقع. صبا نزع متوحش حالم، وأرض منبسطة، ثم هذه السفوح الخضراء الصالحة للركض والمضاجعة.

غيب هود المطر فاحت رائحة الأرض، عبق رائحة النساء. كنت اطوق ناديا الآن. نحو شغب ضيق يمضي وائل وهدى. يضيغان عنا. ونحو كهف صغير بين صخرتين أسحب ناديا وننزوي.

- أنا خائفة.

- من ماذا؟.

- هذه البراري!.

ابتسم: البراري لا تخيف. الانسان هو...

واستطرد: انظري. انظري. حيوانان.

وترنحف هارعة الى صدري.

- هذان وائل وهدى. ونغرغر ضحكيتين فرعتين مغموستين بشهوة. إنهما يمشيان بعيداً.

ونستلقي.

الأرض خصبة، معشبة تحتنا. نثار ضوء يرشق النصف المنحدر منا خارج الكهف، وفي هبولى الحياة نمضي. نهتز فتهتز الأرض. ندخل منطقة الروائح

فيتلاشى الحلال والحرام. جسدان يومضان، وهما يتطهران. وناديا أرض سهلة العبور.

إذ يعود السكون يهد ضجيج الأرض. حتى الروائح يتغير عبقها ونسقط في الفراغ. تصير النجوم نجوماً موضوعية، بعيدة، خافتة الومض. الفقار أراض من البور الصلبة. ومع تراخي الجسد يتراخي الزمن.

الآن استقرت الشرارات التي خرجت كطلقات الجلبان. وفي فضاءها ركنت النفس، بينما استلقى الائم النادم على تخم الفضيلة. ومن البعيد، البعيد، جاء صوت هدى كأنما تذيب بمطواة.

سألت منى: لماذا نحن مفصولان؟

فقال بطفولة مفاجئة: لأننا غريبان ما نزال!.

- ولكنني أشعر انني أعرفك منذ الولادة. سلسلتُ في سمعي: الحب الحقيقي يُعرف مرّة واحدة.

وحزنت لأن منى ما عادت تعرف كيف تحب.

- ٥ -

مد صممت أن أتقري النفوس في أوقات فيضها الخاص، كنت أداري حذّين من الشعور: رغبتني في الأفصاح، واستمرارية الكشف حتى الوصول. واذ تنتصر رغبتني الاخيرة، كنت أشعر بأنني أزداد عمقاً في التعرف على اسرار العالم. الآخرون مجرات مجهولة، ودمشق ذات الطقس المتبدل، بدت لي سماء تغطي تلك المجرات. قليل من ضبط النفس كان كافياً لتعربتها.

قبو مشيع بالموسيقى والخمر، وأشياء أخرى، يوحى بضرورة امرأة ناضجة تحب الرقص والمجون ثم الاستلقاء العاري.

مجرّد احساس عابر داهمني وأنا ألج القبو.

سَلِمْتُ. مسرور المرمي على الخوان اكشفى بهز رأسه. وابتدرتني ديانا: عاش من رآك. في الشهر مرّة يا شيخ! ثم استطردت متهكّة: طبعاً الأحباب ينسون الأصحاب.

وتحرك مسرور: ملعون دينك أين أنت طوال هذه الأيام؟

لم أجب واشعلت لفاقة.

- ستسهر معنا اليوم.

نفثت الدخان في فراغ الغرفة.

أضاف: أناس يريدون التعرف بسيادتك سيحضرون. نفخت الدخان أيضاً: أنا أكره الآخرين.

بغضب: غصباً عن آهتك ستحضر!.

واستطرد هامساً: نساء. نساء يا عدوّ النساء.

ولعتُ ديانا: لا تهمس. لا تهمس له. مفهوم. مفهوم. النساء يُسخسَخَنَ أكثر منه!.

قلت متنبهاً: عزيزتي ديانا. أدبي زوجك. انا انسان مهذب وبريء كما تعلمين، أما هذا البدوي...

نهنت: معلوم. البراءة تشع من عينيك هذا واضح. في ديني أنت أردل منه. وكل منكما يشتهي حفيف ثوب امرأة ولو كانت غجرية.

صحت: تهنين الغجريات ديانا! هؤلاء طبقات كادحة!

أرقص مسرور ضحكة بلهاء مع شاريه. توجه الى ديانا وهو ينهض: تسبين الثورة؟ طيب. غداً تقرير من أربع صفحات.

شالت ضحكات، وردت ديانا بعذوبة: يا عيني على هذه النماذج الثورية التي لا تفكر إلا بالتقارير!

مستخفاً قلت: فتحي عينك ديانا. أنا ما عذتُ ثورياً. واحد مثل زوجك ثوري! أنا بطلت هذه الخزعبلات.

- اسكت. اسكت. اذا ترك لك الحديث تثرثر عن الثورة دهرأً بأكمله. استدركت: إذا لم يكن هناك نساء!

جهرت بعفوية: الثورة والمرأة لديك صنوان تخلط بينهما ولا الرب يعرف كيف. ورفعت أنفها استخفاً، ثم تحركت خارجة نحو المطبخ.

- ديانا. قهوة سكر قليل.

جاء صوتها من المر: نحن نشرب القهوة بلا سكر.

- لست بحاجة الى حلاوة. وكتمت توقعاً خبيثاً. تجهّم مسرور بقمطريرة مازحة: ولك. ديوث. تغازل زوجتي أمامي؟

باشرته: أليس هذا أفضل من الطعن في الظهر؟

وهبت في الذاكرة صورة أمينة.

عبرت النكته. ألح مسرور على ضرورة حضوري، ولم أقطع معه بقرار. رويداً في غياب ديانا راح ظل ثقيل يهبط فوق المسافة الممتدة بيننا. أزحت الملل باشعال لفافة جديدة، ورفعت رأسي محققاً نحو السقف والجدران.

على الجدار المقابل لمحت أيقونة شمعية لمسيح مصلوب، وقربه نموذج امرأة

عارية تمثل الحياء الافريقي في طقسه النقي، بعيداً عن أي احساس بالجنس. وقربي المكتبة.

[]

من صفد الى بغداد ثم دمشق أخيراً. رحلة شقاء محفوفة بالخطر ونقل الماضي المهين. كل هذا كان محمولاً على كاهل النفس التي تدمت يوماً وما اندمل الجرح بعد، وكان ختامها الطرد.

عبر ليل شتائي قاس وحزين، اجتاز مسرور الحدود العربية بعد ليلة قضائها في عراء الصحراء مطارداً من حرس الحدود.

كبحر صاف في صيف هجرته الريح، بدا مسرور. غريب في براءته وبساطة حياته التي تصل حدود السذاجة. غير أن انكساراً خفياً كان يطل من أخايد وجهه الهرم. أترأه شعور ضامر بالمذلة هذا الذي يلوح في عينيه الباهتين وتحت ظل هذا الشعور اندغم بالحزب؟ أم انها ديانا؟

- بماذا تفكر؟ سألي.

- أجبت: فيك.

- بي؟

- أجل.

- وابتسم ببلاهة: ولكن ماذا فيّ يستدعي التفكير؟

- رضاك!

- غريب أن يكون الانسان راضياً؟

- احدى عجائب الدهر العربي. من أين يأتي الرضى للفلسطيني التائه؟

وابتسم بمرارة مستبطنة. أفرز كلمة عمومية: يبدو انكم معقدون أكثر مما ينبغي.

ضحكت للمفارقة: ولماذا لا تسأل لماذا أنت راضٍ. أكثر مما يجب؟

وابتسم: تزوج ترض. هذا دواؤك.

- أنت تعتقد جاداً أن الزواج يحل العقد؟

- ربما. أعتقد انه يخلق حياة رضية بعض الشيء. على الأقل ينسي.

- راض أنت عن زواجك؟

وأطل وجه ديانا ومعها صينية القهوة. كانت تتبخر يجسدها المتأسك ووجهها الشرقي، وإذا قدمت القهوة، رفعت عينين تلمعان ببريق خاص. وأنا اتناول الفنجان قلت: ديانا. زوجك الرصين يعظني بالزواج!.

- أنا موافقة.

- توافقين؟

- آي. وماذا في ذلك؟

- فوضوي مثلي يتزوج؟ الزواج اعتقال وأنا أعبد الحرية.

وأجاب بوثوق: المرأة تعقلك.

- على مسؤوليتك؟

- على مسؤوليتي يا سيدي.

- ولكن هل أنت راضية عن زواجك من مسرور؟

[]

ها هو يكتب من بيروت أخيراً، بعيداً عن دمشق التي وازت لديه حب لينا: «ما رأيك برسالة الآن. ربما كانت مزعجة؟ انني أجلس على بعد نصف متر من الموج الصاخب، احضرت معي مشروع اطروحتي لكي اشتغل به. هل تعجبك الاطروحات أيها المسكون بمنى؟»

لن أكتب لك عن الهموم بالطبع. شيء واحد فقط يستوي لدي الآن: قبض العالم وقبض الريح.

هل قرأت سفر الجامعة؟ اسمعني «جورج» اغنية (وداعاً يا وطني) وأنا منذ أمد أحاول أن أقولها. انني ابحت الآن عن وسيلة توقني أن لينا يمكن الاستغناء عنها. كيف يمكن الاستغناء عن حجر أصم؟.

لقد تركت التحليل وكانت مثلها في العجز عن تحقيق الرفض عملياً. حُنتي القديم من جهالة البشر، تخمر واستحال حزناً غير معترف به من قبل احد. عندما نلتقي أنا وأنت ينبغي أن نكون ثملين: أية أشياء رائعة أيها الفوضوي النموذجي. كيف أنت؟ هل حبيبك مثل لينا؟ من أجلي قل: طز على العالم!.

اسمع. سأتكلم يوماً وأعمد في الكنيسة كأني متزوج طبعي بليد النفس، لكن لينا ستكون في النهاية لي. انني أذكرها بلا انقطاع كما أذكر دمشق وأعرف أيضاً انها تذكرني وتنتظرنني.

اعترف لك: انني لا أزال أحرار كيف أحبتي. لينا. كنت متشككاً حتي اللحظات الأخيرة، وكنت ضعيف الموقف ازاء هذه النقطة. ولما أبقت منها ازدادت ثباتاً وتماسكاً. ان حب المرأة للرجل هو بحق أتمن شيء في العالم. لقد استهلكت الرسالة في الحديث عن نفسي. لا شك ان لديك أخباراً كثيرة. انني انتظر رسالتك.

أعطيني رسالته احساساً عذباً وحزيناً بالماضي، عوّضت بها فقدان منى في تلك الأيام الخاوية. ها أنا أعبر الآن، وحيداً ثملاً، شوارع دمشق تحت ظلال السنسخت الكسول. الشوارع التي عبرناها سوية. وفي نفسي الاحساس الابدي باستحالة التلازم مع الاشياء. افكر بكلمته المخيفة «وداعاً يا وطني» منذ متى يفكر هكذا؟ هل وصل اليأس بالعربي حدود الانسلاخ لدرجة الوداع؟ وماذا بعد ذلك؟

كنت منقبضاً، كأنما في حلقي سكين. طعم ريح دمشق مرّ وعذب. أسرع الخطوات هرباً من شيء في الداخل. السريان الليلي، راني وأنا غبر ضمير دمشق الشفيف، ودمشق حب مسكون استوطن الضلوع. احسه يخفق في حفيف الاوراق، في الأضواء، في الحجارة، في النساء والماء، في الصوت والصمت. دمشق جنون أبدي يحبي ويميت. آه.

وأمضي.

- من؟

- أنا.

وتهمس باسمي. كأنما حوار متخف في مغارة ينتظر محلّصه الذي قدّم.

- آخ. أنت مخمور أبداً.

- وأنا مخمور اشتاقتك.

في الظلام نلتحم. الأيدي والظهر. الصدران. الفخذان. أقبل نحرها وعنقها وخلف أذنيها. ثم يستقر توقي المخمور على شفتيها اللذنتين.

تنهد. أداعب وجهها وتديها فتشوق: اسمع سأروي لك حادثة لن تقولها
لإنسان. أقسم لي؟.

اقسم. واستمر في مداعبة حلمتها.

- في الاسبوع الأول من زواجنا كان مضطرباً. في اليوم الأول نام معي
ولم يستطع أن يفعل شيئاً. سألته ما بك؟ أجاب بأنه مريض. مضى يومان وأنا
عذراء ننام في فراش واحد كأمراوتين. في اليوم الثالث بدأ الامر يقلقني. يشرب
حتى الثمل وإذا يقترب مني يسترخي وينام. وفي اليوم الرابع طلبت الذهاب الى بيت
أهلي لأزورهم. أمضيت هناك ثلاثة أيام دون أن أفوه بحرف وفي نهاية الاسبوع
عدت الى البيت. هل تعلم ماذا وجدت؟.

- ماذا؟.

- في فراش هذا المُسمى زوجاً، شاهدتُ صبيّاً عارياً ومعه أيوب كما ولدته
امه. أغلقت الباب ورحت أركض كمجنونة في الشوارع عائدة الى بيت أهلي.
سألوني لماذا عدت؟ كتمت ألي وقلت: أيوب مسافر خارج دمشق.
بحنان ضممتها. مسدت وجهها الناعم بأصابعي. على خدها أنمتُ خدي.
وسمعت تنفسها ونحيبها فوق صدري.
في الغرفة المجاورة كان يشرب وحيداً، وغرقتنا بغوص في عتمها الخاص.
عندما مارسنا الجنس مرة ثانية احسست لأول مرة اني لا أخون!.

[]

كيف انسللتُ من الحجرة وأنا مغمور بالحزن والقرف ومشاعر أخرى،
لا أدري!.

هي ذي أرسفة الشوارع. أترنج في ليل دمشق الصوفي. سرت باستقامة
ثم انعطفت.

قطفت زهرة ياسمين وشممتها بخنو.

عندما هبت الحادثة في ذاكرتي، حضر أبي فسألته: هل مرّ عليك زمان
كهذا؟ فقال: سيمر زمان أقسى. نحيته عني وحسدته لأنه مات قبل هذا الزمن.
بين اصابعي سحقته زهرة الياسمين حتى صارت كالرماد وقدّفت بها الفضاء.

هوس. حلول. ودمشق هذا الجسد المفتوح للريح، بحر أمواجه تصخب
وترتعش. أصوات مكبوتة قرابة التي عام كما عبرت مني. أنجيل ونورا ومصاحف
جديدة كلها لم تُفتح بعد. إبقاعات البحث عن أمان وفرح يطال الأرض من
أقصاها الى أقصاها. والجسد الباغي مركز العطالة وبؤرة الفرح المشتعل. جسد
عطش مُغوى يفتح تحت المطر كما تفتح زهور الزجس تحت فجر ندي عذب.
آه. وصراخ التاريخ يدوي بصمت في الحضرة الجسدية. أضواء ونيران. تنبثق في
ليال عصفي، ومطر. مطر ينهل فوق الاراضي البور. فوق الاراضي التي تنهل
وتنشج توقاً لقطرة ماء تروي الحناجر الحارة المهملّة.

- هكذا أنت دائماً متوهج كثور.

- أرضك ظمأى.

- أنا لا احب هذه العملية بهذا الشكل الحرام.

- تحبين أيوب؟.

أحب أن نتزوج ونحيا في دنيا الحلال. هذا حرام!.

- مستحيل! يقول المثل.

في الظلام تنهمر دموعها فوق كتفي. أشعر بحجارة الدموع. أمسحها. ويبدأ
رنين حالتي المرضية. انقسامنا.

بعد موت الرغبة أتخامل للبقاء قربها. أسأله: هل بدأت كراهيتك له بعد
معرفتي؟.

تنه: ازدادت بعد أن عرفتكَ.

- هل تخفين شيئاً أمينة؟.

نهمس: ملكتني كالوباء. آه. أتمنى لو انني لم اعرفكَ.

ثم بألم تقول: أيوب رجل منحرف. رجل سيئ أكثر مما تتصور. وتبدأ تغصّ
من جديد.

بعد صمت أقول: ينحو عليك أنك السبب في شقائه.

- أنا؟.

- يردّد ذلك على مسمعي عشرات المرات.

سألت أبي : لماذا يتفرج ذلك السيد الله على الانسان بسادية ؟ قال : أنت لا تعرف ما هو الله .

أوغلت في دروب المدينة . الى أين ؟ والمدينة ضوء وعم . صمت وحكايا داخلية . محاكمات وتحليل . خيبات وأيام مكرورة .
وسألته أين يقطن الله ؟ فضحك من غبائي وغاب .
الخمرة أيدت بقاياها ، فبدأ الذهن يشرع قوانين للانسان .

امتد صمت كالقبر . أبحر في سفيني الداخلية أرسم جمهوريات للفرح البشري . يوتوبيا بتشريعات تسنها الحرية والتطهر من كبت التاريخ . هل العربي محكوم بقوانين الدين والوراثة ؟ حرره من قفص التاريخ المظلم يولد من جديد . ولكن كيف ؟ يقول سامر : بالاشتراكية . ويقول راني : بتحقيق الرغبة .

لكنه في الظلمة يضع قدماً ، وفي النور يضع أخرى . وهو في المتاهة . جسده في العصر لكن نفسه تنتمي الى القرون المنحدرة . انه ينوس بين الله والاشتراكية . وهذه الأرض لماذا لا يمتاحها طوفان لا ينجو منه إلا رجل وامرأة يلدان العربي المعاصر ؟ .

وتراءى في زوايا دمشق الميتة ، مجموعة من الاستثناءات قُطعت اسبابها . في محراب التاريخ انزوت ربحاً من الزمن ، بعد ان نسيها الله والعالم . تعيش في العتم بقوانين خاصة استنتها احتجاجاً على قوانين زمن العرب الجائرة ، وبعد أن باشرت شمس الفرج والحرية بالغياب .

من بين كل فاقد الذاكرة ، حلمت برجل لا ينسى . يخرج من كهف التاريخ ومعه سيف وكتاب جديد ؛ يضرب ويشر ولا يعرف الرحمة . يعطي الفرج للحزائي ، والخبز للجبايع ، وينشر رايات الحرية فوق من لم يسقط تحت نطق السيف . لكن الحلم سافر مع سفر منى ! واستمرت قوافل المقهورين والحزائي متنامية على درب الزمن .

يا الهي أية حماقات تشرح ذهني ! .

هأنذا ما ازال منبأ في عروق مدينة الثورات والانقلابات والجنون والتجار والمنحرفين والمتوحدين والمقصومين ، وإذ تكل قدماي من مسيرة الشقاء الروحي ، أرغمي على ضفة رصيف تحت شجرة ، وأدخن .

- لماذا لا تكتب عن الشعب ؟ .

الاسفلت أمامي يكاد ينبض بالظلال والضوء .

الاسفلت المصوص المتأسك ببلايين الذرات الملتحمة ؛ يسقط الضوء عليها ثم الظلام ، الاقدام والاطارات أيضاً . عناصرها تدور في مداراتها . الكترون سالب يقابله بروتون موجب ، ثم النيوترون هذا الجزء المتعادل الذي لا يحمل أية شحنة كهربائية لكنه يمتلك قدرة اشعاعية خارقة تستطيع النفاذ خلال طبقة من الرصاص سمكها قدم ، لكنها لا تنجذب نحو الالكترونات أو البروتونات .

هكذا الانسان إذن في التحليل النهائي المادي ! .

- «لأنك رومانسي مثالي أنت بعيد عن فهم قوانين التاريخ وحركة الشعوب» .

وحدثته عن الحزائي والوارثين ، والذين أصابهم عطب نفسي ، عن شهداء عصور الرمل والشعر والصلوات والجنس ، والذين تاهوا في منحنيات القرن العشرين ، كيف فاجأتهم الذرة بأشعتها الخاطفة ، وهم هناك يتدثرون ويتلون في الظلام العميق ما تبسر من آيات أجدادهم فوق قبور موتاهم .

وقال عني بانني لم اتطهر بعد منهم ، وما زال في نفسي حنين اليهم ، كما قال انني احبهم وأكرهمهم ولم أعرف بعد كيف انجو من طقوسهم البدائية والصوفية . ودافعت عن نفسي . عن حي لهذه الأرض ، وعن جذري المتشبث العصي على الاقتلاع ، وانني أبحث بدمي وروحي وعقلي عن شجرة جديدة تطلع من هذا الجذر . شجرة مضوأة بأشعة القرن العشرين تشق هذه الأرض المطعونة ، التي يهددها منحيم بيغن والتي لم تُجذب بعد . الأرض التي لا تستحق أن تهجر وتُلعن .

وقال : أنت لا تؤمن بقانون المادة .

وقلت : أنا أوّمن بالانسان ووحدة الوجود والثورة التي تدمر العالم القديم . ووصمني بانني حلولي . وهذه نظرة صوفية ميتافيزيقية لا تثبت أمام قوانين العلم .

وقلت : أنا ضد التحليل الجزئي لذرات الانسان . فغادرتني يائساً .

نهضت عن الرصيف . سرت وأنا ألوح بيدي . فردت أصابعي في فضاء نصف مظلم وبدأت أدندن .

ومن الداخل داهمني فيض سخرية من كل نظريات الوجود والفلسفات

الحجرية التي جزأت هذا العالم ، واخذت الانسان ذرة مادية تجريبية قسمتها الى موجب وسالب ومتعادل .

- « هل أنا متعادل ؟ » .

بصوت خفي تخامد على حواف نفسي صحتُ : لا اريد أن اكون شيئاً في هذا العالم الساقط . اريد أن أحيا فقط .

- ٦ -

لم يسمعي أحد . فابتسمت بمرارة عذبة . كنت أقدم احتجاجاً للعدم . وعبرتني سيارة مرقت كالبرق . أحد ما لا يبالي بي ، كذلك أنا .

المخلوقات المتحركة تروح وتجيء بطريقة غير ثابتة ، لكنها لا تشبه دوران الجواهر في الذرة . قد يكون هناك قانون فيزيائي وكيميائي يحكم المادة ، أما الانسان فقوانينه تنبع من الداخل ، من العالم الثاني الذي يتمرد على الآلهة والطبيعة ويخرق حدود المطلق . العالم الذي يستقدم في لحظة انحراف جامحة صبيّاً بدل صبية يانعة ، شهية كالطر في صيف حارق .

- « هل أبواب السرحان مسوّغ ؟ » .

لم أدر كمّ من الوقت مرّ على سرياني في دهاليز المدينة واقبيتها . كل ما أدريه انني مُدّ عرفت مني صرت عدوّاً للزمن الميكانيكي . صار الوقت إيقاعات نفسية تنطلق ثم تتوقف فجأة دون أن تنذر .

لم يكن مسرور في البيت . عاتبتني ديانا لعدم حضوري سهرة الاسبوع ، فأفهمتها بلا مبالاة انني لا أهوى التعرف على البشر كثيراً . واذا اعتقدت ان في ردّي الجاف نوعاً من الكبرياء ، حاولتُ أن أشرح لها ان التعرف على الناس يحتاج طقوساً خاصة هي في أغلب الأحيان كاذبة ، وأنا لا أتقن مثل هذه الطقوس ، فاتهمتني بأنني فلاح لا أعرف أصول التمدن ، واذا قلت انّ هذا ليس تهمة ، بل مفخرة بعيدة عن الزيف وأكاذيب المدن التجارية المتأصلة ، جبهتني : انتم متغطرسون ومعزولون أيها المثقفون .

واستطردت لتثيرني : في السهرة كانت هناك نساء كالأقار . ولوحت رأسها متشفية من غيابي .

وأنا أرنو إلى وجه وعيني ديانا ، أدركني حس الائم ، ففتلت نحو مسرور والحياة اليومية وصداقتها مع الآخرين .

دخناً . وقدمت ديانا قهوة ، وسمعنا موسيقى . وصممتا . بين حين وآخر كان كل منا يخون بعينه خلصة .

لم تجب على السؤال ، وهو الآخر لم يجب . وها هو الآن غائب . ذلك الرجل المطارد الذي لا وطن له . فكرت به للتو وأنا أختلس النظر الى جسد امرأته .

هل وجد وطنه فيها فاستكان ؟ وهل تستطيع امرأة في العالم ان تشيد لرجل عالماً من فرح معوضة له خسارة وطن ؟

لقد قال راني : ان حب المرأة للرجل هو أتمن شيء في العالم . ومسرور قال : تزوّج ترض .

وسألتني إن كنت أريدُ خمرأ ، فقلت : هل يتأخر مسرور ؟

فقلت: ربما.

وتحركت لتصب لي قدحاً.

بعد أن احتسيت بعض الخمر، عاودتني حالة الأمل، فرويت لديانا شيئاً عن حالتي، واذا أدركت وأنا أثرثر محدودية فهم ديانا، داهمني ندم مفاجئ. تذكرت أمينة وأيوب وحادثة الطفل، فاغتممت.

قلت ديانا خارقة الصمت: خلافاً لما يعتقد من يعرفك، تبدو كثيراً في معظم الأحيان.

ابتسمت فأردفت: أقول ذلك جادة.

تحللت الخمرة إلى شيء آخر مختلف تماماً، وراحت تلوح على الشاشة التذكرات والأحاسيس والآلام الغافية. وجاهداً حاولت أن أتوازن، لكن الغرفة راحت تتبدل وتدور، ووسطها تبدت ديانا امرأة حقيقية لها زوج غائب وسط فراغ جهنم. كنت قد بدأت أعاند احساساً راح ينمو في ظلام اللاشعور. وبين الرغبة التي تدق لتنتقل بعد أن هدمت الخمرة السدود، وغياب مسرور، كان العالم يترنح بضوضاء لا حد لها.

في المسافة التي بيننا ارتجى شعور مبهم، لزج، طيني، انسرب عبر زمان مغفل، حدوده قاسية ورخوة معاً. وبصفاء سماء خالية من الغيم أجبت بعد صمت: كتيب لانني مختل. ديانا هل تدركين معنى أن يكون الإنسان مختلاً من الداخل؟ واذا رأيت الجدد والتوقع الحاد في وجهي. انكشيت بذعر. بعد سقوط الكلمة، أحسست بالاثم فوددت لو سحبتها حتى لا تنجلي قشرة السطح، لكنها كانت قد قيلت، وارتمت في أعماقها.

- لماذا تزوجت مسرور؟

بدت الجملة مجانية، وقمت مني ربما لتنفذ حالتي الهلامية، ورفعت ديانا كتفها بلا مبالاة وهي تمج لفافتها: كان لا بد أن أتزوج يوماً.

- هكذا!

- عندما تكبر البنت في بيت أهلها تصبح شيئاً فائضاً يضايق. اذ ذاك لا بد لها أن تخرج إلى بيت آخر تشعر فيه بالراحة وترجع.

- أنت مرتاحة في البيت الآخر؟

- مسرور يحبني وما أريده أحصل عليه.

كنت أغل أناملي في ثنايا شعرها الذي يلمع الآن تحت الشمس. أنحس جذيراته، ثم أفرده بين أصابعي فتدغدغني حريرته ودفؤه الشمسي. واذا تسرب الأنامل نحو عقها الوعلي ثم باتجاه سفوح ظهرها أحس يجلدها الناعم كحصى الانهار، وبقلها النابض من ظهرها المتكئ على صدري.

- منى أنا مختل وأنت المشفى.

وتبتسم بشفقة حزينة: من تنشئ مسروقة قبل السقوط. دعنا نمش. تنهض. وتنفض الرمل فيتناثر شتات منه على وجهي وصدري. أرنو إليها وأنا ما أزال مستلقياً فأشعر في لحظة كالبرق أنها تبعد عني آلاف السنوات الضوئية.

قلت: لكن الانسان هل يتزوج بمثل هذه المجانية؟

وهي تبتسم: يتزوج الانسان بالطريقة نفسها التي يموت فيها.

وقالت النفس لنفسها: «حتى هذه التي اخترقت ستائر الدين والتحريمات الدهرية بين المسيحية والاسلام لتطلع مطهرة على ضفة مسرور، تقول ذلك!» لم أكن منفعلاً ولا مشحوناً بأية رغبة. كنت عائماً في حالة ركون. طوفت خاو فوق بحر.

أبي استحضر جميع الذين أحبهم وهو مستلق على الفراش، وبوعي تام قال: ساحووني يا صحاب إن كنت قد أخطأت. لقد مضى عمر انسان إلى غير رجعة. مضى بخيره وشره ودنت لحظة الغياب النهائية. الانسان يخطئ ويصيب لأنه غير معصوم وهأنذا أموت بغير اختيار. الانسان ذكرى. وداعاً يا صحاب فالانسان يموت.

واذا صاحوا: لا نريدك أن تموت. أغمض عيني وغاب بلا احتجاج.

في ذلك اليوم بكيت بكاء مرّاً لفراق أبي، وفي اليوم الثاني خرجت ولعبت الكرة بحماسة طفل يحب اللعب.

أخبرنا مسرور أن يأتي لسنهر معاً. الحّت ديانا على حضوره، فوعد بالحياء. حسوت كاساً ثالثة. ولما ضوأتني الخمرة ثرثرت لديانا شيئاً تافهاً عن حياتي، وعن الانسان في هذا العالم. وقلت لها بأن البشر ضعاف يخطئون ويصيبون في بلادنا، لكن الخطأ ان إنساننا ناقص بحكم التكوين التاريخي والنفسي. الناس

ملوثون ومقهرون، ولهذا يتميزون بقدرة لا مثيل لها على التمثيل وإخفاء الجوانب المظلمة. ارث رسوبي ينغص عليهم النوم والبقطة، يودون لو يتطهرون منه لكنهم عاجزون. من أجل هذا أنا كئيب. كئيب أحياناً حتى العنف أو الموت وأنا أشعر بعجز عن فعل شيء ما لهم.

وامتد صمت.

كانت الأشكال تتبدل. تغيب صور وتتبدل صور أخرى. وتاريخ الآن يتأثر مع تاريخ الماضي. فقط كانت الأصباغ تغطي الشاشة، وكان قلبي يدق بخوف وأنا أرى مرارة هذا التتابع. هذا الاستشهاد. وفي النفوس، تحت كل ما يحدث، كان هناك حجر ناشب ينمو تحته عجزنا وسقوطنا وإخفاقنا. حجر صلب كان ينبغي نفسه. لكن ذلك كان يحتاج جرأة وضحايا وثورة.

وشعرت بقلبي يرتعش بالحزن.

لم يأت مسرور. ولحقت على محيا ديانا غمامة اكتئاب.

- أنت أيضاً تكتئين.

رنت نحوي بأسى سري، ولم تجب.

- ما رأيك أن نسير في الشوارع ثم نمر على مسرور؟

الخمرة العظيمة تحطم سدود الكذب. تثبت أن عالم فرويد ليس احتمالاً ولا مناقضاً للعلم. بذلك فكرت ونحن نجتاز عتبة المنزل. لفحتنا نسيمات دمشقية، أشعرتني أنني ملك المدينة وأنا أسير مع ديانا. كنا نسير متحاذين، تارة فوق الأرصفة وتارة فوق الاسفلت. لم يكن هناك اتجاه محدود. دمشق راقدة كمقبرة، وفي العمارات النظيفة ترهوا أضواء زرقاء وحمراء. وفي هذا الليل الاسطوري رجل وامرأة يترنخان على غير هدى.

فجأة خرقت ديانا الصمت: بماذا تفكر الآن؟

- بك وبهذا الليل!

- بي؟!

- أجل.

- وضحكت بعدوبة خائفة.

- الا تفكر بصديقتك؟

- الآن. لا.

- أتحبها؟

- هي لا تحبني.

- غريب!

- هل تحبين مسروراً؟

وصمتت.

قطفت زهرة ياسمين ناولتها لها. بعفوية أخذتها.

شمت رائحتها وقالت: عمر الياصمين قصير.

- كعمر الحب. صدرت الكلمة عفواً.

وانثنينا في شارع آخر.

شعرت بالزهو وأنا أعبر الشوارع التي عبرتها مع منى، حاولت أن أشير إلى ذلك فشعرت بسخف ما سأقول، وكلما انجذبت نحو المكان الذي يعمل فيه مسرور، كانت تقودني باتجاه معاكس. مارست لعبتها فسألتها: بماذا تفكرين الآن؟

وصافحت وجهي عيناها المتألفتان. ابتسمت: قبل لحظات تساءلت لماذا

لم يأت مسرور؟

- هل أحزنك غيابه؟

أجابت بتلقائية: كان عليه أن يأتي.

وسألته ان كانت تحس بالحرج لأننا نسير في هذا الليل، فأجابت بأن الأمر عادي. وتحدثنا عن قوانين الشرق وقيمه والانسان المحكوم، وقلت بأن الرجل والمرأة لا يعيشان حرية الداخل وان أي انسان لا يخاطر بكسر أول حلقة، وهو ينتظر ان يبدأ غيره عملية التحطيم، وقالت: ليس سهلاً أن يخرق الإنسان جدران المجتمع. ذلك يحتاج إلى جرأة نادرة. حاولت أن أفهمها بأنني لا أقيم كبير وزن لتشريعات كانت تصلح للأعراب القدامى. واني أخقر المرأة أحياناً لأنها جبانة، فقالت ان الرجل هنا لا يفكر بأبعد من نيل جسد المرأة ثم يدير ظهره. ودخلنا في تعقيدات الثقافة والوعي والحرية الداخلية وضعف المرأة الشرقية ومحدودية فهمها للانسان والعالم. كانت المدينة تشف، ونحن نتوغل فيها، مولدة شعوراً وجفاً بشيء ما قد يحدث. وكنا نسير جوار النهر تحت ظلال الأغصان المتهدلة فوق الرصيف. إلى

وجه ديانا رفعت عيني. كان شعرها الفاحم يتأرجح في الريح، مرخياً كالصفصاف فوق وجهها السهي.

الصمت.

ابقاع الخطوات مع ابقاع النفس اندغما في زمن واحد. احترك أكثر نسيم أثري واشج الأسرار، وحرك الوجع. بقصد لا شعوري لامس ساعدي ساعدها العاري. توجفت. ابتعدت عنها. سبقتني خطوات. وتحت الضوء تحت ذلك المسيل الأبيض المحبوك بإتقان. بيني وبين نفسي تمتيت لو أمسح شفتي عليه من منحدر الكتف حتى المعصم.

الشوارع نفسها، والظلال، والأفكار الجانبية، ثم المشاعر ذات الطرف الوحيد تلهث عن موئل ولات موئل. الأشياء تقترب من ضفاف الافصح، فيرفع الزمن جرس الانذار.

كنا ما نزال نسير، دونما اتجاه محدد، دونما غاية. وفيما مضى سرنا أيضاً. ورويت حكايات وتواريخ شخصية، وبفعل الخوف والإحباط القديم الجاثم في السرايب، ركنت الاندفاعات، وشقت بيننا مسافة. سرنا باستقامة ثم انعطفنا، كما حدث في ليل مضت، ولم تكن هناك رغبة في العودة إلى البيت. وحكت ديانا بعض الأسرار عن حياتها وطفولتها وأهلها ومدينتها. وتوالدت اسرار أيضاً. سر يفضي إلى سر، وكنت فرحاً وكثيراً، ولم يختزن الليل شيئاً. فقط كانت الذاكرة تلتقط.

تلاشت الخمرة. كنت الآن صاحياً على نحو متفوق، والشيء الذي لا يبوحد، يتفتح كتوبج في غسق ندي.

- ٧ -

علاقة الانسان بالأشياء تبدو أحياناً عصبية على التفسير، هكذا أنا ودمشق وجميع من استوطنها طويلاً.

يقول سامر البدوي: وأنا بعيد عنها أشعر بشوق صوفي اليها. ملعون خالقها. تسكن الدم والعصب كأنما وباء استعصى على الشفاء. عندما كنت في بيروت وددت أن أعدو نحوها على قدمي، ثم لومت غب وصولي فوق ترابها لما ندمت. أية مدينة في العالم لا تعوض عنها.

وقلت مبتسماً: المدينة أم النساء؟

ورفع ذراعيه: دمشق امرأة طويلة طويلة، ممتلئة، نضرة، مسكونة بالرغبات الالهية وبأشياء أخرى لا تدرك. ثمة شيء تحسه ينتظرك أبداً في مكان ما فيها. وعلى مدى الدهر، هو الثمل. والخمرة في نفسه قبل أن تكون توقاً فيزيولوجياً ليرضى الجسد ويندال.

رغبة متصوف جسدي، بعد أن يشمل يخرق أفسى الجدران، فيتحول. يحس انه صار الهاً، وان فروع وسواقي الانهار جميعها تصب في بحره الشاسع. وان تنبض بكنهه الداخل وليكن الطوفان، أن يقبلك البشر بكل ما فيك، لا بما يريدونه، ان تكون جزءاً من عالم وعصر، محتجاً، مبشراً، ثم ساقطاً، ذلك هو سامر البدوي.

وفي عصره الخائق الجبان، وشموه باللائعلاق، ولعجزهم عن الوصول اليه، قالوا: هذا المستهتر!

قُورن برامبو والخيام، ولكنه كان بيرون القرن العشرين القاطن منسياً في دمشق، والذي كان ينقصه، أوغستا لينام معها. لم يكن شاعراً كبيرون، لكنه كان

ملعوناً بفطريته الصحراوية وجسده الذي تصبح كل ذرة فيه بعد حسو الخمر: إلى بكل نساء العالم لأنام معهن مرة واحدة ثم أموت.

بعد الخمر تتجسد نبوته المركزية، يحكي فسمع له، وتحكي فيسمع صدى كلماته. واذ تصمت تكون قصص جديدة مبالغة، مُختَلَقَة أحياناً، قد ولدت في غار رأسه يروح يتلوها. وفي حوار حول الشعر والحس، بدا لي في ذلك المساء مقهوراً، ألحت إليه بأنه اختار طريقاً صعباً ليس من السهل عبوره، فتحدث عن الشاعر الذي يكتب بدمه والقارئ الذي لا يتعب وهو يقرأ، واحتج على الذين لا يفهمون كلماته، وقلت: ربما كانت المسألة هي غير ذلك، وما أردت قوله عن الطريق الصعب هو القدرة على خلق فن حقيقي من خلال التجربة الحسية، فالشعر ليس حياتك أنت، انه حياتي أيضاً، هناك ضريبة تدفع على حساب الغرق اليومي، وحتى يكون هناك توازن لا بد من موهبة خارقة، وأنت ضحيت بالشعر من أجل الجسد.

ويومها صاح كنور يذبح: أنت ماذا تعرف عن الشعر؟ الشعر والجسد لا ينفصلان.

وقلت مغيضاً: الشعر- الفن. لا الشعر- الانا. أنا لا يعني جسدك. قلّ شعراً أقلّ لك من أنت، وأنت عاجز عن الخروج من جلدك وهذا مقتل.

وباجتياح طاغٍ اتهمني بالغباء والقصور عن التقاط الالتماع الفني، وتلا علي آيات مكرورة من بيتس وبودلير ولوركا. وكان غضباً ومؤذى. ابتسمت وقبل صمّتي التهمة.

وكما يمضي النهر والرياح والسحاب، كانت حياتها تمضي. وان توجد أولاً توجد في قواميس علم السكان لم يكن ذلك يزيد أو ينقص. كان بإمكان النسل البشري أن ينجب الملايين ليضيفوا أرقاماً إلى الأرشيف السكاني، لكن علم الاجتماع والاحصاء، كانا عاجزين عن إنجاب منى أخرى تدخل تاريخي الخاص. كان ذلك من اختصاص علم النفس الزمني.

في مقهى خاص بعد مقتل زوجها بأربع سنوات، سألتها لماذا تزوجت ما دامت تكره الرجال وتخاف الأجساد العارية. فأجابت بأن ذلك تمّ على نحو تلقائي، وقد أعطت جسدها وأنجبت ميسالينا حتى لا يُقال عنها بأنها عاقر، وحتى

يرضى ذلك الذي يؤدّ أن يفاخر برجلته الشرقية ونسله. وسألتها إن كان قد حزن واغتمّ إذ أنجبت له بتناً فقالت: كانت ميسالينا في رحمي عندما مات!

كانت أناملها تنقر سطح الطاولة وهي تتحدث، واذ رشفت بعض القهوة طلبت أن أشعل لها لفافة. وسألتها عن حياتها الجنسية بعد موته، فحدقت في وجهي باتهام مبطن. بعد ثوان من الصمت سألتني ان كنت أعرف شيئاً عما يسمى بالاكشفاء الذاتي. شيء ما وخزني في الداخل، وطلبت التوضيح أكثر فشرحت لي، وقلت بأن ذلك يعود إلى الطفولة وقد يكون ردة فعل ضد الكبت، لكنها أوضحت لي ان ذلك بالنسبة اليها شيء مختلف وانها لم تمارسه في طفولتها، وان الأمر حدث بعد أن قررت أن تكون لنفسها. أشرت إلى الألم الذي ينجم عن ذلك، محاولاً أن أخوض في دقائق الموضوع، لكنها وضعت كفها على فمي قائلة: هذا شيء خاص ومعتقد. دعنا منه.

فتحت دفترها الصغير وراحت تقرأ شعراً. كنت ادخن وأتأمل ابقاع سطح وجهها وهي تتطهر بالشعر. قدمانا متعانقتان تحت الطاولة، تضغطان اثر المقاطع الحارة، بينا مجموع جسدها يرتعش مشوقاً والشعر يجتاحها. وقالت ديانا رداً على سؤال لم أسأله الآن انها تزوجت مسروراً بالصدفة. كان يسكن غرفة في بيتنا. وكان يبدو عليه الحزن والبؤس. أحياناً أدخل غرفته فتتسلى ونضحك، وفجأة وأنا منكبة أقرأ شيئاً له على الطاولة قبلتي، فوجئت. عاتبته: عليك أن تكون مهذباً في بيوت الغرباء. انكسر من كلماتي وقال بذلّ: ديانا أنت لست غريبة عني. وراح يبكي كطفل بين يدي. خجلت من تأنيبي. اقتربت منه. ورفعت رأسه ومسحت دموعه، ثم فيما بعد تزوجنا.

كنا نعتطف يساراً نحو شارع آخر، وديانا تحكي ببرودة كأنها شاهد محايد. أمامنا وخلفنا وعلى الجانبين، كنا مطّوقين بدمشق. نسير ببطء، ودمشق متاهة، وضيق، وأنوار. صمت، وغياب، وتوق لشيء محباً فيها وفيها. الدروب تفضي إلى دروب والاقدام ترنّ على الأرصفة بخفوت، ولا نتعب. اننا نمضي.

- تعبت؟

- لا.

- نعود؟

- كما تشاء.

- فلنمض.

ومضينا. داخل غسق خاص، في محيط زمني مُفلت، يتراوح بين العم والنور، بين الصمت والافصح. كنت أنقرى ديانا تلك الليلة، وأنا أستمع لخفق شفتيها. وكل شيء كان يسري كالريح، وفي غمرة هذه الريح بدت ديانا فضاء شحيح الاعتكار، وكطائر موسمي هجر جزيرته وتاه، كنت أخترق ذلك الفضاء.

□

عندما عدنا كان الزمن قد استرخى في أجسادنا، وفي الداخل سقط الولع. كانت السيارة آنذاك، الحقيقة التي تتحرك، والعالم في الداخل والخارج هلامياً مستكناً. أية كلمة لم تُحك. الراديو يخرق الصمت بموسيقى حزينة هادئة، ووائل يسوق براحة نفسية، ومحاذاته هدى نائمة.

على بوابة البيت رُفَعَت الأيدي لليلة مائعة، وغابت المراتان في شارع جانبي. دوار في شوارع دمشق، دونما اتجاه مقصود. صمت ولغائف تحترق. ورويداً تصاعد السرعة.

منعطفات لُفَها بسرعة جنونية؛ أضواء تمر، وشوارع تُعبر، وإسفلت تسحقه إطارات مهووسة، وبقايا سكارى يترنحون داخل أحزانهم التي نشرها الخمر.

- إلى أين؟

- إلى الله!

وتحرك جرح الجريح. هي ذي ريح الوطن والعبث والمضي أكثر فأكثر نحو أحاسيس جديدة، عبر أضواء تبرق في ليل النفس التواق للطلوع من إसार الجسد، من إसार العالم، نحو رؤى ومرافئ احتلت ولم تُفدها الجراح. ومنى لا تحضر، وفلسطين جرح ناغل في الجانب الأيسر الملاصق للقلب.

□

هي هجرة خاصة من نوع جديد، ليست طيفية أو طوباوية كما تبدو للوهلة الأولى. إبحار عميق لا يكلّ في محاولة للوصول إلى هوى الأشياء. رحلة ربما، عبر جحيم العربي المعاصر المتلكئ فوق هذه الأرض، هذا الذي يخدع بمشبهته فوق الأرضفة، بصّر الناس العاديين، لكنه من الداخل مسكون بالجن والتوق، بالرمل والبغضاء، بالمبالغة والخوف، بالأمل والخيات، بالخيانة والكذب، بالحضارة والغياب. جحيم حقيقي مذعور ينيء بعصور الانبثاق القادمة ربما.

- لكن لماذا تقيس جسدي؟

- لأركز في ذاكرتي جيداً حبك الخاص.

واذ انتهت من عملية القياس، استلقيت قربها وحدقت في السقف والجدار المقابل أطبع صورتها هناك. مررت كني من أعلى جسدها حتى رسغها. كانت ممددة في الفراش. بعد حين تغيب وأظلم وحدي مع السقف والجدار، ولو صحتُ حتى الاغناء: ان عودي، لما عادت. أن ظلي هنا، لابتسمت ورحلت. ولو صاحت نفسي بالزمن: دعني أعتقلك فيها قبل أن تغرب الشمس، لقهقهه الزمن مني، وفرّ.

وبعداب كنت أسأل: لماذا؟ الغزاة والفاتحون أم طبيعة البشر؟ لماذا هذه البلاد اللعينة تتأرجح في الريح؟

أي جحيم لا يُفصَحُ عنه، أن تحب كل نفس ذاتها في حجرة سرية لا تُخترق، وإن يكون هذا التعس ضحية الزمن الضائع!

وسألت مني: ألم تحزني اذ مات؟

- دُهِشْتُ. تساءلتُ لماذا يُقتل الانسان بهذه السهولة؟ وفيما بعد انتابني حس الغثيان.

- خفت؟

- على ميسالينا التي ستحبنا بتيمة.

- لماذا هجرتها؟

وصمتت. طلبت لفاقة. نفتت دخانها في الفضاء بقوة: دعنا نذهب إلى البحر!

كما أتذكر بمرارة أكثر الفتية الذين عرفوها من الخارج ثم ولّوا عنها موغلين في عروق مدينة دمشق. هي ذي تنتصب بيضاء كحجارة في اخضرار البحر. انها هناك. عارية. مضينة. مفعمة بالبحر.

بقهر استوطن خلاياه، مذ بدأ يحس هبوب الزمن على جسده الذي يشيخ، نهّد: اليوم أنا بائس!

تلمّيت وجهه الشاحب المعتكر بالعطب الداخلي، فلمحت تحت عينيه نصف قوسين ورّمين أفرزهما الزمن. وأضاف: صوب الصحراء هاجرت هرباً وما استطاعت ان تنسى، وبالألمس عادت إلى دمشق. ألم أقل لك أن دمشق قطب العالم ومن عرفها مرة تسكنه كالوباء. قالت انها حجّت الى الكعبة. دارت حولها وتعلقت باستارها هامة: يا ربّ انسيه. فتصوّر أيها العربي الصعلوك!

- لم تنسَ اذن؟

- ايه.. من الذي يستطيع أن ينسى؟ الحب كجرح الوطن ينغل ويلوب. يترّ أبدأ وفي فصول الخصب والهياج كالكمأة يشقّ الأرض القاسية. غنّوا لنا غنّوا، انشروا أوشحة النسيان فوق جسد هذا الزمن الحزين.

انشد احدهم قصيدة جديدة فصاح سامر: يا ابن الحرام ما أشعرك! كان متوجّاً بالحزن، يولّد منه أفراحاً وقتية، وعلى هؤلاء الذين أحبهم راح يوزع نفسه.

عندما انتشرت الخمرة بكل مجدها الصوفي، وبكل الحرية التي تتحدى بها الحواجز، عضّني من رمانة كني. همس لي عقب صراخي: أيها الملعون كم أحبك!

واستطرد قبل أن أفوه: أتعلم لماذا لم تنس؟ كثر بأسنانه ثم شبّ عن كرسيه واقفاً، رافعاً كأسه: نخب الموت!

عندما بدأ الكهف يرمي بالآخرين إلى الشوارع، بدأنا نحس عذوبة الخلوة. كان سامر البدوي يدخل حالة خاصة لم أعدها فيه. ثرثر لي بأنه لم ينم مع المرأة وكان حدثاً فريداً في تاريخه النسائي، وانه أراد الاحتفاظ بها في بقعة نظيفة من نفسه. وسألته: هل في نفسك رقعة لم تلوث بعد؟ فحدق في وجهي بشراسة عاتبة: حتى أنت تقول ذلك؟!!

- ٨ -

أذكر الآن جيداً كيف عبرنا ثبج الرمل. وكيف جرينا حتى الشاطئ. وخلال جرينا راحت تتعري من ثيابها. وهي تتعري رحت أوسع جسدها بعيني. بالطريقة ذاتها في اللامبالاة، في غرفتنا الرطبة في حي السبكي، بدأت تبعر ثيابها. تحت سطح الشمس لمع ظهرها البهيج، فضغطت رغبة الطواف بذلك الظهر المورق الذي لم يُمسّ.

على حافة الموج كانت عارية الآن، مثل سماء صافية. نقطة بيضاء وحيدة عند ابتداء البحر. قطع ثيابها متناثرة فوق الرمل والحصى، واذا أنحنيت اجمع القطع، سمعت صوت ارتطام جسدها بالماء.

وحاللي أن أراقبها وهي تسبح، موغلة كلؤلؤة في مياه البحر الصافي. فوق الرمل استلقيت على جانبي الأيمن بينما سرحت عيناى نحو ذلك الجسد العظيم الطافي فوق الماء. الجسد الذي يتظهر الآن من عصور الرداءة في مصحّ الطبيعة الفسيح. كانت تضرب الماء ثم تغوص، ثم تنبثق كالسمكة مغسولة تلمع تحت الشمس. شعرها القمحي الناضج يلتصق بخديها، تفردته فتبدو أناملها الرقيقة في أبداع تكوين، واذا يبرز نهذاها لامعين مغسولين كورق قطلب الجبال، يهبّ في داخلي توق الحلول فيها، يناديها صوت مجروح تعالي الي، لكنها تنقلب على بطنها فيبدو نصف ظهرها مرجاً من ياقوت وفجأة تقمس غائبة في اللجج الملح. يمر زمن أنتظر فيه خروجها. يداهني شعور أنني فقدتها. أرى المسافة بيننا الآن، ولا تنجي. وأنا الآتي إليها على مدى العصور، ومعها كان الصدع يتسع؛ وبدت صلتنا كأنما قطعت بمدة أحد من الموت، بترتها الخييات المتواصلة، الخييات المسجلة في أرشيف العرب. ثم هذا المرض الحديد الذي سمّته الاكتفاء الذاتي. اذ تنبثق مرة أخرى تستلقي على ظهرها، فأشاهد سطح جسدها: الحلمتين النيبتين، وجزءاً من بطنها، وركبتها ورؤوس أصابع قدميها. أتذكر اعياني عن قطع مسافة المتني متر،

واعذرت، موضحاً بحمارة انني أعتقد أن هذا الشر الذي يعتقه مسوّغ لأنه رد فعل قايض ضد الخير المنحرف والموروث، وإن التكوين السوي لم يأت زمنه بعد، والعصر الزايف يلد بالضرورة أبناء زناة، ونحن ربما كنا زناة بالوراثة. وقلت له إن أمي لم تعرف، حتى موت أبي، ما هي اللذة الخاصة بها، وأنه كان يلجأ كما يلجأ الوحش أثناءه ثم يتقلب عنها.

وحسّونا.

وهو يضع كأسه، آه بقهره الزمن. مال نحو جاره وعانقه، ثم وشوشه. قرأ لنا شاعر آخر قصيدة فشارف سامر تخوم البكاء. دق كأسه وقال: نخبك يا أنبل الشعراء.

مع رفع الكأس واندلاق الخمرة في جوفه، تراجع البكاء. تذكر أن عليه ألا يبدو ضعيفاً أمامنا.

– لولا الذين أحبهم لانتحرت.

ونتر مسدسه، ثم وضعه على الطاولة. إذ ذاك توقف الفرع والشعر، وتالت موجات النازحين من القبو.

وسأل بدهشة إذ رآهم يهرعون: لماذا؟

همهم جاره بين الفرع والمرح: خوفاً من هذه الآلة الفاشية. مشيراً إلى المسدس الملقى.

ابتسم سامر بهزء: لكنني سأرهقه لأنني لا أملك ثمن الويسكي.

□

في غياب منى حاولت ملء فراغي. وارتيت الحزن والفقدان. لكن ذلك بدا محالاً مرسوماً على وجهي الذي احترق الكآبة.

كنا ما نزال نسير في مدينة الصمت والحجارة، ورمقنا حارس يسلي وحدته بالمسير وصفارة الخطر فابتسم ولم ينبس.

– يعتقد أننا عاشقان، قلت، وما نُسِتُ هي الأخرى.

وتخاذينا أيضاً. مسح زندي زندها الأسمر المغسول مرة أخرى. وتباعدنا. لا شعوريا استُعيد ذلك، وكنا نتحدث قليلاً ونصمت. وسألت نفسي: هل لهذه المسيرة الليلية معنى؟

شارع يصل شارعاً. ورصيف يودي إلى رصيف. الدروب نفسها. رائحة الياسمين واللبل. ثم الصمت. وخارج المدينة تقوم البراري حيث لا حجارة ولا بشر، يقوم الانعتاق من المنازل الشبيهة بالشرائع التي استنت في غيابنا، لأناس متمدين يهفون جميعاً إلى حياة الوحوش والحرية.

هل قلت لها: انني أكره هذا المجتمع الذي يخدع بأنه منظم؟ وهل اجابت بأنها تحب الحرية؟ وهل ردت بأن الحرية تُعاش إذ تُحب؟

كانت الكلمات ترنمي كما يهطل مطر مفاجيء، كما يأتي نهار يعقبه ليل، وكما يجري النهر وتشرق الشمس.

□

مرة. ومرة. مرات. الشوارع أيضاً وهؤلاء الآخرون الذين اخترتهم في البدء ظلاً صحراوياً، وفيما بعد رغبة ملعونة للاستكناه. تستمع حافراً في أرض البشر ذرات تكومها كخلد الحقول. يرتفع السطح الترابي الذي جافته الشمس. وتقول وأنت تجف التربة: متى تنتهي اللعبة؟

تطوقك الشباك. عنكبوت يريل وينسج. ينسج حتى حدود التلف. ما الذي تريد أن تصل اليه عبر النسيج المؤلم؟ هل ستكتشف شيئاً لما يكتشف بعد؟ كوناً منسياً في مجاهل لم تُرتد؟

وما الذي تستطيع أن تفعله يا موظف الدرجة السادسة، أيها السيد المفقود في المحطات، في بلاد رجعت أنبياءها؟ فرسانها اعتكفوا في الخمارات ودخل خزائن المال، وفي المواخير، وراحوا يشرعون حراب الفتوح ويحررون فلسطين واسكندرون هناك، بانين للعربي الجديد مجدداً من الضوضاء والعطالة.

سرنا في شارع حلب العريض. كان خالياً من المارة في ذلك المساء الصيفي وبدت شجرات الرصيف متوحدة كجذوع ناس ضُلبوا منذ مئات الأعوام ولم يتزلوا.

وثبت في الفضاء. قطفت ورقة خضراء فقهقه سامر: أبوك. تثب كجدي. من أين لك هذه الحيوية؟

– كنت فدائياً!

زعق مستنكراً: فدائي! أنت فدائي. فدائي شرفات يا ابن...

وقاطعته: لماذا تسقط نفسك علي؟ انا أخلاقي يا أخي. وبأعلى صوته صاح:

اسمعوا يا ناس. اسمعي يا آلهة. قال أخلاقي. قال. اذا كنت أنت أخلاقياً فأنا المسيح اذن!

- أي مسيح؟

- ابن يوسف النجار!

وكمتوحشين انطلقت صرخاتنا.

في فراغ ليل المدينة رن الصراخ. تلاشى وضاع في أوراق الشجر والفضاء. في عرض الشارع تارة، وعلى الأرصفة، تمايلنا، تسابقنا عدوياً ولهثنا. بخفوت ونحن ندق خطواتنا المترهلة، اعتكر الزمن. ناح سامر «سكابا يا دموع العين سكابا» ومع الترانيم راح يميل بحسده المعنى. شاربنا منعطفاً منعطفاً معه.

- ليلة بلا نساء.

وقال: من أجلها سأكون طاهراً هذه الليلة. أعلم لماذا لم أنم معها؟ دندنت مطلع أغنية لفيروز. أشعلت لفافة ورحت أترنج.

- عذراء ومخطوبة لصديق بريء كالدمعة وأنا أحبه.

سرنا. لم أعلق، وفي الفراغ نفث دخان اللفافة. فجأة جرى قليلاً حتى سبقني وانعطف مواجهها. من صدري تناولني بقبضته السبارطية وهزني: اسمع. أعرف ماذا يقولون عني. أنا أرغب أن تحتقرني السائمة. احتقارهم تطهير. وسام أعلقه على صدري. اسمع. العربي مبعّد. طرفة نبي كالبعير. أمرؤ القيس غادر الخمر بعد موت حجر الذي لعنه عندما كان حياً: هذا ولد لا خير يُرجى منه. أنا أعرف ان العربي الذي نخدس به لم يأت بعد، واذ يقبل تدبر الخمرة. آه انني أتحدث اليوم كمخمور حقيقي. الموت لنا جميعاً. الموت للكلاب الضالة قعد الخوارج. وصمت قليلاً. افلنتي من يده القاسية. سار كماخوذ وراح يهلوس: يا اله الآلهة لا أريد شفاعة ولا جنة ولا غفراناً. أنا قاييلك الملعون. تخلّ عني فأنا شفيع نفسي يوم القيامة. نحو السماء كان يرفع يديه ووجهه. وتحت ضوء فانوس الشارع بدا وجهه متوهجاً كشهيد وقت التزع.

بعد صمت قال: ينبغي الا نخون بعضنا بعضاً. أتفهم ذلك؟

ومرة أخرى استوى الصمت، استواء جنازة رُفعت فوق الراحات. ومن الشرق

برغ قر رائع، لكنه كان ناقصاً. نحو السماء حدّقت، في ذلك البحر المحدّب الأجوف. اعترض خط بصري قبة مثدنة فوقها هلال في نصف فراغه الناقص نجمة.

هناك كانت رؤوس الأشجار هادئة، وكنت أسمع هبوط أقدامنا فوق الأرض. عبّر الشارع رجل معتم هارحاً إلى الجامع.

في حضني نامت أمينة بعد أن ضاجعتها باشتهاء لا مثيل له، وكأن ذلك يتم للمرة الأولى. في فراش واحد كنا كابين وأمه، وكانت سمية غافية لصق الجدار. بحنان من هدأت شهوته طوقت عنق المرأة، فأحسست دقات قلبها تحفّق برتابة واطمئنان في غياب أيوب السرحان المسافر.

كانت قد هيأت عشاء وخمرًا. وجلسنا ثلاثتنا. كابنتي اطعمت الطفلة، ورويت لها حكاية فضحكت، ثم مثلت لها دوراً هزلياً فدُهشت من حركاتي. وعلقت على ذلك بأنني أصلح مثلاً سينائياً. وغمزت بأنني أقبل شريطة أن نكون ماما هي البطلة. بفرح مطلق ابتسمت أمينة وهي تلسغي بنظراتها. على الخوان كنا متلامسين، وفي مواجهتنا سمية والأيدي المشتبكة المشتبكة تحت الطاولة تضغط سائلة: متى تنعس؟

كان البيت يطل على بساتين دمر، منفرداً بين غياض يجري خلالها بردى. وفي الخارج كان الليل والزوج الذي أقنعت بالسفر لتفقد ما تبقى له من حصة الأرض في البطيحة.

صلى الرجل في الجامع وعاد؛ باشمئزاز رنا الينا ثم تابع نحو بيته. كان الانهاك قد تسرب الينا وما قيل تبخر منه ما تبخر، والذي ينفع مكث في قاع الذاكرة.

ودونما وداع، افترقنا.

كان هناك في ضياء الظلمة يسير، وحيداً، منكسراً كمحارب. ومن الشرق راح الفجر يزغف.

كم سرت حتى وصلت، لا أدري. كل ما تذكرته في الليلة الثانية وجمع معدني وطرارة عشب حديقة السبكي.

وفي تلك الليلة فاحت بروائحها. من كل ذرة شبت الروائح فأنخلت فيها.
الجسد وحده الذي ثرثر. قام وهبط. توجع واحترق. انسأب ثم احترق كالرمح. ثم مات.

ثلاثة أعوام ولا ملل. ودمشق سكينه تنحل في النفس والبدن، يختطف الذكريات فتكاد تنسي كل ابن أنثى كوخه الذي هجره، فينسل الماضي كما تُستل روح على مهل.

- ٩ -

وكما قال سامر: مدينة مسحورة تلتف حول بنينا كما يلتف اللبلاب. نحنو عليهم. تطعمهم. وفجأة في ليل دامس نخفقهم بلا مقدمات.
هكذا كنا نُقتل كل يوم في مدينة العطاء والسكرى والمخدولين والشهداء والتجار. من مقهى إلى آخر، من رصيف إلى رصيف، ومن امرأة إلى أخرى، ومن خمارة إلى خمارة.

دوار يعقبه دوار. من الشيء نحو اللاشيء وبالعكس. ثور أعمى يدور حول بئر. جيل اسمه منى: جيل الصعود والهبوط. الجيل اللامعدي. وأسماه راني: جيل النقطة الحرجة. في حين كان اسمه في قاموس سامر: الذي لا يملك دفعة الوقت والتاريخ في اللحظة الراهنة.

وقلت عنه: ميلونا. قادم، امبرياليزم، عسكري، عزرائيل. فيقا الانفلاش الثوري.

وتقول دمشق: أنا اللغز الذي عجز عنه معاوية وتيمورلنك والسلطان سليم وسائر الفاتحين المبجلين.

وظلت قضية وائل الأسدي وأيوب السرحان ومنى وسائر المطعونين دونما استكناه، مستترة في مكان خفي من تواريخ المدينة وغزواتها وثوراتها المعاصرة. ظلت بلا قضاة ثوريين في عصرنا الحديث. []

الطريق نحو دمر - بيروت مفتوح ومشجر، يخلف شعوراً بالانطلاق والهرب. على جانبه الأيسر يتأود بردي داخل أبدية ثابتة بين ظلال الحور والصفصاف. وفي الجانب الأيمن قاسيون العاري.

وراءنا دمشق التي تعرت لكل الغرباء وظلت دمشق. والذين سموهم الهكسوس الجدد ما زالوا مقيمين فيها. همجيون وخطاة، لكنهم يبدون أكثر انغراساً في جسد

ثملت. قالت سمية: أنت تترنح كأبي. ضحكت وأنا أدرج نحو المغسلة. التفت إليها: أبوك اذ يترنح يسقط أما أنا...
وسريعاً قبل أن أسقط ولحتُ المرحاض.

إلى النوم يا عزيزتي الصغيرة. جميع الأطفال ينامون باكراً. اذا خرجت وأنت بقطة ما تزالين، سأحملك عنوة إلى الفراش وأعطيك واطنيء النور. هذا ما ينبغي أن يكون. أنت ذكية وتدركين ذلك. لا بد أن اللاشعور يعمل بشكل جيد. هذه هي الحقيقة. أنا لست مذنباً. أبوك هو المذنب. أنت ترين ذلك بوضوح. أي ام في ادخال الفرج إلى نفس امك التي هجرها والدك من سنين. جسد امك بحر صاف مُلألاً، مسكون باليواقيت والمرجان وأنا بحار مسكون بالغوص ورغائب البحث عن الجواهر المخفية في تجاويف الصخور. عندما تكبرين ستفهمين ذلك. لماذا يحزن الجسد وتخزن النفس؟ ولماذا الولوج يطهر البدن وينشر في ربا الروح نسيماً عذباً وراحة لا نهائية؟

الرجل لباس المرأة. أنا غريب هذا مؤكد في الماضي، أما الآن فأنا ربح الأم في أصياف اليم. المسرة والسلام للمرأة التي ولدتك بلا شهوة. أسألي امك عن هذا وهي ترتعش وتهتر كما تنقصف الأرض اذ يدهمها زلزال. وإذ يسألونك عن الجسد قل: الجسد أمينة وما أوتيت من العلم إلا قليلاً. يا أجساد نساء العالم الجميلة كوني خالدة على مدى الدهور فلا تشوهي ولا تموتي.

في ذلك المساء اشتعل البيت بالرغبة. مرة. ومرة. حتى الفجر وانما عاريان. وفوق جسدها المرمري الأملس المصون، سبحت. تطهرت في بحر جسدها. وللأزمة القديمة والنسل المتني خارج جسده، تأرت. لم نشعر بالليل، ونحن نتفتح كياسمين في ظلام رطب، داخل بيت منفرد مغمور بالغابات وموسيقى النهر.

الزمن الدمشقي. بوحشية غير متزنة، يهشمون أنفسهم وسكونية دمشق ورخاوتها. دمشق التي اعتادت على مدى القرون البيع والشراء، الصلاة والمجاملة، الهدوء الكاذب ثم قذف الغرباء عندما تضجر منهم.

دقائق ويوقف وائل الأسدي سيارته بعصبية. فيسمع للاطارات سحج مفاجيء يوجي بجاذبة مباغتة. بحركة ممثل، يغادر مقعد القيادة ثم يغلق الباب بعنف ويقفله. ندخل دهليزاً مغطى بأوراق الكرمة. ينبحن كلب ينهره وائل ثم يربت على ظهره فيشب الكلب بمودة على قائمته، هاراً بخفوت من عرف القادم.

يخرج وائل من صمته مذ غادرنا دمشق: هرّ لأنه عرفك غريباً. طوال الطريق لم ينبس. كان يدخن ويسوق كالمهوس وأنا قربته لا أعرف إلى أين نغضي.

انعطفنا داخل الدهليز المسقوف بالشجر. فاجأني النهر بهدير زاخر، وتحت انعكاسات الضوء بدا عكراً صحاباً.

لأول مرة أشعر ببردى مخيفاً في هذا المكان الموحش.

كان البيت معزولاً عن مجموع البيوت المتناثرة في الضاحية، غارقاً في السكون. وإذ وضع المفتاح في ثقب الباب وحركه فصرّ، داهمني إحساس غريب مشوب بخوف.

أشعل نور الممر وأنا أمشي خلفه بخشية واتثاد. لم يكن يُسمع غير صوت خطواتنا على بلاد الممر. ولجنا غرفة إلى اليسار. أشعل المصباح. سرير وطاولة وكراسٍ وخوان وأرض عارية. على المنضدة والارض زجاجات فارغة وكؤوس فيها بقايا خمر؛ فواكه ونفايات، ثم الروائح الحامضة.

- ما رأيك؟

غريب وشاعري.

- هناك غرفتان فارغتان. هل تسكن معنا؟

- أنت تسكن هنا؟

- أحياناً.

كان واقفاً يشعل لفافة «جيتان» دخانه الحاذق المفضل. معه كنت أتقي إلقاء

الأسئلة. على الخوان جلسنا. تناولت لفافة وأشعلتها، وشبكت قدمي بينا راحت عينايتي تكتشفان البيت.

كان السرير في حالة فوضى، وفي زاوية منه منامة نسائية مطوية. سألتني إن كنت أرغب في تناول القهوة، ودون أن يأخذ جواباً تحرك نحو المطبخ. سرت إلى السرير. رفعت المنامة. كانت ممزقة وعليها بقع من دم. اهتز في أعماقي توجس. على الأرض لمحت بقعاً حمراء مختلطة ببقع النبيذ. وعلى الجدار كانت هناك صورة عارية لرجل في حالة تنهيج، يقبل نحو امرأة مستلقية تسترهما غلالة تشف عن كامل جسدها. اللوحة زيتية والزمن شفق. وفي الزاوية بحلات نصف مفتوحة. تناولت إحداها فواجهتني أوضاع جنسية كان جزء منها ممزقاً.

لست أدري وأنا أعود إلى مكاني، كيف تذكرت صوت هدى الذي صرخ في البراري. هاجمتني روايح مرضية هبت من هذا العالم الغريب، وانتابني خوف خاص مشوب بحزن وغثيان. كنت منقبضاً.

وأقبل حاملاً القهوة. ورأيت وجهه الوسيم وشاربه الأشقر وشفتيه وشعر صدره الكثيف السابح نحو رقبته. بابتسامة مرتعشة قلت: أنت وسيم وائل!

فاجأني: هه. وسامة مشوهة تساوي فرج امرأة. ورحنا نخشي القهوة. من تحت المخذة تناول علبة دخان أميركية. عرض علي قلت: أنا ضد الأميرالية. وأشعلت لفافة «شرق».

قال: بل أنت ابن حرام.

استفهمت منه فابتسم، وقال إنني أملك رائحة شمّ نفسية. ولم أفهم ماذا يعني. بين أصابعه فتل اللفافة: لو تعرف قيمتها. أنت لا تعرف قيمة التمام. وقلبت شفتي. ووسمني بأنني حمار لا أدرك من عالم الإنسان إلا الأمور السطحية، وإن الحياة في نظري قراءة كتب وتأملات لا صلة لها بالواقع. ثم ختم موعظته: التأمل لا يخلق إنساناً. والتجربة واختراق المحرمات في هذا العصر الجليل هي الأساس يا بهيم.

وقلت: قد أسمع الكثير من الآراء الدونكيشوتية التي تتجلى لك ولكن أفهمني ما هو هذا التمام؟ قهقه وراح يشعل اللفافة المقفلة في نهايتها، ثم عبّ نفساً طويلاً قذف إلى فراغ الغرفة قليلاً منه وابتلع الباقي. شممت رائحة غريبة وزكية، بينا

كنت أرشف القهوة. امتدت يده إلى زر النور فأطفأته، وأشعل مصباحاً صغيراً أحمر. قال: هذه طقوس لا بد منها.

بدأت الغرفة موحشة، تشبه مغارة قائمة في الجبال. وراحت الروائح تنداح على مهل: مباخر من عصور قديمة توحى بالموت والجنس والعزلة. الأرض والجدران والستائر والفراغ، راحت تنضح. تدخل أنني وتغور إلى الداخل، أحسست أنني مرمي في حفل جنائزي وأنا في مسحور، ثم انتقلت إلى عالم مفرح، فعالم يوحى بالقتل. تخيلت في هذا الهلام الغريب أن امرأة حضرت هنا من زمن ماض، فرحت، ثم انتهكت، ثم قُلت. وازدادت الروائح. أحسستها تخرج من لفافي ومن قدمي، من الكتب والخوان، ومن كل جسدي. كانت هناك تستوطن كل ذرات الغرفة، وكنت كالنقطة يحيطني غلاف من روائح بخورية تخرج مني. وفجأة ذهني انقباض وحالة غثيان، وكان قبالي يحسني القهوة ويدخن، ماصاً لفاثته على مهل. يحكي أشياء أحاول جاهداً استيعابها، انتهت لكلمة هدى وناديا فسألته إن كان قد رآها بعد تلك الليلة. شتمني وهو يقول ان المرأة الشرقية تؤخذ عنوة. وأتذكر أنني أجبته أنها رقيقة وعذبة كزهر الياقوت وتكره العنف وأن هذا الذي تحدث عنه مركب نقص في العربي المسكين. وبدأت حدقاته محرورتين باحمرار حار، وحاول أن يناقش في موضوع الفحولة والمرأة الشرقية التي تخضع للذكر وهو يقتحمها بشراسة، فقلت بأن هذا المفهوم بدائي لا علاقة له بالإنسان المعاصر، وإن المفاهيم قد تبدلت منذ عصور الكهوف والفرسان والصحاري. وإذا تناول لفافة أخرى راح يتحدث عن نفسه وقواه الخارقة في الجنس وضرب المتأمرين في قبو مكتبه. كان في حالة خاصة، ورويداً راح يتشنج ويصرخ ويهدد، وكنت منكشاً أنسحق ألماً عليه. وحاولت تهدئته، ففشلت وراح يهذي: كانت الحياة معه تبدو ضرباً من المحال. تصور رجلاً مشوهاً مرمياً على سرير لا يقوى على النهوض. مضى عليه حوالي ثمانية عشر عاماً هكذا. الأدوية لم تنفع وكل الأطباء عجزوا عن شفائه.

من الخارج انساب صوت النهر، وتحولت الرهبة والمفاجأة إلى حالة من الحزن والشفقة.

ونفض. صب لنفسه كأس نبيذ ثم جرعه دفعة واحدة: كانت هنا بالأمس على هذا السرير. قالت: أنا عذراء يا وائل. انتبه جيداً. عذراء أيها الكلب. ها. ها. وجرع من الزجاجاة.

- أي معنى أن تكون امرأة عذراء. غشاء كخيوط العنكبوت يُمزقُ بطعنة ثم ينهي كل شيء. صمت قليلاً ثم استطرد:

في الصباح دخلت عالم الحرير. تلوت. صرخت آهتها. هاي. مرحباً آلهة مرحباً عذراء. عندما تقتحم غشاء المرأة تحررها. آه لو رأيته بعد ذلك بعد أن فقدت أغلى ما تملك. لماذا لا تشرب. يا... يا... واذا تلفظ بكلمة: إنسان. شعرت أنه ربما استيقظ.

وصب لي: نخب العذاري!

قه الفرح والبوح. قه التعاسة ومضغ اللذة التي تُستعاد الآن. وائل الأسدي موسى بكبريائه وطقوسه، وما يزال يندندن عن امرأة كانت عذراء، بينما أنقوس داخل نفسي كسلحفاة مائية دُوهمت بعيداً عن النهر.

وعاودته حالته من جديد. شرب مزيداً من الخمر وتناول لفافة أخرى، ثم حكى عن اغتصابه هدى ثم ناديا بعد أن كُملتا وتناولتا دخاناً أمريكياً خاصاً. وما بان في وجهه إحساس من ارتكب شراً، سوى أنه مجّ لفافة الحشيش بعصبية ونفثها في الفراغ: هذا كهف إبليس. أعرف أنني شيطان من نوع قد لا تقبله. ماذا بهم ذلك. لقد أردت لك أن تعرف الجانب المظلم من حياتي وبعد ذلك ترفضني أو تقبلي فهذا لن يؤثر على مجرى العالم في رأسي. باقتضاب حاولت أن أشرح له أن هذا ليس جديداً علي، وإن الأمر قد يقربني منه أكثر. فلا يكن أن تنلمس سطوح الأشياء فقط.

وحدثني عن الرغبة في البشر، وأن الإنسان قد يولد بطريقة خاطئة أو مصيبة. المهم أنه يسقط من ذلك الشق القدر ثم ينمو. وفي سن معينة ينسى ولادته. تبدو الحياة مبهجة وفي الإنسان تتوالد اندفاعات. الجسد القوي مشحون بطاقة تريد أن تخرج، ثم الأحلام. المدرسة والبيت يقولان بطريقة أو بأخرى: كان أجدادك عظاماً فتحوا العالم، وتشمخ. كل شيء مبني في الماضي كما ينبغي وعلى أحسن ما يرام، والحاضر استمرار للماضي، والنسل القوي يلد نسلًا قوياً عظيماً. الأجداد زلزلوا أسوار الرومان والفرس، وأنتم خير أمة أخرجت للناس، وقد فضل نبيكم على جميع الأنبياء وكان خاتمهم. إنك ترى جيداً أن الأشياء جاهزة تماماً، كاملة تماماً، نقية كالفضاء الصحو.

- نخب الصحو. رَفَعْنَا كَأْسَيْنَا: نخب العكر. كالطيف العابر

مرّ الصمت. رفّ في فراغ الغرفة كشاهد. كنت أراه الآن بطريقة جديدة، من زاوية كانت مظلمة فيها مضي. كان وجهه الأصفر المهتاج يعطيني إحساساً بالنقاوة الصاعدة من قاع شره الخاص. شره المسوّغ، ربما.

- بعد المرحلة الرومانسية، بعد أن نكون قد دخلنا في راحة الأشياء وطمانيتها: حب. لا مبالاة. فتيات. حرية. خمر. ملذات ساحرة. العالم هادئ ومعشوق حتى الهوس. ما الذي يحدث فجأة؟

وعبر الصمت المنئي لم يكن يسمع إلا نفثاته الأفبونية.

- كنت حالماً في عالم مسحور. في عالم كاذب. كل ما قبل وما أحسست كان فرية كبرى. والعالم محتّل منخور من الجذر. حتى الولادة كانت خديعة لذّة عابرة بين رجل وامرأة. نحن ملوثون بطريقة شيطانية. ناقصون ومشوهون وكل ما تبقى من العمر سيكون تكفيراً ورأباً للصدوع التي لا دخل لنا بها. والله ذلك السادي. يتفرج ويقهقه لجراحنا التي نحاول عبثاً تضييدها. إشرب. إشرب. العالم لا يحتمل مزيداً من الأخران. المهم اغتصاب الفرح من غابة الحزن ولو كره الله. كان النهر مستمراً في هديره، والسماء مرصعة بنجوم بعيدة، وبين لحظة وأخرى تعبر سيارة فيسمع دويها ثم يتلاشى على الطريق الطويل الملتوي.

ويقدر ما كان منتشياً، موغلاً نحو رحم الأشياء، كان موجعاً وتعباً. بدا هذا في عينيه وحركة اليدين. بهدوء استلقى فوق السرير وراح يحرك أصابعه ببطء على سطح الفراش، وعيناه الزائغتان تحاولان عبثاً مطاردة أحاسيسه على جسد السقف. لست أذكر إن كان صاحباً تماماً أم في حالة نصف الصحو عندما همس وهو يتنهد بعمق: آه.. لشد ما أنا شقي.

ثم دخل عالم النوم بارتياح تام.

- ١٠ -

هذا الجدار كقيم لا ينفذ منه الحب. يكفي نفسه بنفسه. والعابرون ظلال غيم تنسحب فوق هذه الأرض، ادراكها يعبر حالة من الغفالة. حالة رجراجة ترتعش بالمستقبل. ييغون خدش جدار التاريخ والتاريخ مظلم وعكر، وهذا الجدار كون خاص أقامته مسافات زمنية عمرها آلاف سنوات النهب والاستلاب والانتهاك والدم الملوّث، فولدت داخله طغياناً من الثأر اللاشعوري الصامت.

ومن جميع الفرسان الذين عبروا تخومها، حلمت بفارس خاص ينسى نفسه قليلاً لينشئها، وبعدها تكون له لحماً ونفساً. وعلى جميع الدروب شاهدت كيف تهوي العبقريات العظيمة في برك الجنس والتوحد الاقليمي.

ولكثرة ما حاول الطامعون اجتياحها، فقدت حسّ الاصطفاء بين الفارس والعبد، بين الشاعر والأمي، بين الثوري والمغامر. ومع الزمن لوحظ أن جميع الأطباء وعلماء النفس عاجزون عن شفائها.

وفي حالات من التأمل الخاص كان يخيل إلي أن مئى تشبه نقطة ثابتة في الفراغ، متحركة في قاع نفسها، تنوس بين العبقرية والعادية، راغبة في قبض العالم وتبديده ثم تكوينه من جديد.

[]

«أشياء كثيرة يمكن البدء بها. فثلاً أنا أقرأ كثيراً في هذه الأيام وأكتب قليلاً وأفكر بطريقة حدسية. بالتحليل والمراقبة يمكن فهم أشياء كثيرة أوعلى الأقل الاطمئنان إلى قناعات احتمالية. إنني أقول لنفسي: أنت تتعلم بطريقة حي بن يقظان.

راني. هل قرأت حي بن يقظان؟ أنا أرى أنه نموذج في الوصول إلى المعرفة. والعرب يمكنهم في هذا الزمن أن يصلوا وجودهم بالعصر بطريقة مماثلة. بالطبع أنا لا أعني اكتشاف الله والتصوف الغيبي السخيف، وإنما اكتشاف نفوسهم في هذا الزمن المحتاح بطريقة عملية. في غيابك وغياب منى أنسلت بمحاولة بحث نفسي وتاريخي عن اثر العربي في الزمن. هل يفرض أم ينبثق من جديد وكيف؟ يخيل إلي بأن ما ينقصه أن يكون صريحاً في مواجهة نفسه بقسوة كقسوة سيفه الحاقد على أخيه. السيف المبضع الذي يخترق الدماطل فيفجرها. هذه اول عملية تطهير. أنا أعرف أن هناك احديداً تاريخياً كونه عصور الاستلاب والخوف والكذب والخيانة والعلاقات المنحرفة والطفيلان والغزو والقمع، ثم هذه الفردية المتوحشة. لقد أودى هذا التشويه المتراكم بفلسطين واسكندرون، وإذا ما استمر فستتحول إلى بقايا من الهنود الحمر.

أفكر كثيراً وبمرارة بجيلنا. الجيل الذي قَدِمَ العالم قبل أوان النضج. الجيل الزائف.

دعني أوضح لك، راجياً أن تفهمني جيداً بلا إدانة: لقد أردت منى وأردت نفسي التي لم تكتمل. نفسي التي ورثت من العصور القديمة نقصها الوجودي والتاريخي، فرجّ بي في تيار التاريخ الذي يحاول أن يتمخض عن ولادة شيء جديد، وأنا نبتة طالعة في أرض هذا الوطن تحتاج ماء وسهلاً وشمساً لتنمو وتقوى وتقوّم. إنني أعتقد أن مشاريع ثورات العرب كوكبتل عجب من الدين والقومية والماركسية المبسطة، والجيل الجديد تائه يمارس أقل من ربع حياته بطريقة طبيعية، وما تبقى يتبدد في السفسطة والاحتجاج السلبي والخمر والنساء والشذوذ، بعيداً عن الماء والشمس والنمو الصحي. دعني أسألك كم من الزمن مضى حتى استطاع خالد أن يكون قائداً لا ينهزم؟ قبله كان عصر عنترة وعروة وثعلبة الشيباني. وفي زمنه كان حمزة وعمر وعلي، أما نحن فن سلالة المستعصم والمتوكل وبني بويه والمالِك والسلطان سليم والملك عبدالله وفاروق وسعود ونوري السعيد وبورقيبة والسراج والكزبري.

إنني أحاول أن أفهم لماذا رفضت منى أن يكون لها نسل وأن يتمتع البشر بنسلها النقي، وإذا اشتبه الأمر عليها يوماً فولدت ميسالينا، راحت تدعوها لتعود إليها، لا لتضمها بذراعيها وتحبها معها، إنما لتعيدها إلى رحمها، إلى وطن الطهر المريمي. أعتقد أنها تؤمن بأن أوان ظهور الإنسان هنا لم يكن قد آن، وأن حالة

الانثاق المباحة قبل النضج، كانت لوثة معاصرة مجنونة ومغامرة. إهانة موجهة لها وللأجيال الثورية التي ستأتي فيما بعد. ولعل هذا يفسر رفضها لنا جميعاً. انني أسأل لماذا الزمن الحاضر قائم خارج العربي، بينما يقيم هو في الماضي؟ ولماذا كل الإرث القديم التالف يتجلى الآن، ومن خلال هذه الموروثات يعمر كل فرد مملكته الخاصة؟ إنك تدري كم نعاني لنظهر بمظهر الأسوياء. أتعلم ماذا قال لي سامر البدوي عندما سأله لماذا تدمر نفسك هكذا؟

قال: هناك طريقتان لا بد لجيلنا من سلوك أحدهما احتجاجاً على هذا العصر الملائث: التمل والنساء حتى العمى، أو الانتحار. لم أعقب رغم إدراكي الأكيد للطريق التي تمتد بينهما. الطريق التي حابى عنها سامر وسائر الأصدقاء المطمثون، بعد أن سحرتهم مدة الإقامة في مدينة منى، فطابوا نفساً وقرّوا عيناً بالسلطة والويسكي والضوضاء ومنازل الحُور العين. إنني أكتب إليك بعد زمن طويل من الانقطاع، أنت الذي تحيا على شواطئ بيروت وفي أروقة وباحات الجامعة الأمريكية.

تمر لماماً على «العمّ سام» و«الهورس شو» فتلتقي بقوافل المثقفين وتثرثرون عن أحوال مدينتنا الثائرة، في حين ما أزال أزرع شوارع دمشق ليلاً، ماراً بكل الدروب التي خطونا فوقها، صاحياً حيناً، ثملاً أحياناً، وحزيناً في حالتي التمل والصحو. إنني أتساءل: كيف يُمكن أن يحمل الإنسان كل هموم هذا العالم المضطرب داخل نفسه ولا يُجن؟!

ألا يدعو هذا إلى الدهشة وعقد اللسان؟ لا شك أن هناك طبقة ثالثة تحت اللاشعور لما تُكتشف بعد، وفي هذه الطبقة ربما تسكن حقيقة هؤلاء العرب بحجم آلامهم ونفوسهم التعيسة التي دُثرت وتناثرت شظايا. أشعر الآن بالارتعاد وأنا أطل على تلك الساحة القصية. لكن ما ينبغي الإصرار عليه هو المزيد من محاولات اكتشاف الزوايا الميتة - الحية في الإنسان. هل نعتقد أن هذا تبرير خائف حتى لا أقدم على عمل حاسم؟

رحلت يوماً مع منى إلى البحر في حلم يقظة. كان هناك ناس بدت أنها مرتبطة بهم هي التي تعرف أنها لم تنتم يوماً إلا لنفسها. لم نصل إلى قرار حول الزواج أو الهرب. عرضت عليها الهجرة إلى الجبال والغابات لنبدأ من جديد. هزئت مني قائلة: أنت مغامر رومانسي. فاكفيت بالصمت والسباحة وتأمل جسدك

بسرعة. وأنا مستلق على سطح النوم تذكرت أنها كانت قريبة مني منذ لحظات
وفجأة استدركت أنني لا أعرف أين هي الآن!

اللائء تحت الشمس، ثم تظاهرت أمام الآخرين أنني سوي وعاقل، وفيما بعد
اعتذرت عن خطئي واندفاعي الأهوج.

حنيني الدائم إلى الريف والجبال يزداد ويقوى، بعد أن كشفت لزوجة
الأشياء وحجومات الدفء اليومية هنا، والأكاذيب. دمشق مدينة ممسوسة والأصدقاء
ينزلون يوماً إثر يوم. تلاشى من نفوسهم حيثيات الحراة، والمستقبل يلوح عاتماً
وغامضاً، ويبدو أن الإبحار قد توقف إلى ما بعد هذه الجزيرة المريحة، المفروشة
بالبروكار والموسلين وطنافس الملك.

تعرفت على وائل الأسدي: ضابط قوي البنية شوّه أبوه في حرب الـ ٤٨ بعد
أن هاجروا من اسكندرون. يملك سيارة فارغة يصطاد بها النساء بسهولة. إنه حالة
خاصة: مزيج من الجنون السادي والعبقرية والتدبر الفردي. إنسان عصائي. منى
تقول الشعر أو قل إنها تعلمه. لغتها الشعرية فجّة. غير أنها عبر كلمات لا شعورية
متناثرة، تحاول أن تعبر عن الخلل الكوني فيها وفي الإنسان منذ حدث السقوط.
في كلماتها الفطرية نزوع مستمر نحو الأعلى. إن مفرداتها تتحدث عن النجوم والغيث
والشمس بوجدانية متطهرة، وفي تعابيرها تستعمل البحار الزرق والجزر المهجورة
والغابات والجحيم والمطهر المسيحي. يخيل إلي أنها دون أن تدري، تحاول أن ترثي
من خلال نفسها الجنس البشري الذي هوى من قبة اخلاقيته فوق أرض معفرة
بالغبار والدم والإثم. إنها تبدو لي عالمة قائمين على أرض واحدة: حياة خاصة
ملوثة، منهوبة، منحطة. ثم حياة تتجلى في شعر تطهيري معاكس للتلوث يحاول
الإنباء عن أعماقها النقية، ومن ذلك الداخل تنتحب على نفسها وعلى البشر الذين
أصابهم ذل بلا حدود.

لم يعد لديها ثقة بالناس الذين مرّوا في حياتها فأحدثوا لها جراحاً لا تندمل.
انتهت الثثرة عن منى، غير أن ما لم ينته بعد، ذلك الخيط الذي يكرّ باتجاه
كشوفات جديدة. أعتقد أنه سينقطع عما قريب عندما يداهمني الملل يوماً والشعور
بلا جدوى كل ما وصلت إليه. ولكن هل وصلت إلى شيء. هل اقتربت
من النسوغ؟

«سلاماً أيتها العزيز الذي يعيش خارج عالمنا المتهم. اكتب متى أردت». .
أحسست بتعب نفسي مُضِن بعد أن أنهيت الرسالة فتمددت على الفراش،
لم تكن لدي القدرة على التفكير بشيء، حتى منى عبر اسمها في ذهني ثم انطفأ

مدنكم. يحكمكم أعواماً فتلدون من نسله. يطهركم فيكون لذريته دوي في طول الأرض وعرضها. ذرية مباركة، في دمها الخمر والنساء والمكابرة والقتل وهجير الصحارى. ومن أجل أن يكون ذلك حقيقياً هأنذا أفصد دمه فوق هذه الصخور. أمّر لحمه على الشوك والرمال الحارة كي يكون صلباً قوياً لا يهاب».

وفي البيت كنا وحيدين. وكان هناك الفراغ والتوجس. وسوسني إحساس أنها خائفة مني. بدا ذلك في ارتعاشة يدها على مقبض المكواة وفي دعر عينيها الوعلتين الوجفتين. ورغم إحساسي الشفاف نحوها، حاولت أن أوازن بين مشاعري وهذا الوجف المهتر.

كانت تتحرك في غرفة ضيقة، وثوبها الداخلي يحفّ بي أثناء غدوها. وفي تلك الليلة تبدى جسدها تحت قبض النوم في قة إهماله، لكنه كان شهياً كما ينبغي تحت رغبتي. وأنا أتملاها سفني الحزن. مَرّت ريح الخيانة فوق سهوب نفسي محملة بالأذى والندم المتوقع وقلت: هذه السمكة العالقة في شص. وما كان مثلها بين النساء في ستر أحزانها. وإذ بحث لها بذلك ابتسمت بمرارة من تخاف الاغتصاب بعد لحظات: الحزن يرسو في الأعماق. لا يُباح به.

وحدثتها عن الشرق المبحر نحو هويته الضائعة، وكيف يعيش الناس أعمارهم في النسيان واللاشعور خارج الزمن الحقيقي المخصص للجسد والنفس، وانهم لا يدركون كثيراً المعنى الكبير لوجودهم، ومن كثرة ما انهمر الدهر التحريمي عليهم ناموا تحت وطأة الزمن والمصالحة. وإذ يسأل أحدهم: لماذا أنت هكذا ولست نفسك؟ يجيب: جميع الناس هكذا!!

[]

ديانا عالم سكوفي باهت. بحيرة منسية في غابات عذراء. اعتادت الصباح والطعام والتبرج والأماسي الباردة. وبفعل الطنين اليومي هدأت فنسيت من تكون. في الأيام الأولى من تعارفنا بدا كل شيء عادياً بارداً خلا جسدها الجميل الذي يشبه حجراً من رخام يلمع تحت البصر النافذ. فيما بعد أذكر أن سامر البدوي حدثني عنها يوماً بطريقة مؤذية، اشتهاها كنموذج لجسد شرقي غريب عن دمشق.

يومها قال عن جسمها: أنه إلهي في تكوينه. وقلت مغیظاً: أيشتي الإنسان صفيحة من البرونز؟

- ١١ -

هذه أزمنة الغربية؟ ربما. أزمنة الجنون؟ ربما. لكنها أزمنة الذكري قطعاً. ليل. موسيقى من الصمت والوحشة. نساء عرايا في برار موحشة. للأرض طعم خاص ولجسد المرأة فوق التراب الحار رائحة الوطن، ولرائحة جسد المرأة رائحة التراب.

في ظلمة الليل تنثني فوق الجسد الأخضر، على الأرض الخضراء فتحس مجد العالم، وأنتك والإله في مرتبة واحدة. هنا في هذه الأقاصي بعيداً عن الناس، يحملك الحلم. وحيداً ولا من يراك. وأنت ترى نفسك، هذه التواقة للتمدد في بحر مطلقها الشخصي، والجسد جامع يود أن يتفتح بازدهار لا حدود له في غابات الجسد العظيم. وقربك جسد مسي يلوب عن حب. جسد مهجور منذ عصور أجدادك الدينين، والإثم ليس أكثر من خرافة نسبية عنكب الزمن عليها داخل كهف هُجر هو الآخر منذ أعوام ما عدت تذكرها. منى تقول: إذا لم يتحرر الجسد فالروح سجين حتى آخر الدهر.

مزيداً من الحزن. مزيداً من الحرام. مزيداً من لفقة البحث.

وتسأل نفسك لماذا يتم الجنس هنا كما يتم القتل في الغرف السرية؟ ولماذا المرأة الدمشقية تطلب أكثر من عشيق، تباهي بهم في محافلها الخاصة ثم تقول: هذا الذي انقرض كان عشيقى؟!.

هوذا العشيق الجديد يأتي. راع محروق بالشمس والتعب. مولود من شهوة رجل ثمل كان يصلي الأوقات الخمسة وصلاة التراويح أيضاً.

«سميته الشبل وأنا أبوه. درت أزقة القرية وأنا أنادي: يا قوم هوذا الخارج من ضلعي ينمو ويتألم. يصير رجلاً بعد شقاء مرير. يخرج علي ويلعني في آخر الزمن لأنني أصير في عينيه عتيقاً بالياً. يهجر باديته ووحل أزقه، ويتقدم نحو

- هذه امرأة حقيقية أيها الخنزير. أنت فاقد لحاسة الشم الحارة. وفي مرات كثيرة حاولت أن أبوح لديانا. أن أقول لها ماذا تعني بالنسبة لي بطريقة صحيحة بعيدة عن الخيانة، لكن مسرور كان يتصب بيننا كجدار مهدم عاجز عن تحمل أية صدمة جديدة.

ورغم ما كان يبدو في سلوكها وكلماتها من انطلاق، كنت أنصوّر أنها موثقة ومحصنة، لا بالشرف الأصيل الناتج من أعماقها، إنما بالخوف التاريخي الذي ورثته من المعاشرة والاستهلاك الأخلاقي السائر للخيانة الداخلية.

كان بودي أن أحدثها يوماً عن الامتلاك النفسي، هذا الذي يتم أحياناً بين امرأة ورجل لا يتواصلان فيكون الآخر هو البديل في لحظة الواقعة الحسية، أو يحدث من خلال نظرات حادة في المسافة الواقعة بين البصر والبصر، أو بالتصورات عندما يذكر اسم الرجل المشتبه في الداخل وتحضر صورته في الذهن. كان يخيل إلي أن تلك المصارحة مهمة جداً في عملية الشفاء التي نحتاجها جميعاً، لكن ما كان يخيفني لدرجة الازدراء، اعتقادها بأن ذلك ليس أكثر من تمهيد لامتلاكها حسيّاً.

ولما طلبت مني البقاء في البيت، خمنت أن خوفها بدأ يتبدد. أحسست بالخرج وانني ربما كنت مخطئاً.

وتساءلت: أليكون مسرور قد خُذع للمرة الثانية؟

كانت عيناها تشعان ببريق خاص، وهي ما تزال تكوي الثياب تحت ضوء ساطع، وأنا أتكى على الخوان أدخن وأراقبها. لا أدري كيف تخيلتها فوق سرير مريح، أو في بركة موحشة تحت المطر والصمت واصدء الفراغ البدائي. وكيف تسلت نحو خوفها المترج بالرجاء ثم نحو عالمها اللفّع بالليالي الباردة. كانت هناك على مسافة أمتار من الفرج، محرومة ككل نساء الشرق تشبه آنية من خزف فوق رف منسي.

وبقيت. شربت كأساً ثالثة. طلبت موسيقى. وكانت تروح ونجي. زنداها عاريان حتى الإبط، وتحت إبطها شعر خفيف. تمثلها ذهني خائفة، متشبهة، مسكونة بفرح مجهول. من تحت إبطها تفوح رائحة خاصة توحى بالعري واللذة. الموسيقى تصدح. هي الأخرى لها رائحة. ساقاها المرمرتان تشعان تحت الضوء. تحت القمر والريح. تنفج شفتاها فتوشك السفلى على المطول. أسنانها في لون

الثلج. قبص زهري شفاف تحته جسد مني خلقه الله ليكون تاج الرجل وزاده في ساعات الضيق. هوذا وحيد متروك للريح والغفوة. لم يستيقظ بعد لأن الرجل الذي يفتح كل مساءه لم يأت بعد. ولأن الرجل الذي يجي عليه أن يفتح النفس قبل الجسد.

«وها هوذا الرجل الذي يهب الاطمئنان، ممدد هناك، بشرب ويدخن ويحس بي. وأنا هنا في العالم الذي حلمت به منذ الطفولة وهذا الرجل على بعد متر واحد. ما عاد غريباً كما كان يوم دخل البيت، وما عاد وجهه المتنع يوحى بالخراب. يا إلهي كيف تتبدل الأشياء بمثل هذه السرعة. الأشياء أم النفس؟ هل الزمن في الخارج أم فينا. أهو مطلق أم نسبي؟

وهو هناك بعينه الوحشيتين ولا مبالاة.

قال يوماً: المرأة وطن الرجل. لكن كيف تتعري امرأة لرجل غريب؟ هل قلت: غريب؟

ولكنني لا أرغب الرجال. المداعبة فقط. وفي تاريخ الشرق لم يحدث أن تقدمت امرأة من رجل تحبه وقبلته في البدء. لكنه هنا أكاد ألامسه. أشعر بنظراته تعريني. ساقاه ملفوفتان وصدره مفتوح وشفته محروقتان بلفح شمسي. إن صدره يعلو ويهبط. ينهض. يتقدم مني ويمد ذراعيه. كياني كله يهتز وجسده يلامس جسدي. نرقص. يتحرك بي بخنان. مسحورة، محمولة على جناح غيمة وأنا مفعمة برائحته. يضمني ثم يلقي رأسه على كتفي. أغيب في عالم مسحور. في عالم طفولي يزدهر بالحنان والعذوبة والألوان. أغمض عيني حتى لا أفيق من حلمي. بهدوء يسحبني نحو الممر. أشعر بذراعيه تضغطان جسدي. أنامله تسري على ذراعي. آه. غبطة. شمس تشرق علي. أنفاسه تلفح وجهي لتغفو فوق شفتي. أية حرارة تشيل في شتاء جسدي. فجأة ندخل في الظلمة. أنامله تهوي إلى الأسفل. يهمس: خصص الله للخلق ستة أيام واليوم السابع خصصه من أجل ساقيك. أسمع أنين السرير فأفتح عيني. غرفتنا. لا.. وأندفع من الحجرة.

- الا تؤمن بشيء اسمه القدر؟

- أؤمن بشيء اسمه أنت.

- وهل انا القدر؟

- أجل. اسمعي هذه الحكاية: يوم وزع الله حصص الأرض على الناس كنتُ غائبا. ولما عدتُ توصلت اليه ان يعطيني شيئا أعوض به عن غيبي. سألتني أين كنت يوم التوزيع؟ فقلت كنت مسافرا. وسألتني ان كنت قد صليت وذكرته خلال سفري فقلت: كادت عيوني تعمى من السهر وركبتي تَمَحَيان من كثرة ما سجدت.

ارتاح وقال: ايها الغريب لقد ذكرتني وانا لم انسك ايضا. فאלله لا ينسى عباده الصالحين. هي ذي امرأة جميلة وحزينة كانت مذبذبة فعاقبتها برجل شرير. اني امنحها لك فانعم معها ولتنعم معك. عيشا بمسرة ولا تسبب لها حزنا. هي من خاصتي ولا أريد لها غمّا.

- انتهت الحكاية؟

- انتهت.

اشرق وجهها بفرح تهلل له جسدها.

طوقني عندما دخلت الطمأنينة قلبها، فانجابت غمها. سألتني: ما نعمله اذن بإرادة الله؟

قلت: أجل انه مقدر علينا منذ بدء الخليقة وليس شرا يا عزيزتي أمينة. فاجأنتني: يوه. كم انت خبيث وملعون.

□

حدود التوق البشري هل لها نهاية؟ والمدينة التي سحرت الجميع في غفلة من الزمن من خلقها وكيف؟

الليل. الضمير المستتر لدمشق، ثم هذا الموت البطيء داخل حياة التبت حتى على الذين يملكون ذاكرة كالبرق. أية روائح تدخل مسام الجلد والنفس فتستوطن هناك. تصير ماضيا حينا. وحينا آخر تنبثق كالرعد.

ولما طُويتُ مني في ملفات الأرشيف التاريخي ظهرت هذه المخلوقات الغريبة كبثور فوق سطح الجلد.

- جميع النساء اللواتي عرفت كنّ مشوهات.

دُهِشت. فتحت فاهها مستنكرة: انا مشوهة؟!!

- ١٢ -

من البيت إلى الوظيفة ثم العكس. استيقاظ وقهوة وثرثرات. حركات عشوائية وظلال باهتة من الضجر. حياة العربي تشبه الحياة لكنها تسير بقوانين العطالة. يحلم ويعيش في المطلق. يتخيل أنه يُنجز، لكن الزمن يعبر قربه ويمضي. يقتله دون أن يشعر ويمضي. تماما كما تعبر منى في رحم دمشق وتظل دمشق عاقرا. ومع الزمن تُخصى الأحاسيس. ترتخي حيوات الناس في هذا السجن الزمني الغارق في حلقة العصور. أردت الخروج من جلود البشر، من جلد الأيام الضجرة ومن العجز بعد أن فقدت منى، فاصطدمت بأمنية. وبكل ما ادخر هذا العربي المنك من ضغط تواريقه وتوقه للتفريغ، حاولتُ أن أتوازن معها، غير أن الصدع توضح أخيرا وبدأت لي كلمة تطهير كإعادة بزة للإنسان المشروخ منذ آلاف السنوات، لغزا في ضمير اللغة، ربما يحتاج آلاف السنوات أيضا حتى يُفهم معناه. ولوقلت لأمنية أنني أشفى على تخوم جسدك لأنطلق بعد ذلك إلى الصحة والحركة التي توقفت منذ التار والأترار والممالك، لكنت اللغة التي أُنحَدِثُها هيروغليفية جديدة.

أواه. كم أحس بحاجة إلى لغة.

لهذا ظللنا مصدعين: هي تسرد تاريخها الشخصي المُصاب، وأنا أرى جسدها يجموع حيوان لم يشع منذ وُلد.

كانت تشعر أبدا أنها تخون، في حين أحس بشيء من الحرية وأنا أرتع في سهول جسمها النامي.

وعندما كانت تسألني: متى نمارس ذلك بحرية وحلال دونما خوف؟ اجيبها: مانفعله طبيعي. وما هو مهمّ فرح اللحظة.

تأوه وهي تعانقني كأُم عاشقة: لماذا لم ألتق بك في صباي؟ آه. كم انا نعيسة. قدرني هكذا!

- عدنا الى القدر!

- على ما يبدو.

بعد ان توقفت يدها عن الكي ، عادت الى فرد الثياب ولَمَّها . فجأة خطر لي ازعاجها باختبار سطحي : هل تدركين ان شفتيك شهيتان ؟

- صحيح ؟

- وان عينيك تلمعان كعيني قطرة بركة ؟

- في صغري كانوا يسموني القطرة .

- وان جسدك متناسق ؟

- تمنيت يوما ان ادخل مسابقة للمكات الجمال .

- ولكنك معطوبة من الداخل !

فاجأتها الجملة كمن طُعنَ في غفلة ، فاهتزت يدها القابضة على المكواة ، ثم ضغطت بعنف على ياقة قبص مسرور ، ولم تجب .

ويقول ايوب السرحان وهو يحتسي خمرته : لم يبق لي صديق يا أخي . الأصدقاء الذين جثت بهم الى بيتي نهشوني بعد ان شربوا خمري وأكلوا طعامي . سألت امينة يوما : هل تخيبيني ؟ فقالت أحب ابنتي وانا اريد مالي الذي هدرته على الخمر . عشرون سنة وانا اجهد من اجلها . بعث رزقي وبيوتي وحفرت الأرض كفلاح لكي تظل امرأة في مستوى لائق بنا . من ورأي جنت آلاف الليرات وخباتها عني . وذات مرة احتجت بعض المال فطلبت منها فنعتة وهكذا وقعت في الديون والخمر . المرأة ابليس اياك ان تأمنها . في البدء تظهر لك ، ولما تحصل عليها تصير افعى . تمتصك يوما اثر يوم ثم ترميك كالنفاية . هؤلاء نساء بلدنا .

وراح يكحّ على نحو يوحي بالاحتضار ، بينا آنية القهوة ترتعش تحت تأثير سعاله المتواصل . واصل مواظمه عن المرأة التي بدللها الرجل فتمنطيه . وقال بأن الرجل الحقيقي من يشعر بانه سيد والمرأة عبد . المرأة هنا لا تحب الا نفسها وثيابها واثاثها ومن خلال هذه الأشياء ترى الرجل : المرأة شر اقول لك الصدق . اياك ان تصدق ان آدم خلقها من ضلعه . حاشا . لقد خرجت اليه من وكر في جذع شجرة بزّي ملاك ولما امتلكته عادت الى طبيعتها الأصلية .

وهجست النفس : لكنك تنسى ذلك وهي تمنحك اللذة وانت تتلوى فوق سفوح جسمها الأملس . بغتة تذكرت أي جسد آخر يتلوى فوقه أيوب البائس ،

فقلت : المرأة مخلوق ناقص ومغبون تحتاج حنانا ورعاية . فقال ايوب : انت لم تجرب بعد . عندما تتزوج ستتذكر كلامي .

بحرقة يحكي ايوب السرحان . لقد هدمته امرأة . لكنه يحكي كذلك الذي هوى في قبره والذي كان يقول : واذا القلوب تنافرت عن بعضها كالزجاج كسره لا يُجبر . احفظ ذلك .

وأقول : لماذا تريد ان تورثني فلسفتك وخيالك ؟ الا يكفيك أنك مت ؟ لماذا تأتيني ابدأ في هذه الكوايس محمولاً مضمداً وفي عينيك تهمة ؟

دائماً كان يتحدث بالتياغ عن امي وعن الحروب القادمة . حروب العرب واليهود : منذ دخل الاسلام جزيرة العرب وهم يكيّدون له . كان الرسول على حق يوم حاصر بني قريظة وذبحهم . كان علي سيف الاسلام في خيبر . وذات مساء في تلك الخيمة القائمة بين المروج قرب البحر قال : امك ملعونة لا تختلف عن هند التي لاكت كبد حمزة بن عبد المطلب .

- لكن محمداً تزوج من يهودية . كثير منهم دخل الاسلام وأعملوا السيف في اعدائه . لقد انتهت حروب الأديان وابتدأت حروب أخرى . «أني أيها الذي مت ، انت اعمى في القرن العشرين» .

لا يريد ان يصمت ايوب المتهدم . كل الجدران سقطت من حوله وها هو يترنح في الريح ، متكئا على غلاف خَلْقٍ ينسجه من ماضيه . بقرة عجوز تجتر ما مضته في غروب شمس .

متى يفهم ايوب السرحان ان هذا الزمن الذي ينعطف بجنونه المبرق ، قد اختطف روحه وانه ليس بالحَي ؟

المتوئب. خائف من السكينة لأن السكينة تعني الموت. بعين ذئب ينام وبالأخرى
يرصد وحش الموت الكهين.

- انا مبتل بجسدي.
- يجسدك أم بتاريخك ؟
- ماعلاقة التاريخ بالموضوع ؟
- اعني الارث الناقص.

- ١٣ -

تحت شجرة صنوبر في حديقة المزرعة، نرتمي. في السماء الربيعية قر دمشق
مضيء يشبه وجه منى. يتحرك مثاراً فيزفر: كنت جميلاً في صغري. قالت لي
امرأة يوما وعمري لا يتجاوز الرابعة عشرة: ابن الحرام ما أجملك. حتى أختك
تستهيك. آه لو أنجيت منك ولدأ. بعد عامين لقيتها في البادية وكنت أتلهى بمطاردة
الحشرات. آه. يا الهي اية افراح وحشية شعرت بها آنذاك. استمر ذلك طويلاً
داخل كهف عام. انني اذكر كيف كانت تعض لحمي وهي تتلوى كأفعوان بين
يدي. امرأة قاسية شهوانية لا تشبع. كان يدخن بجمرة تلك اللحظات. وهياً له
الصمت والهدوء الليلي الرطب حالة انسياب، فبدا وهو مستلق فوق العشب كأنما
يتمدد فوق كرسي التحليل. يتحدث عن طفولته وابيه القاسي: كان اميراً ذا
سطوة. لم يكن يجني. سماني الخارج وكنت اشبهه. كان يضرب امي لانها تحبني
وتحميني منه. مذ سمعت اول كلمة اعجاب اصابني زهو. يا أخي كلمة اطراء
تسمعها من فم امرأة تضاهي لبتراً من الويسكي. كان عملاقاً بين الرجال، له
وجه مسكوب فيه ضوء القمر. لم يكن يملّ من النظر الى وجهه في المرأة. اغرب
حادثة عنه انه كان يعيش التحديق في يديه. يمررها امام عينيه ويفرج على اصابعه
لمدة طويلة. يا الهي اي معنى لهذا الحديث. لماذا اتحدث هكذا ؟ الانسان حالة
غريبة في هذا العالم. لغز. ويمر صمت. لحظة من التوجس والطبيعة ساكنة.
لا ربح، لا حركة. ضوء القمر ناصع فوق الأعشاب، وفوق وجهه الأبيض،
والندى يتألق تحت الأشعة. ويستمر: آه. هو العمر يمضي. الزمن هذا الحيوان
المفترس. انظر الى نفسي وانا على مشارف الأربعين فأكاد أصعق. تتابني حالة
جنون داخلي. ماذا صنعت خلال تلك السنوات المديدة ؟ هل يمكن ان اكون انا
قبل عشرين عاماً ؟ لا بد أن الانسان حشرة لا قيمة لها.

ويصق بقهر.

صمت آخر او هو الصمت يتناسخ. متكئ على جذع شجرة. عينا

كمنى ابحت عن حب. عن مغامرة لم تخطر ببال بشري. عن امرأة تحب
حتى الموت وتكره متى تشاء. تسمع صوت الزمن فتجيء. وتحس توقفه. فتدير. تسير
عارية القدمين، هاربة من مدائن المستنقعات والكذب والأثواب المزركشة. معا نحو
البراري. ننام على تخوم المدينة، في الخرائب المهجورة، وتحت شمس الضحى.
نبي بيتاً من الحطب القاسي وننام عرايا فوق التراب الحار؛ نتعاقق لدرجة الحلول،
واذ تضجر مني تهجرني وبعد حين تعود. تثوي في دمي. ننشد اشعاراً واغنيات مع
الفلاحين الفقراء والعمّال والصيادين. نبكي ونضحك. نفعل الجنس في الحدائق
وعلى شواطئ البحار. في كل مكان نرسو فيه نلد نسلأ قوياً كالصخور ساطعاً
كالشمس، يصلي للعمل والحرية والشعر، ولا ينسى. واذا نموت بعد ذلك، نموت
بلا ندم.

سامر البدوي الوحيد الذي عرف سر الزمن واكتشف الكذب والأخيلة.

قال للطيف الموهمة في سماء العرب: الى الجحيم !

ووحده أدرك سر المدينة المسحورة، المصابة، ففرق في ضلوعها وفي شرايينها
حتى وصل النسخ. لقد اختار الوجد الحسي حتى التلف. عنه لو سألت أي
انسان: اين ألقاه ؟ لأجابه: في الخسارة او في بيت امرأة.

وفجأة تكتشف انه متزوج منذ اكثر من خمسة عشر عاماً. زوجته امرأة
دميمة من فرط حبها لها سماها: الخفاش. غير أن ذلك لم يكن يبدل من المأساة
شيئاً. ففي اخريات الليل فقط، كان يعود لينام في فندق زوجته بعد ان يعيا من
الدوار.

عالمه فلك يدور. يسلمه زمن الى زمن، ومكان الى مكان، بحثاً عن أصله
المفقود عبر سرايب التاريخ، وكل زمن، كل مكان يرتقي فيه يعتقد انه هو الزمان
والمكان المطلوب. انه يرتاح هنا، والولد الضال تائه داخل نفسه، داخل حسه

رأسيتان فوق صفحة وجهه المغضن، راثياً لجسده المكوم فوق عشب الحديقة.
الجسد الذي صعقه فأضاع صواب الثورة في نفسه.
- ضاعت فلسطين وما نحن نضيع. آه. العربي يسحقه القهر دون ان يستطيع
فعل شيء مالنفسه.

أي ذبول هذا الذي يتم تحت الشمس. نساء. خمر. كلمات فارغة ودوار
والعمر يتقوض. يهرم الجسد لكن الروح اقوى من الآلهة: عندما يضيق الجسد
بالروح الفتية!
ويقوم سامقاً عريضاً كشجرة سنديان، ضجراً مني ومن نفسه ومن السكون
الذي خانه.

نثب عن الحاجز الحديدي: انظر لقد وثبنا بخفة الفهود.
في الشارع الخالي يدندن ترنيمة بدوية مفعمة بالحنين والكآبة.
نهضت وفي نفسي رغبة ثقيلها. امسكت زندها العاري وهممت أمرغ شفتي
عليه. رمقتني عيناها عتاباً ممزوجاً بخوف، ثم سحبت يدها: لا ينبغي ان يحدث
ذلك.

من باب الغرفة مرقت كسهم وفي فمي مرارة. أرتجت الباب ثم أسلمت ساقى
للسوارع المعتمة.
مشيت. مشيت. دخنت وترنحت. ومن اقرب حانة تناولت خمرأ. ثم مضيت
فوق الخطوات القديمة.

- ١٤ -

جيل ملتهب. ينشوق قبض العالم. يسأل محاله الذي لا يُطال: لماذا ولدت
هنا على هذه الأرض الناقصة في عصر يكبح رغائب الانسان الجماعية كالمهور في
فجر فتوتها؟

وفي دمه يسري الزمن القديم جنباً الى جنب مع الزمن الذي يريد: زمن
المستقبل. وفي الأجيال التي اختلطت عليها الانقلابات والثورات ولدت محاولة
التوازن حالة انكسار تاريخي لا يُجبر. ومن الفرد الى الجماعة يمتد خط من
الاخلاص قرب خط من الكذب والخوف والمساومة والتنازلات المستمرة. بينهما
سُحقت منى.

- لكن انسان هذه الأرض معرض للاندثار. اقول لراني.

ويقول: أريد ان احيا. هذا عصر النموذج.

- انت لا تؤمن بالفدية؟

- أي سؤال غبي هذا. انك تفكر كقائد سياسي احياناً.

- لماذا لا تقول كجريح ومغتصب.

- هذه مرحلة تاريخية نحن مهزومون فيها لا محالة. كل ما فيها ينسئ بذلك.

- هل توقن فعلاً بالهزيمة؟

- أيقنت ام لم توقن فالتاريخ يقول هذا.

- انك تتحدث عن الحتمية وانت قلت انك ضد الحتمية التاريخية.

- انني اتحدث عن التكامل. عن الجيل الذي لم يبلغ بعد. الزمن الذي لم

نصل فيه الى حالة النمو الصحي. على نحو فاجعي سنندثر وحياتنا هذه تحمل جرثوم

الموت. ربما تكون تمهيداً للزمن الحقيقي، فأنا أؤمن بصراع الأجيال كما قلت

لك، اما الآن فنحن في الترع، ولا ينقصنا الا طلفة الرحمة.

- والحالة الثورية؟

- هل الحالة الثورية أن نشب فوق الزمن ؟ هراء. هذه حماقة. مكابرة سخيفة. نحن جيل يعيش بماضيه ولم يصل جيل الحاضر والمستقبل بعد.
- متى تعتقد انه يصل ؟

- بعد ان تكتمل عصور الانحطاط وتندثر. هذا النقص في فهم الحرية والانسان. هذه الحياة القبلية الدينية ماذا تعني ؟ الانسان هنا لما يتطهر بعد من موروثة الطوطمي.

- لكن الثورة حالة جديدة تغير العالم. رجّة تاريخية تزلزل سكونية الزمن.
- بالعنف. انظر ماذا يحدث. جيل استلم التغيير يغازل رجال الدين والتجار والبورجوازية. غارق في الانتهازية والسلطة والامتيازات والتقسيمات القبلية. هؤلاء من اين خرجوا ؟ أليسوا منا ؟ انهم يتعثرون لانهم جاؤوا قبل الوقت. في دماهم قرون من النقص التاريخي والنفسي ولهذا فهم عاجزون عن تنفيذ مهام الثورة. انا وانت عاجزان ايضا. جيلنا جيل موسوم ومنحط. جيل خرع. هذا يقيني.

وهو يتحدث بألم أشعر بضغط. يكاد رأسي ينفجر. أحرك رأسي الموجوع واتمنى ان يصمت راني أكاد أقول: لا تقل ذلك.

- هذا مفزع وموئس. انه يعني النهاية.

يهزأ من كلامي: هيا الى اميتك يا عزيزي. هيا. هناك تنام الثورة ! شعور قائم يغلف الدنيا. احساس من رُمي في بركة وحيداً وغُودِرَ. يسمق الحصار فأوشك على الصراخ في محاولة للخروج من هذا التيه. من هذا السجن: اصحيح ان كون الانسان هنا معطوب الى هذه الدرجة ؟

وكمن ينحت باظافره صخراً من صوان، احاول ان امد جسراً مع منى. هذه التي لُصّت في ماضي وحاضر الزمن.

لكن محاولاتي كانت تبوء بفشل متواصل.

اقول لها: ليس جميع الناس سلسلة مكونة الحلقات بطريقة فيزيائية.

تقول: كلكم يشتهي ويقتل. يضاجع ويغتصب ويحقد. يطمع ويكذب ويريد نفسه.

اقول: حتى هذا يختلف من انسان لآخر.

تقول: جميعا. كلكم يشتهي ويرغب النوم معي. تأكلون لحوم بعضكم بعضا ثم تقتلون باسمي كذابا.

اقول: ولكن. منى انا اريد ان اغني لك في الغابات والأودية حيث لا حقد ولا كذب ولا تلوث وحيث للموت معناه. حيث الأشياء تولد بمجدية مبرأة.

تقول: سننحدر يوماً الى المدن ويعود الكذب والتلوث والاقتتال والخدائع: أسير في الشوارع. ادندن اغنية. يتتابني غم وانا ألمح كنّاس الشوارع والحارس الليلي وصبي المخبز: الناس البسطاء الذين يقومون باعمالهم، ثم ينامون سعداء، ولا شيء آخر.

في العطفة الثالثة من الشارع تكون غرفتي. افتح الباب واعبر الصالون. تفج رائحة الرطوبة والوحشة. في العتم أرتدي منامي وعلى السرير استلقي كحيوان انهكه المسير. جميع ما مرّ، حتى الماضي البعيد يعبر سريعاً، مقتضباً، مشوشاً.

[]

لم يحبيه احد. حتى اخوته كرهوه ونهبوا رزقه، وحتى زوجته بغضته لصراخته. كان كريماً، وفي الحق لا يخاف لومة لائم. من طلوع الفجر حتى مغيبه كان يضرب في الأرض. صار بينه وبينها حلول وعشق، وقبل ان يموت أوصى الا تُباع ذرة تراب منها.

كان يقول: الانسان من الأرض والأرض من الانسان. دمه وعظمه وعرقه تغلّ في اعماقها فكيف يبيع الانسان دمه. انظر يابني الى لونها الا يشبه لون دماء الانسان ؟

وكان يصلي لله وللمطر وللماوسم، وفي أواخر الليل عندما يبدأ الكون وينتهي العمل في الأرض يستلقي في الخيمة، ويروح ينشد أشعاراً لابن الفارض والمكزون ومتجب الدين العاني وأبي نواس، ويحكى قصصاً اسطورية غامضة عن الأولياء وأهل التقى والمتصوفة. هؤلاء الذين كان يقول عنهم انهم يمتلكون إشراقات خاصة، ترى ما لا يراه البشر العاديون الغارقون في جشع الدنيا وسفالتها. قدراتهم تفوق قدرات البشر لكنها دون قدرة الله. يستشفون المستقبل لأنهم الصفوة المختارة. لقد شفت نفوسهم يابني وخلصت من كل دنس. تطهروا بالتأمل العميق في الكون فانفصلوا عن تفاهات البشر ودناءاتهم، فاقتربوا بذلك من الباري تعالى حتى صاروا أحبّاءه.

واذ يسأله: ألم يكونوا يعملون ؟ كان يجيب بانهم انصرفوا الى المعرفة وطرق

الوصول. عافوا الدنيا بكل مغرياتها فانتصروا على رغباتهم وبذلك نجحوا في امتحان الباري لهم، ودخلوا المطلق. وبخشية كان يسأله ان كانوا يشربون الخمر فيرد بجديّة صلبة: الخمرة طريق من طرق الوصول الى المعرفة، عندما يشرب المؤمن خمرة الله الباطنية، تصفو ذاته ويدخل عالماً آخر لا يعرفه الا الذين أوتوا نور الكشف في نفوسهم.

واذ يرد بخوف: لكن الخمرة محرمة في كتاب الله؟

اذ ذاك كان ينهدّ مستوياً داخل الخيمة السهلية المطلّة على البحر، متأملاً النجوم التي تلمع في سماء صافية: الخمرة التي يتناولها المؤمنون يابني شيء آخر غير هذا المزيج الأبيض الذي تراه. هذه أمور خفية لن تعرفها الآن لأنك لم ترشد بعد. وفي غمرة حلولة منتشية يدندن مطلع قصيدة: «لا تشرب الراح الا مع أخي ثقة موحد عارف بالعين والميم»، وعبر الفضاء العاري والسهول الخضراء يتأوج ذلك الصوت الصوفي الشجي.

[]

من اين أتى هذا الماضي المغرق في القدم والنسيان؟ ولماذا أتى الآن؟ هو كان صوفياً لأنه متدين عاش الحياة من خلال ما اعتقد. عبد الله والأرض، وسكنته القوى الخفية. وانت تؤمن بشيء آخر اسمه الانسان. والانسان مذهب ما يخلق والله حكاية قديمة جسدها العجز القديم عن تفسير ما وراء الظواهر. وانت مسكون بمنى لأنها التغيير ونقيض الثبات، ولكن منى لا تؤمن بك وتقول عنك: مسكون مثلهم بالإرث والنقص تلا الزمن عليك حكم الاعداء.

صديق قديم قال لك: اذا جاءك الأرق فتخيل نفسك على شاطئ بحر والريح تهب ناعسة رخوة. تصور انك محمول على بساط مخملي نحو جزر بعيدة واصوات نوارس البحار رخيمة حزينة تصوي في اذنيك. آنذاك ستنام حتماً. لكن سامر ووائل وهدي وأيوب وديانا ومسرور وامينة وراني، كيف ينال من يتذكرهم في جميع الليالي؟

- ١٥ -

الوظيفة. هذا المستنقع البيروقراطي، تغطس فيه منذ الصباح فلا تستيقظ الا وانت على شاطئ التلف. يلوث نقي العظام فيك. ومع نسخ الأيام المتشابهة تتحول كتلة آليّة بلهاء مشتقة من الكرسي او المكتب. للمكتب رائحة زئخة فقدت انتشارها من كثرة ما عشعشت في الخياشيم، والداخلون الخارجون دمي تأتي وتنصرف بطقوس تشبه طقوس المصلين الوافدين الى الجوامع والكنائس في ايام الجمع والآحاد.

واحد. اثنان. ثلاثة. عدّ حتى تسقط اعياء فلن يتبدل شيء. تلف يومي. تفسخ زماني يسحق البشر ولا جدوى. استرقاق يشد آلاف المواطنين الاستهلاكيين. يوثقهم الى الكراسي والمناضد، كأنما محكومون يُساقون منذ الصباح بآلية الأيام نحو غرف الغاز ذات الروائح النفاذة، روائحهم.

بمرارة أضحك وانا اتذكر ان ايوب السرحان وظيفة امينة وقد أحكم ذلك الشرع الشريف، في حين كانت زوجة سامر البدوي وظيفته، لكن أحداً منها لم يكن يداوم في عمله.

سألت سامر البدوي يوماً: لماذا تصدعت الحياة بينك وبين زوجتك؟ سخر من سؤالي وقال: المرأة قطعة غيار تتلف من كثرة الاستعمال.

- لكن الشرع يقول: المرأة رفيقة العمر!

وينخر: بالنسبة للذين صارت احاسيسهم ماخوراً.

- ولكن انت الم تتزوج بحب؟

- بلى. ولكن هل الحب مستمر كالسهم باتجاه واحد؟

- لماذا يحدث الانحراف فيما بعد؟

يقول: الطبيعة البشرية كالبركان. بعض البراكين تثور مرة واحدة ثم تخمد. والبعض الآخر يظل في ثورة دائمة. الشعراء براكين متمورة عندما تخمد يكون الموت قد

أقبل. تزوج أبي ثلاث نساء جميلات والأخيرة كان عمرها لا يزيد عن سبعة عشر عاماً بينما ناهز هو حدود الستين.

– ألم تخنّه؟

– كان رهيباً قاسياً يتمتع بطاقة جنسية لا تُحَدّ. رغم كبره كان يتصرف كشاب فتى. كانت مدللة يمضي في فراشها جُلّ وقته وكان يرضيها.

ضحكت: الولد طالع لأبيه.

في خلاياه تمددت غبطة سرية، وفي عروق وجهه سرى الدم. دم بنىء عن فيض جنسي ووثوق وراثي أصيل.

□

ذلك الماضي السحيق وحده يلوح مطهراً من الرجس. يشبه اكليل أبيض في ليلة عرس وفوقه تحفّق حائم بيض. وهم يسرون فوق مروج خضر ومزهرة والسماء ناصعة كبحر رائق. بذلك الحلم الذي مضى ويعود الآن، وفي جميع الأيام السود، كانوا موثقين. أخذهم ماضي آبائهم وطفولتهم التي مضت، وعلى الدروب المسدودة والمفرقة والمحرقّة. كانوا يتقدمون ببطء سلحفاة في العصر النووي المدهش.

وانا اغادر سامر البدوي بعد ان التف حوله اناس لا طاقة لي بالبقاء معهم تساءلت: لماذا يكرر العربي مجده الغابر؟

كنت أسير في نهار دمشق تحت سماء توحى بالمطر.

وكانوا قد بدأوا الحديث عن السفر والطعام والثياب والسيارات والمنازل المؤنّنة والنساء وأنواع الويسكي، ثم تشبّع الحديث عن الحيات الشخصية وما مرّ في حياتهم من نكاحات ومفارقات وبطولات طفلية، وكان سامر نجم الحضور. تألّق الجانب اليومي وتواترت حكاياه المختلفة. استطالت حتى غمرت الموجودين. فانسحبت حتى لا أكرهه.

كان الناس يعبرون الأرصفة بمجانبة نهر يجري، واختلطت ابواق السيارات بطقات الزد ورشف الشاي في المقاهي المنشورة على ضفاف الشوارع. كان الوقت عز الظهيرة.

سرت بين الناس. وحيدا حيناً ومع سامر البدوي حيناً آخر. كيف يكون متوافقاً مع الناس ثم شارطاً لقوانينهم في أن؟ كيف يخدع بعض من أحبه وما دروا أنهم مرايا عاكسة. محطات راحة للذي يهوى ركوب القطارات فلا يمل من هجرته؟ هل كان يبحث عن شيء مفقود؟

لقد قال لي في ذلك اليوم: كان أبي يطيل النظر الى المرأة. يسافر في وجهه ثم يمسده بلبونة وشغف. أحياناً كان يتعري تماماً ويتفرج على ذاته لقد رأيت ذلك بنفسي. يومها كان في أقصى حالات الثمل. وما أحب أكثر من دمشق.

– دمشق مركز العالم. كان يكررها كآية محفوظة.

وفيها كان يهاجر من جسد الى آخر. من امرأة الى أخرى. ولم يكن يبحث عن شيء. كان يفرغ رغباته فيها، رامياً خلفه كل اللوائح والشرائع التي استنتت في غيابه. ثملاً الى الأقصى داخل جحيمه الأبيقوري قبل ان يدهمه الموت المفاجيء. وفي جميع الأيام كان يبدو تعباً، لكنه كان يولد من التعب طاقة جديدة للبدء بالسفر من نقطة المركز الى اية نقطة من محيط الدائرة.

واذ نبداً اللقاء مع الحسوات الأولى للخمر، يهاجم الضعف الجسدي في الانسان. يرنو باحتقار الى جسدي النحيل ويقول هارثاً: انا اشك برجولتك الجنسية.

فأستفزه: التجربة تثبت.

يتقرّز فيهاجم: منحط. منحرف. ديوث. ثم يهد حاسياً كأسه: امتصتك امينة ولم تترك فيك غير العظام. انظر الى نفسك أهذا جسد ابن آدم؟

– وهل جسدك جسد شاعر؟ انت مخلوق لتكون مصارعاً.

ويصبح: وهل ينبغي ان يكون الشاعر هزلياً شاحباً كي يختار مواصفات شاعر؟ المهم الحيوية النفسية.

– لا. سيدي. لا. للقوة النفسية حدود. انا أرى ان الرومان من أعظم الشعوب. في هذه المرحلة على العرب ان يكونوا في قوة الرومان ليحرروا وطنهم.

– يا أخي انت بليد ومغفل. هل الرومان اعظم من اليونانيين؟

– هذا ليس عصر الفلسفة والأدب بالنسبة لنا. نحن أمة مستباحة ومهددة بالانقراض. لسنا بحاجة الى أرسطو وأفلاطون وكازنتراسكي. اسرائيل ثكنة مدججة بالسلاح تذكر بألمانيا هتلرية، ومن اصل اقل من مليوني نسمة هناك حوالي ثلاثمئة ألف مقاتل على استعداد للإنقضاض علينا واجتياحنا. وانا أشك ان تستطيع الأمة العربية مجتمعة تجنيد مثل هذا العدد الآن.

– يا إلهي. تتحدث بطريقة لا مثيل لها في الغباء. ألمانيا كان لها فلاسفتها وأدباؤها. نيتشه وفخته وكانت وغوته. اسرائيل ايضاً لها فلاسفتها وعلمائها. بهم تبرر وجودها وتقعن العالم.

- هذا عصر القوة لا عصر الفلسفة والشعر. نحن ممزقون سياسياً ونفسياً، مانزال نعيش على امجاد طارق والحجاج وعقبة بن نافع. هراء. منذ عصر الانحطاط ونحن في حالة دفاع عن الذات. لم تُخلق بعد في نفوسنا حالة الهجوم. حالة الهجوم فينا تفرغ عن طريق الكلمات. فتى تنتهي حالة الثثرة اللامجدية هذه؟ - على اية حال المواطن هنا لم يتشكل بعد. غير ان هذه الأمة اقوى من الموت والانقراض. قد تستمر اسرائيل رداً من الزمن، لكن اي انسان يفهم روح الشعب العربي وتاريخه ويحلل، يدرك ان اسرائيل بتكوينها العنصري الديني ستزول. - هذه الأمنيات الدونكيشوتية لا تكفي، هذا العصر ينبغي ان يكون عصراً اسبارطيا بالنسبة للعرب، وانا افهم ان الحزب الثوري هو المسؤول عن ذلك. هكذا حدث في الصين وهذا ما يحدث الآن في الفيتنام.

من سماء دمشق انقضت الغيوم وماهطل المطر. كنت قد شارفت بيت مسرور الكائن في حي المزرعة. شردت احلامي نحو عالم منى: كيف استرد هذه التي استلّت مني دونما ذنب، آنا المعطوب ام البشر الذين يحيطون بنا؟ أم هذه الدمشق المتزلقة كسمكة من أيدي جميع الصيادين؟

- ١٦ -

- الى ابن يمضي بك اللاشعور ايها العاشق الفاسق؟ -

الخطوات تضرب جلد الأرض ولا تتوقف. تسير وتسير وتتقوس ثم ترتقي وتقوم. متعباً فارغ الفقرات وتتابع الجري على الطرقات ذاتها. الإيقاع نفسه للأرجل والتصورات الداخلية المشتبكة في الذهن المريض حيناً والصاحي أحياناً. مع الناس ثم وحدك تحاول معرفة وحدة الانسان متمسكاً بقوة البصيرة العجز والقصور، يسبح في بحرهما طفل تائه رمي على حوافي التاريخ بعد ان انسل من نور الماضي وسقط في ظلام الحاضر. لقد ارتبكت وانت تسير فتقوّست العظام من جراء المشي المبكر. وفي زحمة هذا التفجر الميكانيكي والعقلي ضيعت أباك. تصبح بلوعة من ضلّ طريقه في سرداب ملتو حالك: أين انت ايها الأب القديم؟ اعطني بصيصاً. ولا يأتي البصيص وترفض قطع جبل السرة رغم انك لا تسمع الا صدى صوتك الجريح.

وتبدو منى وحدها الضحية في هذا العالم المشحون بالعواطف الكاذبة. وبقينا كنت شبه عاجز من استرداد ثقتهما بي وبالبشر المحيطين بها، لكنني لم أكن يائساً بشكل مطلق. كنا مانزال نلتقي في بيتي وبيوت الأصدقاء خلال فترات متباعدة قبل ان ترحل. نثرثر عن الأحداث اليومية التافهة وكان هذا معذباً. فأمامها أبدو ممثلاً بشير السخرية، وانا أرمي كلماتي وهي تدخن مبتسمة، لاقّة ساقاً فوق أخرى بينما لحمها المحرم يتضوّأ تحت بصري. احاول إثناءها عن الرحيل لأن ذلك سيسبب حزناً وكآبة. بلا مبالاة وسخرية تنبضان من ذرات شفتيها وبريق عينيها، كانت تحجب على شفاعاتي بهزات من رأسها الصغير، ثم تتمدد على السرير راسمة بلفافتها دوائر، تأملها وهي تتصاعد نحو سقف الغرفة ثم تنبدد.

وأتأملها وهي ترفع قدمها اليمنى على الجدار. تحركها ارتفاعاً وانخفاضاً كأنما تكتب برؤوس اصابعها. واذا ترفع ساقها أكثر، ينحسر ثوبها وتحت الضوء ينساب

فخذها الوردى.

- بماذا تريدان ان أشفع اليك كي تبقي ؟

تبسم : بك .

- بي أنا ؟

وتومئ وهي تمص لفافتها ثم تنفثها .

أفهمه : لماذا تهزئين منا جميعا ، منى ؟

- أنا لا أهرأ من احد .

- لكنك تسخرين مني الآن !

- أبدا يا عزيزي . انتم الذين تفعلون ذلك بي وبأنفسكم .

- منى . انت لم تحسني الاختيار . ألا تعتقدين انك فقدت القدرة على

ذلك ؟

- أنا لم اختر يوما الا مرة واحدة وقد فشلت . انتم اخترتموني فيما بعد .

- خسرت مرة فقط .

- هذا يكفيني .

- لكن الرجال ليسوا نسخة واحدة .

- تريد ان تقول انك تختلف عنهم ؟

- المسألة ليست على هذا النحو الفردي تماما .

- ولماذا حددت بشيق رجل نهم الى ساقى ؟

- لأنني رجل محروم وناقص !

- انت كالآخرين تبغى أكلي . كلكم ينشد صيده ثم يمضي .

- منى اسمحي لي ان اقول لك انك مؤذاة . ربما كنت ابغى جسدك . لكنني

اريد ان تمكثي بقربي وفي داخلي الى الأبد . نحن مرتبطان بأقوى من الجسد وانت

لا تريدان ان تدركي ذلك . عندما اقول لك انت شيء خاص موثق بتاريخني في

الحاضر والمستقبل فأنا اعني ذلك فعلا . انا بدونك لاشيء . نحن بدونك ضباب .

ينبغي ان نحرق ماضينا ونقدم في التجربة حتى الأقصى . بدون أب بدون أم بدون

أخوة حتى ولا أصدقاء الآن . نحن بداية هذا العالم هذا ما أحسّه معك أبدا .

برية وحذر تملاني ، وفي وجهها الماضي والجرح يتصالبان مع الخوف . كان

رجلها يفرعني . في هذه المرة سأفقددها ربما الى الأبد وهذا يعني استحالة بناء صلة

جديدة من هذا النوع .

في دمشق تعلمت كيف تفكر المرأة وكيف تعيش . البيع والشراء وتبديل الرجال كما تبدل الأحذية وحقائب اليد . وما كان باستطاعة امرأة ان تغرس في نفسي كما غرست هذه الطفلة التي نمت خارج المستنقع . كنت أقول لنفسي علي أن أوطنها على الاقتناع محاولاً بكل ما تبقى في داخلي من صفاء ان اشفيا من حالتها ، بعد ان و طنت نفسها على العزوف عن الالتصاق بالمغامرين والانتهازين .

[]

بافتراة عادية استقبلتني ديانا ، مفسحة المجال لدخولي وكأنني زوجها أو أخوها . سألتها عن مسرور فقالت انه خرج منذ دقائق .

كانت ترتدي تنورة ضيقة تظهر تقاطيع جسدها الموحى بالاثارة ، وقد اكتملت ، وفي شعرها المشرج المثنى حول عنقها غرست زنبقة بيضاء .

- أكنت تتأهبين للخروج ؟

وقالت بأكذوبة بيئة : لا . ثم استطردت : كنا سندهب الى السينما وفجأة طلب مسرور الى العمل .

هبطت على الديوان ، وجلست هي بقربي .

اشعلت لي سيكارة وكان وجهها قريبا . وجه قحي ناعم وشفتان تلمعان بومض شهوي . خامرتني احساس مفاجيء بضم وجهها بين راحتي كفي ، وان اتملاها علي اكتشف ما وراء هذا البهوت الراقد في عينيها ، واذا تحركت ذراعي بتلصص نحو الأعلى ، اصطدم بصرانا . بغتة رفعت رأسها وتهاوت على الكنبه المجاورة .

وسألتها : لماذا غادرت الديوان ؟

فابتسمت ببرود : عيناك هائجتان .

كذبت : أنا معجب بزنبقة شعرك .

- وأردت أن تتلمسها . هاه ؟ ضحكت .

نظرت اليها : كان عطرك مثيراً .

غنجت : عطري فقط ؟

ولم أنبس .

ورمت رأسها بحركة مزهوة الى الوراء ثم نفخت دخان لفافتها في الفراغ . كانت تنورتها منحسرة الان وفخذها سائين ، ولم تحاول سحب الثوب ولا ضم ركبتيها ، وبدا ذلك عفواً ، وكان ثوبها الداخلي المخرم يبرز قليلاً . في

الكعبة كانت غارقة والكعبة نضمها، تستوعبها تماماً، والمسافة بيننا قريبة بحيث لو خطوت خطوة واحدة لصرت في حضنها. وكانت تنفّس بسهولة، وبدأ ثدياها ناهضين يخفقان على مهل وعنقها مُتلعاً. كالتثال بدت امرأة حقيقية، كاملة، مثيرة، عابقة، متوحدة، لكنها كالحجر هناك.

وحدث شيء آخر. تحول لأمري بدل مشاعري. حدث ذلك آنيا كما تنفجر شرارة دوّما ضجة.

ولم أستطع رصده تماماً رغم انبھاري به. أذكر انني بُهتَ وأنا أتصور الحالة وهي تبرق في ذهني.

وكنا في غرفة النوم وهناك جثم سريران أبيضان وخزانة رمادية، وجلست على أحد السريرين واعتقد اننا كنا عائدتين وكان الغروب باهتاً ومؤسباً في ذلك الصيف الحزين، وفي رأسي كان المثال عن امرأة رائعة ذكية وجميلة، تحب الوحدة والشعر والجنس والبراري. وكانت هناك اسطوانة تدور بموسيقى حزينة مفعمة بالروائح والتذكريات، وكانت الستائر زهرية ومسدلة فوق النوافذ، واحسست طراوة السرير فتمددت فوق الغطاء الأبيض المصنوع لعريسين ربما. وافعمتني رائحة جنسية لذيدة فاحت. من المخدة. كنت أضع رأسي فوق رأسها، واذا انتشرت الروائح داخل نفسي وجلدي رغبت احتواءها. وسألته آنذاك: أنامان منفصلين؟ فأجابت: أكثر الليالي. وقلت: كم مرة نمت عارية معه؟ فقالت: مرة واحدة. وأذكر انها كانا متزوجين منذ عام ونيف. ثم سألتها: هل تجردت من ثيابك تماماً؟ فأجابت: كما ولدتني امي. واهتجت مثلثداً بالأسئلة: وكان عارياً هو الآخر؟

فقلت: أجل.

- ومارسنا الجنس؟ فأومأت. وبدأ في وجهها امتعاض.

وقلت: كنت حارة ثم ابردت بعد ذلك؟ ونفت استتاجي. فسألته: لماذا؟

واذ قطبت حاجبيها ظهرت تقاطيع صدغها: كان جسده مخيفاً. وسألته عما أخافها في جسده ففرزت: لا أدري.

والححت: بل تدرين. هيا قولي. فصرخت محاصرة: كان جسده مغطى بالشعر. لقد بدا كقرود.

وقلت: وكان محموراً متوثباً.

- أجل كان ذلك مخيفاً.

وبنشوة خاصة سألتها: وأنت ماذا تذكرت؟

وقالت: لم أتذكر شيئاً. كنت كالحجر ولم أشعر بشيء. لقد مارس هو الفعل.

- وبم أحسست؟

وقالت بضيق: بسكين تحتزني.

وارتفع صوتي: كان يغتصبك اذن. ووثبت ممسكا زندها العاري فنترت ذراعها وابتعدت: دعني. وصفتها: أنت مريضة. وصاحت: انتم مغتصبون لا تختلفون عن الوحوش في شيء. وانفلتت هاربة في الممر الضيق. وتوقفت الاسطوانة. ثم سمعت نجيبها هناك.

[]

هاأنذا تعود ثانية. تراوغ نفسك وهذه المرأة المتأبية. رافضاً ما حدث في الماضي البعيد. تحاول الوثوب فوق الوقائع المرضية التي اعتقدت انها أحابيل لتغطية مراسيم الخيانة. لقد حدثت الخيانة في الذهن وانتهى الأمر. وذلك الرجل الذي ادرك بالحدس بعض قوانين الانسان يقول: النية تسبق العمل. هو الذي فسر الخير والشر والحلال والحرام بالشرع الشريف وما فهم قوانين الرغبة، والتزف الداخلي للطبيعة البشرية هذا الذي يقصف الاعمار في منتصفها ان لم يجد مسرباً حراً.

وفي مساء ما غالى راني برد الفعل فقال: قتل طفل ولا قتل رغبة.

قرع الجرس، فنهضت ديانا تفتح الباب. وولج البيت رجل جهم طويل يشبه رجال الاساطير القديمة. في وجهه جهامة وهيبة ويرتدي عباءة.

سلم مصافحاً اذ وقفت لاستقباله، فشعرت بكفه العريضة تسحق أصابعي. خرجت ديانا من الغرفة لتدخل ما حمل الرجل معه من حاجيات، وبقينا وحيدتين.

سألني عن مسرور فقلت بأنه في العمل ونحن بانتظاره. بين حين وآخر كنت أتلى وجهه الغضب المخدد، المعجون بقسوة قديمة.

لم يلزمننا وقت طويل للتعارف، وانصبت استلتي عليه. اسئلة عادية بدا

خلالها مزوحاً على غير هيئته، وبدوت وأنا اثرثر معه انساناً في منتهى اللطف والاستماع. عندما خرج ليغتسل من وعشاء السفر، أعربت لديانا عن دهشتي به. فقالت بانه قاسى كثيراً قبل خروجه مع اسرته من فلسطين وعمرتني أن أكون حذراً أمامه لانه زميت لا يفوت صلاة.

وقلت: أعرف ذلك. لكن لا بد انه يعرف أشياء كثيرة عما حدث في الماضي. فقالت: أرشيف. قاتل في الجبال في عام ١٩٣٦ وفي الـ ٤٨. وقد قتل كثيراً من اليهود والانكليز.

واذ عاد استأذنت منه. ودعته فلم يعترض لخروجي بهذه السرعة.

□

في اعتقادي انني لم أكن مريضاً. ربما كنت مخطئاً في هذا الظن. لكنني كنت واعياً ونسبة عالية من حالي. وما تبقى كان مشوشاً، وبين حين وآخر كان يعاودني وسواس المرض. يصل بي درجة ان أعرض حالي على طبيب. ومن أطرف الامور انني كنت احضره في مخيلتي ثم أبدأ حواراً معه، وخلال الحوار كان يسألني عن طفولتي فأسرد له حوادث عادية مرت. لكنه كان يلح علي أن اتغافل أكثر واتذكر الحوادث الاستثنائية. اقول له لا اذكر إلا هذه. لكنه كان يلح، وعبثاً احاول الاجبار. يسألني مم تشكو؟ فأقول: فقدان الرضى في النفس والجسد. واذا يتسم بعدوبة من يدرك ذلك يسألني: ومن هو الراضي في نظرك؟ فاشير نحو البشر السارحين تحت الشمس، لكن الابتسامة تعود اليه ويقول: هل تعتقد انهم راضون عن حياتهم؟ لكل حالاته المرضية الخاصة به. فأسأل: حتى الاطباء يا ترى؟.

فبرد بهدوء واثق: حتى الاطباء ليسوا بناجين. وبارتكاس ذاتي أعترف له بالجوع والملل والقبول والرفض وحس التميز والعادية، ثم هذا النوسان بين الأحاسيس النفسية والتوضع المادي للأشياء ثم أقول: أليس هناك تعارض بين هذه الامور؟ فيقول ان الانسان بطبيعته ملول والنفس الانسانية مزيج من التناقضات وهذا يعود الى الطفولة والتربية والوراثة والثقافة.

وافصح له قليلاً علني اثره: ترى لماذا أرغب قضم لحم الجسد الانثوي عندما اعجز عن الارتواء منه. يفكر قليلاً ثم يقول: هذه عودة داروينية تثبت صلة الانسان باجداده أكلة اللحم.

اقول: لكن أنا من سلالة امضت جل تاريخها في الصلوات والتحريمات وممارسة الحب في العتم بعد منتصف الليل. سلالة معطلة. شفاهها بدل القبل. تحتسي الخمر والشاي، وايديها بدل العناق والعمل انخرفت نحو العادة السرية، وركبها أمحت من كثرة السجود. عيونها تراقب النجوم والسماء والمطر وتنتظر هبوط مطلقها منها. يا عزيزي الطبيب هذه السلالة اعماقها ساحة حرب بلا هدنة منذ العصر الذي قتل فيه طرفه بن العبد لانه هجا عمرو بن هند الملك حتى عصر الثورات المجيد هذا.

ويتسم قائلاً: علم الوراثة احتمالي. هناك بين الشعوب المتحررة والتي قطعت أشواطاً في الحضارة حالات مرضية مشابهة وأكثر حدة في الاستثناء. ثمة حالات مشتركة بين الانسان لا صلة لها بالتاريخ الخاص.

واذ لا اقنع كثيراً بما يقول، أسرحه. أمضي في الطرقات مهلوساً بوطن حر، بانسان يحيا بعيداً عن العقد والتشويه والمخاوف. وطن بلا خيانة. وطن حرّ وغير جائع، وطن لا وجود له إلا في مخيلتي المهترئة.

وأنا امضي احاول التغافل نحو احلامي الآتمة والاضطهادية. مشاعري اللاشعورية نحو ديانا وسمية وكل النساء الشهيوات اللواتي يعبرن شوارع دمشق، اعربهن في ذهني دونما خوف من الشرطة الاخلاقية وآيات الله البيّنات. واذا تشرق مني داخل هذا العالم المائل، اشعر بالشفاء والهدوء.

- وهل تعتقد ان هذا كل الازمة؟.

- أزمة من؟.

- ازمته.

- ماذا تعني؟.

- قد يكون ابوك برجا هوى ولا خير منه لكن...

- ماذا تود أن تقول؟.

كان يحرق الآن في وجهي بكل ما في عينيه من شراسة وانتهاك.

وسأله: لماذا تضربهن قبل العملية؟.

يفتح الغياب. يضع يده على صدغه: لا ادري. أشعر بحاجة ماسة لان أضرب. عندما تقوم بذلك تحس بانك افرغت شيئاً من قواك ولا تلبث هي أن تخنع. أحب المرأة هادئة مستسلمة في الفراش.

وكحيوان عطش دلت الويسكي في جوفه. وكانت هناك موسيقى صاخبة.
وراح هياجه يرتفع. وسألته: هل تحب الموسيقى؟
فابتسم باحتقار ولم يجب.

وقلت مازحاً: هل تسمع موسيقى خلال عمليات التعذيب في القبو؟
كأنما صعد: لماذا تسأل ذلك؟
وقلت: مجرد سؤال خطر لي.

كل جسدي راح يطعنه بنظرات ذئبية وقال: هل قال لك أحد بانك انسان
قدر وابن عاهرة؟

وضحكت: لا اعتقد. ربما سامر يستعمل شيئاً من قاموسك الجبان هذا.
على أية حال ربما اكون قدراً بحكم التصاق بك هذه بدهية. لكن امي مع
الاسف لم تعرف غير ابي فلم تكن لها اية أحلام وكان أبي حنبلياً في قضايا
العرض. انتهى تقريرى. هل لديك اضافات أخرى؟
- أنا اشك انك ابن شرعي.

ولم يكن قد ثمل بعد. وارتفع حس الالهة: أنا لست ابناً شرعياً أما أنت
فابن شرعي لهذا العصر. رجل قوي يتسلط على النساء والرجال. يملك سيارة
ومركزاً حساساً. تنظر الى شاراك في المرأة فتزهو وتحس بان العالم تحت قدميك.
لكن هل نظرت يوماً في مرآتك الداخلية لترى ماذا أنت؟
- ماذا تريد أن تقول؟

بهزء: لا شيء. محض دردشة عن الاولاد الذين جاؤوا سفاحا والذين هبطوا
خطأ من صلب آبائهم. هذا كل ما في الأمر.
وقهقه مزدرياً: تبدو عالم نفس يا عزيزي الصرصور.

- هاه. انك ترى جيداً كيف تنظر الى الناس. هم في مراياك ليسوا اكثر
من صراصير. تعتقد جاداً انك تحكم العالم أليس كذلك؟
وبفوقية قال: انني احكمك شئت أم أبيت.

وضحكت مشفقاً: بل ربما كنت المحكوم ولا تدري. تحكم نفسك داخل
غرفة مقفلة يفوح منها الرعب والجبن. فيها تمارس العابك. صدقني أن أحداً

لا يخافك خارج القبو، ويؤمنني أن أقول لك انك مهشم وأجوف وشمسك مشرفة
على الغياب.

ودخلنا في حوار جاد. أنا على الأقل لم أكن أمزح. خيل إلي انني قد أمضي في
التعربة حتى النهاية. وإذا رأيت عينيه ارتختا، حضرتني شفقة واعية. كنت حقيقاً من
هذا البيان الكاذب الموشك على الانهيار. وددت القول: أن هذا خطير وقاتل!
فأدركت ان هذا لامعنى له.

وقلت : ولكن كيف يلتقيان؟ هي في القاهرة وهو في دمشق وبين القاهرة ودمشق مسافات شاسعة صعبة العبور؟.

واستطردت : أنت فعلاً شاعرة ذات خيال ولا أخصب منه .

وقالت بعفوية : كما التقينا . أتذكر؟.

(حدث ذلك في غروب خريفي في بستان مشجر معشب ، المكان كأنه ضاحية من ضواحي المدينة . كان هناك سواقي يجري فيها ماء صاف وتحت المياه حصى ابيض ورمادي وطحالب خضراء . وبدت كأنها قد شردت عن أهلها . وراحت تثب فوق العشب كظلي آمن . واذكر انه كان معي بندقية صيد . وفجأة كأننا انبثقنا من جلد الأرض وجهاً لوجه . ودهشت . سألتها عن اسم المدينة فسمتها . وقلت : هل انت منها؟ وماذا تفعلين هنا؟ وأين أهلك؟ ونظرت نحوي عجيبة من استلتي ثم ابتسمت . وجثونا على ضفة ساقية ، واذكر انني كنت فرحاً بوجودها وتأملتها . لم الملح خبث المدن في وجهها وراحت تداعب مياه الساقية برؤوس أصابعها . كان لحمها نقياً لا غش فيه ، وصلباً . وابتدأت تتحدث دونما خوف . وقلت في سري : ربما كانت هذه هي التي تبحث عنها . وقلت : لورآنا أهلك معا؟ امسكت عوداً يابساً وكسرتة وقالت : ما علاقة أهلي بذلك؟ وقلت : نحن شرقيون . وضحكت حتى كادت تقع على ظهرها . انحسر ثوبها ، وراح نهذاها الصغيان يرتجان بحوية تحت بلوزتها الخضراء ، وخصلات من شعرها الاصلي تنسكب فوق وجهها حاجبة قسماً من عينيها المشعتين بومض غريب . وسألتها لماذا تضحك فنهت : قل لي . هذه ضحكة غريبة أم شرقية؟ مرت لحظة صمت . كان الماء الصافي يغمر بعض ساقيا . وسألني من أين أنت؟ ولماذا تحمل بندقية؟ وهل أنت صياد حقيقي أم تمثل دور الصياد؟ فأجبت بانني لم أتوغل في الصيد بعد . واذكر انها تحدتني ان كنت صيادا فعلي اثبات ذلك . وقلت : ما جازتي؟ على شفتيها وضعت سبابتها . هدأت السفلى ثم مدت عنقها نحوي . فرح طاغ اجتاحني وخفت السقوط في التجربة . كانت البندقية في حضني وأنا افكر بكيفية التجربة وهي تنظر نحوي متحدية . وفجأة خفق فوقنا طيرا يمام كانا يطيران بسرعة عادية . لست اذكر الآن كيف حدث ذلك وبمثل تلك السرعة الخاطفة . لقد هوى احدهما كما يهوي حجر فوق العشب . وكنت أنزع الطلقة الفارغة بينا الطائر يمزقه الألم هناك نائراً دمه على الأعشاب . واستطال زهوي اثر ذلك حتى بلغ شفتيها . حدث ذلك كله كالبرق ، كانت واقفة اذ ذاك على ضفة الساقية وفي عينيها سكون

- ١٧ -

استقبلت وجه منى ببشاشة . دهمتني غمة مفاجئة وهي تقول : هؤلاء هم اصدقاؤك . شعرت انها كتمت صفة : النهمون .

صححت لها : هذا تعميم خاطئ . ينبغي أن تميزي بين الظل والحقيقة . بين المبدئي والمرحلي . احكامك قاسية منى .

وفي ذلك الزمن العصيب كنا نتأرجح أنا وهي عبر تيارات جارفة ، شديدة الانحدار ، وما كان بالامكان أن نتأسك لينقذ أحدنا الآخر . وكان النهر عكراً . تسبح فيه هوام غريبة بعضها جائع والبعض مهووس ، والقسم الاكبر كان محمولاً فوق حطب طاف يتشمس وينام على الاطراف وفي الفجوات البعيدة عن الاصطخاب . وروت لي كيف عرفتهم جميعاً ، وكيف اعتنقوها زمناً . حوّموا حولها وهاموا يحسدها لكنها قدمت لهم الازدراء واللامبالاة وختمت حديثها قائلة : كانوا في النهاية ممثلين هزليين بشيرون منتهى السخرية والمرارة .

ولما قلت : ولكنك اصبتني برذاذ احتقارهم دونما ذنب . انعطفت نحو ميسالينا فحككت عنها بأسى عميق . ولأول مرة سألتني عن ابني القادم من امرأة أخرى ماذا سأسميه؟ فقلت بانني لست راغباً في الزواج . والحتّ بمزاج جدي : لنفترض انك تزوجت واعطتلك زوجتك غلاماً؟.

فقلت : لا ادري . سمّو معي .

وضعت اصبعها في فمها ثم نظرت نحو سقف الغرفة : آدم !.

سخطت : أنا معقد من الأنبياء .

ردت بعذوبة : آدم كان انساناً مثلنا . وغمزت بعينها اليسرى : اعني مثلك . انفصل عن والده وجنته وماضيه من أجل امرأة . واردفت : يتزوج آدم ميسالينا ويبدآن من جديد كما تحب أن تعبر . ما رأيك؟.

ودهشة. ونحرت قليلاً نحو الطائر حملته وهو في نزعته الأخير ثم رمته الي.
ولم ننبس. سرنا معاً فوق الاعشاب وتغلغلنا بين الأشجار ثم خرجنا من البستان وهنا
في برار فسيحة. ولم أعد اذكر شيئاً).

[]

فما بعد خمد الدهول، اختلط الشهود بالمثلين، والصيادون بالقتلة، وعادت
دمشق إلى سكونها القديم، تابع سيرتها في البيع والشراء، في الضحك والصلاة. كما
عادت منى غريبة في هذا العالم.

شيء خاص حدث خلال سني التحول والارتكاس. لقد سكنتني تلك المرأة
على نحو يقرب من العصاب، في الوقت الذي بدأت فيه انهياراتي النفسية تشارف
حدود الرفض لجميع الآخرين.

ها أنذا أحس بهم في لحظات الصحو النفسي وهم يمشون. وأحس بها وهي
تقبل (أيكون هذا تعويضاً شخصياً مختلفاً ضد الوحدة والخوف من الانقراض
المفروض). احسهم تاريخاً عابراً، حُفر على جدران ذاكرتي لكنه عصي على
اللمس. متمرد على التكوين السوي. بينما تتقدم منى بهية ماردة كالبشفق،
وهم يمشون بأعمارهم وتواريخهم الملوثة بالوحل كأنما اخذتهم غيبوبة.

(ها هم هناك مُفلتون بلا ذاكرة. غارقون في مستنقع التاريخ. لقد وُلِدُوا في
عواالم مختلفة متناقضة. عواالم فردية. جاؤوا من بلاد قصبة مطرودين، ملهوفين،
مسكونين بالاحلام والمجد والظلمة. وهنا عاشوا بجنين لا حدود له لماضيهم وللرحم
الذي انسلوا منه يوماً، بعد أن نسوا أن يبنوا مدن نفوسهم في صحارى مقفرة
يحددها الانقراض من الجنوب والاعتصاب من الشمال ومن الغرب البحر ومن الشرق
الرميل. وتحت جلودهم كل وشل التاريخ).

من ثارات الجاهليين وغاراتهم في الليالي الدامسة، وصرخات الثقيفي اني لأرى
رؤوساً قد أبنت، حتى الانقلابات الاقليمية التي تميد بها أرض العرب،
وُلِدَ جيل الثارات المعاصر. جنس يمارس كالقتل. انقلابات. واتهامات تطعن
كنصل خائن في الظهر، بينما فلسطين موطوءة ما تزال ترفرف في سماءها نجمة داود.
ثم تقول لنفسك: الرجل الجاثي خلف مكتبه سيد قومه، والسيدان العابران فوق
الارضفة أحدهما أرسطو والآخر لقمان الحكيم، والذي يخترق الشارع بسيارته الفارغة
موسى بن عمران. والفراغة يتجددون في العصر الحديث، بينما السائمة تعبر مغلوقة

محكومة بالنفي والخروج بعيداً عن حركة التاريخ. ولكن من أين جاءت هذه الآلة
المزورة؟

- منى أنا لست سبداً ولا بطلاً ولا نبياً ولا فيلسوفاً. لست أكثر من مارق فقير
بلا أب وبلا أم، سقطت خطأ هنا. أعبر وحيداً قلب هذه الصحراء الملتته المجنونة
نحناً عن قطرة ماء.

- ألم تلتق بنبعك في الخمارات وفي جسد أمينة وناديا وتصوراتك المحرمة؟
- أبحث فيهن عنك.

تفهقه: أي تعويض خسيس!.

وتبدأ تحدثني عن هجرات نائية وعن أوطان لا كذب فيها ولا خيانات. مدن
مغلقة بالشعر والعمل يسكنها اناس بسطاء يتسمون بالأطفال. يأكلون الخبز الناضج
من عرقهم بدل لحم اخوتهم. يشربون النبيذ المصنوع من كرومهم التي زرعوها بدل
دماء الاوردة. في تلك الأوطان يقطن الحب المقدس والعمل المقدس.

كانت تدبنا جميعاً نحن نسل النقص والحاجات العنوية. بعد أن خبرتنا
شهوراً وسنوات ولم تتغير. ويوم ارتضت دخول غرفتي بمجانبة لم أتصورها تحدث في
بلاد الحوامع والطوائف، صحت من فرحي: منى أود أن أقذف بك نحو النجوم
ثم اتلقاك عارية. أوسدك اضلاعي وبعدها أموت بلا أسف. ويومها تعانقنا بحجارة
ما يزال طعمها في جسدي. فيما بعد أغلقت أبواب منى واستعصى علي الولوج. وفي
لحظات انتهازية، وهي تقدم جسدها كحجر، كان الاحتقار يغمرني فأشعر
بالتساوي مع سائر الذين عبروا هذا الجسد العظيم.

يقول راني الحزين: أيام عصيبة ستمر. أيام أشد حلقة من عصر هولاءكو
وتيمورلنك. السبي. العربي هذه المرة. يشيل الغضب في أعماقي: نبوءتك تثبط
العزائم. من أين تأتي بهذه اللوائح السود وهذه الأكفان؟ يتحدث عن العلاقات
اليومية للناس. عن الكذب والصلاة والغش والأرصدة والنخمة والتبطل الذي طغى: احدهم
يمضي سهرة لمدة ثلاث أو أربع ساعات وهو يثرثر عن الخضار واسعار اللحوم وآخر
أنواع الطبخ، ثم ينتقل نحو الالبسة والازياء وانعدام الشرف العربي، ثم يحكي عن
أسعار السيارات وغلاؤها بعد منع استيرادها. ينتقل بعد ذلك ليعدد مناقب زوجته
وقدرتها على ضبط مصروف البيت وجودة تربيها للمنزل ونظافتها. تصور هذا النوع
من العلاقات يتم في زمن تهدد فيه إسرائيل بسحق العرب واعادتهم بدواً إلى

الصحارى. هذا مثال من ملايين الأمثلة الأخرى. وبعد ذلك تقول لي من أين لك هذه الأكفان السود؟!.

وأقول: المواطن ما ذنبه. لماذا لا تعي الدولة شعبها؟ المواطن معزول!.

- قد تكون القيادة مسؤولة. والقيادة كما قلت من هذه الامة. لكن المواطن هنا لا يهتم بغير تفاهاته الشخصية: وظيفة. أكل. سكر. رشوة. وساطة. مضاجعة. جمع الاموال بالطرق اللاشريعية. ثم شتيمة الدولة في الاماكن الخاصة. هل تضع لكل مواطن شرطياً أو موجهاً سياسياً؟!

- أنا أرى أن مرحلة التحول الاولى للمجتمع، خاصة المجتمعات المتخلفة تحتاج نوعاً من الضبط القاسي الموجه. تغيير المجتمع لا يتم بمثل هذا التسبب. نحن نعيش في مجتمع متسبب. مجتمع ما يزال محكوماً بقوانين بورجوازية من الاسفل الى الأعلى. ينبغي تغيير القوانين والتشريعات البورجوازية الدينية قبل أي شيء.

- على أية حال. تغيير التاريخ والانسان لا يتم قبل مرحلة زمنية تستهلك جيلاً أو جيلين هذا ما أفهمه عن صراع الاجيال والتصاعد نحو الافضل، وخلال ذلك لن تنتظر اسرائيل. انها متقدمة علينا مئات السنين العقلية. وهذا الزمن زمنها.

- اسمع أنا أقول معك بفكرة الأجيال، لكن الثورة يمكنها أن تختصر الزمن. عندما تكون هناك ثورة حقيقية يولد شعب حقيقي. ويكون الزمن لها لا لاسرائيل. هذا هو قانون الارادة والشعوب.

نحو بحار أخرى ينعطف الحديث. يبدو راني فرحاً على غير عادته فيحدثني عن لنا وروايته. الرواية التي مضى عليه أربعة أعوام وهو ينحت فيها مثل فلاح يضرب في أرض مجفرة. لكنه متفائل بها رغم القسوة التي يعاني منها: من الصعب أن تنشر هذه الرواية في وطننا. هذا ما احسه دائماً. سوف تفهم بطريقة مختلفة. كل ما في هذا الوطن مؤنس ومحزن. ينقبض وهو يتناول كأسه. يحتسي منه فينعمد حاجباه ويلوح العكر في مشيمة عينيه: لو كنت شاعراً لرثيت هذا الوطن بأبدع من مراثي أرميا وأنا أراه محمولاً على الراحات مضمخاً بالدم يوارى فينا. لقد قتلناه. نحبك ونحب الاوطان القتيلة.

بعد انقضاء السهرة في النادي الصيني، نسير فوق أرصفة الصالحية. ننعطف باتجاه شارع أبي رمانة. يضرب راني الرصيف وحيطان الابنية برأس حذائه. يخرج شبابه وينوح. يصير الليل مرثية. ننعطف. على نعم الناي يوصلني الى بيت أمينة.

يقول: سأجلس هنا على الرصيف اغني لك وانت تنام في أحضان خليلتك ما رأيك؟.

اعبر البوابة الحديدية السوداء بهدوء. اطرق الباب بينما ترتفع موجع الناي في قلب الليل الجليل.

وتطارده ، فيهاجر خوفاً منها نحو الصحارى وهذا النواح الذي تسمعه هو بكاؤه على فراخه وأرضه الخصبة التي هاجر منها .

كانوا يتحلقون تحت الخيمة يحتسون الشاي التي أعدها لهم ، يستمعون اليه في أمور الدنيا والدين بينما يتناول خمرته على مهل . ويسأله أحدهم : لماذا تتركه يأتيك بالعشاء وحيداً في الليل ؟.

فيجيب بثقة : عليه أن يواجه الحياة لوحده . هل أودم له ؟.

- ولكنه طفل ، والقط في الليل يزرع الفزع في قلوب الرجال .

ويقول : في قلوب اشباه الرجال . ثم يضيف معترفاً : هذا من صلي . نسلي لا يخاف . جده قتل الذئب خنقاً بيديه وأنا قتلت الضبع بالعصا بينما البندقية معلقة في كتي . ابن الفلاح الاصيل لا يهاب الموت لأنه يعيش مع الموت .

وكانوا يعرفون تلك الحوادث ، ويعرفون انه روى ذلك أكثر من مرة على مسامعهم . وعندما كان يشمل كان يُصاب بحالة من التصوف لا مثيل لها . وعرفوا عنه احتقاره للضعفاء من البشر والنساء والجناء . كان يبدو قاسياً جباراً وهو يروي لهم حوادث قديمة عن الشعراء والقديسين ، ويدافع عن أبي نواس كأعظم متصوف رحاني ، وكان مثاله في القوة المتني . واذ يسألونه لماذا يحبهم كان يتسم باحتقار : لم يكونوا كذبة مثلكم ومثل شيوخمكم الحرامية ، ولا جناء وتيوساً لا يفهمون من دينهم ودنياهم إلا ما تفقهون يا بُهْم السواحل الكسالى .

ثم يردف بصحو وثأب : ورب الكعبة بامكاني الآن أن اخلق أفضل منكم . الاقطاعيون الكلاب يسرقون الماء والأرض أمام أعينكم . يبيعونكم ساعة الماء بمئة ليرة وأنتم كالخشب المسند لا تتحركون . انظروا الى هذه الأراضي كيف اصفرت ويست أمام أبصارنا ولا نحرك ساكناً .

- ماذا بيدنا ؟ لقد اشتروا الماء من الوقف فصار ملكهم . هل تلاطم العين غرزا ؟.

وبحق : الدولة ! الوقف ! هذه مياها يتزكونها تجري الى البحر واراضينا تحترق من العطش . بشر نحن أم حجارة ؟ ونحن لو فينا ذرة دم لتحركنا . أنا اشارط اذا كان الدم يجري في عروقكم .

ويقول أحدهم : وماذا نفعل يا شيخ عبد الله ؟ الاقطاعيون معهم القانون ونحن ما معنا شيء .

- ١٨ -

لقد أحب تلك السهول بالشغف نفسه الذي أحب فيه الله حتى صار جزءاً منها . حتى في الشتاء بنى كوخاً احاطه بورك قصب السكر الجاف وطيلة الفصل القارص نام فيه . وكان ينام معه على صوت الريح والمطر ودوي البحر . في تلك الليالي الموحشة روى له أموراً مبهمة عن الطبيعة والله والانسان والروح الحية في الاشياء واندماج الاشياء في حركة واحدة ، وروى له أن روح الله قائمة في الريح والانسان والحجر والماء وهذه الروح خالدة لا تنفى .

وفي جميع الاصناف كانت السهول مخضرة . أراضيها والبحر . كانت لها رائحة خاصة شديدة الجذب ، واذ كان الصيد والسمر الليلي والصراع مع الثعابين والوحوش تذكر . كان اسمه يثب عفويّاً الى ذاكرتهم وهم يسمرون على حافة الساقية ، يدخنون التبغ الرخيص ويتحدثون عن المواسم وعطش الأرض والاقطاعيين القسا .

من الغرب يلوح الافق البحري ، وبين حين وآخر يسمع زقو النورس ، هذا الطائر الذي لا يتعب من النواح والسفر من الجزر الى الشطان ومن الشطان الى المراكب التي أوقدت مصابيحها ، وراح بجارتها ينشدون وهم يرمون شباكهم وصناراتهم المطعمة .

وفي تلك الليالي البعيدة الهادئة ، كان يعبر فوق السهول وفوق خيام الفلاحين ، طائر الكروان وهو يغني بعدوبة وحنين من فقد صديقه . وكان يسأله عن هذا الطائر الحزين الذي لا يعبر إلا ليلاً فيقول له انه يهاجر صوب الصحارى . ولا يذكر انه رآه يوماً . صوته كان يثب في أذنيه في أخريات المساء ، وظل في نفسه شوق عميق لان يرى يوماً طائر الهجرات هذا .

ويسأله لماذا يهاجر في هذه الأيام فيقول : في الجزر التي يعيش فيها ، تأتي طيور غريبة شرسة في مثل هذه الأيام ، تحتل مساكنه وأراضيه بعد أن تقتل فراخه

- معاولنا تشق الصخر فلماذا لا تشق رؤوس الاقطاعيين ومن معهم؟ الانسان لا يموت مرتين. نموت اليوم لنولد غداً. الحق يؤخذ بالقوة والفلاح يظلل مسحوقاً حتى يثبت انه قوي.

واذ كان يشرف على ربع السهاري والخيمة، من وراء التلال القريبة، ويرى الفوانيس المعلقة، يرحل خوفه فيكف عن الغناء. يشعر بأنه قوي فيقول في سره: أين أنت يا ضبع طريق السهول الذي أفرغتني أمي منه؟ وكالرعد يأتيه صوت أبيه، كأنما حدس بقرب وصوله، فبرد بقوة من اطمأن الآن: ها أنذا!.

- هيا يا شبلي هيا. أنت خائف؟.

- لا... لا. أبدأ. مازقاً صمت الليل. يحس لصوته رعشة قادمة من صميم القلب. اذ ذاك ينظر اليهم شامتاً. يحتسي جرعة من كأسه ثم يقول بعنجهية مخمورة: هذا الشبل الصغير عندما ينمو سيسبي بناتكم ويديمي أولادكم العمش. بصمت يرنون الى وجوه بعضهم البعض. يهزون رؤوسهم وفجأة ينفجرون بالضحك.

من الطرقات البرية الضيقة المزروعة بالغبار والشوك والحجارة، الى شوارع الصالحية وأبي رمانة والمهدي بن بركة. ومن الضواحي الفسيحة والازقة المسكونة بالحرية والوحل ورائحة العشب والتراب، الى ضفاف الارصفة العامرة بالبيوت الفخمة والفنادق والمقاهي والخمارات وأوكار النساء.

كذلك الحال من انطاكية وصفد الى بؤرة الثورة: دمشق الحبيبة، المتألقة، الشملة، الوضاحية، العاطية، فردوس الحالمين بالمجد والخلود، اختلطت العالم واشتبك الوهم مع الحقيقة.

سطح حياتها كان يبدو رائعاً. وخلال لقاءاتنا لم يكن هناك ما يوحى بالقلق. لم تكن تمضي دقائق إلا ويضحك مسرور على نحو يوحى بالسكينة النفسية، واذ ذاك كانت مراسم البلاهة تتضح. كان وجهه يوحى بهذا الانطباع، بينما تتسم حركاته بارتباك ظاهر، تكاد تنبئ عن خشية باطنية من وجودي.

سألته: أباغار مسرور؟.

فردت هامة: من الطير اذا عبر فوقى!.

- أخاف انه يباغار مني؟.

- لا أعتقد.

- سأقول له ذلك جهاراً!.

كان مسرور يبدو فرحاً بهذه اللعبة. لم يكن يصدق انه اصطاد سمكة رائعة وان هذه السمكة له وحده وانها هنا في اثناء نحت بصره. واعجب ما كان يثير الدهشة فيه انه لم ينبس يوماً بحرف عن فلسطينه التي هوت.

واذ دخل جيبته: غازلت ديانا في غيابك. بيلاهة مبتسمة يرد: خذ حريتك. أعرفها اكثر منك لا تعذب نفسك. نصيحة أخ لاختيه لا تعلق.

- لكنك تتركها وحيدة وأنا آتي في غيابك.

- يا جبل ما يهزك ريح.

- نمشي ساعات في الليل وأنت غائب.

- تسرد لي كل شيء.

- يعني رابط حقلك بجميزة؟.

- الراعي وحده يعرف النعجة الجرباء من الصحيحة.

- أنت حر. لقد أعذر من أندر. اذ اندمت يوماً لا تقل طعنوني في الغفلة!

كانت ديانا تتبسم خلال الحوار، وتدخلت أخيراً: لا تهتم مسرور، هذا انسان فضائحي بالكلام فقط. لقد حاول لكنني صددته. وغمزتني لترى رد الفعل.

وانتهى مسرور نافراً: ملاعين. أعملونها في غيابي. ديانا. نحن اسلام هاه، وعند الحزة رقبتيك تُحرّ. وهرهر ضحكة صفراء.

وقلت: لا تغطّها. بيّنت. يعيش التقدمي الثوري المعاصر. يا...

واشركنا معاً في الضحك.

[]

في مساء ذلك اليوم قال الرجل التاريخي والد مسرور هازئاً مني ومن مسرور الغائب: أهذا جيل يحزّر بلداً؟ هذا جيل نساء وفليّنة وحكي.

كنا نجلس في ساحة الدار. وكان هناك عشب وجدار مرتفع وديانا تتشع بغلالة شفافة ممددة على كرسي من قش، مادة ساقيا العاجيتين. وفي وجهها حزن خاص.

وتابع الرجل القديم الجاثي قربي : عبدالله خان. هاه ! قاد جيوش العرب ثم طعنهم في الخلف. طيب آمنا. اخواننا هؤلاء الذين زحموا الدنيا بالاصوات والتحرير لماذا لم يحرروها. اسمع أقل لك؟ شهاب الدين... عيب نكمل في حضور الحرمه. بدا نزقاً وهو يلوح رأسه بيأس. في جبينه بان غضب وراح يهاجم بصراحة مدهشة. بصدق من جرحته المأساة وخيل اليه انها اندلعت وهاهي الجراح تنفتق. حكى عن المآسي التي وقعت والمذابح والمؤامرات والخيانات وحرب القسام ضد اليهود والانكليز. وقال انه عصي في الجبال شهوراً وحاول الانكليز أن يرشوه ليكشف عن حربهم، أعطوه مرتباً لكنه استمر في مهاجمة المصفحات والدوريات بيندقته التي استولى عليها من العصابات اليهودية، وكانت معه «شبرية» ذبح بها ضابطاً انكليزياً برتبة كومندان. كان الانكليز يتقدمون نحو القرى والجبال بحثاً عن الثوار ووزاءهم الدوريات اليهودية. كانوا يسلمونهم فلسطين قبل خروجهم. واذ كانوا يفشلون في العثور على المجاهدين، يهاجمون القرى الآمنة يدمرونها ويذبحون الاطفال والنساء كما ذبح النعاج.

وسألته : لكن الارض لماذا بيعت؟

واحتد : كلكم يسأل عن ذلك. الذين باعوا الأراضي عائلات اقطاعية هاجرت من سورية ومصر ولبنان كآل سرق وغندور وسلام والحلي، أما الفلاحون فلم يبيعوا شيئاً واحداً، لقد أرغموا ودُفعوا على الهجرة بالقوة. قُتل من قُتل وطُرد الباقي. أنت لم ترَ الارهاب الصهيوني والمذابح ومعسكرات الاعتقال. وفجأة كشف عن صدره : انظر. واراد أن يكشف عن ظهره فاستحيا. ولاح صدره ممزقاً بأثلام عميقة بدت وكأنها التأمت لنفسها. كان الآن في فة غضبه وقهره.

وسألته : لماذا استسلم؟ فقال : لقد طوقوني ولم يكن معي خرطوشة وقد تشتت شمل الثوار. ثم أردف وهو يزرر جلبابه : في الماضي كان يوجد رجال أما الآن. هه. أين الرجال؟ يا ابني عمري الآن ثمانون عاماً. اعطني بارودة من هذه التي تسمونها «الكلاشينوف». لا ادري ما اسمها وسوف ترى. في الـ ٣٦ حاربنا بينادق من حرب الـ ١٤ من أصل خمس طلقات واحدة تطق، وبعد أن تحمي تشلح الرصاص على بعد متر.

وقلت : لكن هذا العصر لم يعد عصر البنادق. أصبحنا في عصر الصواريخ والنابال والمخابرات.

فانتزق عاقداً غضبه : ماذا يفيد كل هذا أمام شجاعة الرجال. في كل العصور الرجال هم الأصل. صرنا في عصر الحريم يا ابني. المرأة هي التي تأمر الرجل والرجل ينفذ.

انجلت غمة ديانا فحاولت التدخل : ما دخل الحريم بفلسطين؟ انت رجل خرف لا تدري ما تقول !.

نظر نحوها ثم تحول الي : اسمع كيف تخاطبني. أنا كجدها وتتحدث معي هكذا. فكيف اذا ما خاطبت زوجها. أهذه زوجة؟ هذه فرعونة أجازنا الله منها. المرأة في زماننا اذا ما تحدث الرجل تصمت. يقول لها موتي تمب. أما الآن فالعياذ بالله. اجرنا يا رب العالمين من هذا الجليل. وتتم وهو يدرج لفافته : لا بد ان القيامة على الابواب.

كان الألم منشوراً على محياه، بينما حاولنا مشروع ابتسامة أنا وديانا على كلمة فرعونة.

□

هو الحزن ثم اليأس، يزحان نفساً قوية كالتيار، متوهجة كالغضب، عندما الزمن يأخذ بعقل كل الانفعالات، محولاً الرجال المتأججين الى مجرد خرق مرمية في جبانة التاريخ. غير انه مكابر يحاول أن يخترق الزمن ويخطو. ومذ تشوش ذهن العربي احتسنى بردود الفعل، وطقن أخيه ورمي الخسائر في ظهره، ما عاد هو في هبوب الزمن. ويقول محسوراً رافضاً : لست المنهزم. انما انتم الذين أوقفتم دائماً اطلاق النار عندما توقف العقل عن حيويته. وعندما تحولت الشجاعة الى تعويض صاحب ضد الاستعمار والاستراتيجيات والتحضير الثوري الطويل الأمد.

وهم الآن يقهرونك لأن دقة التاريخ بيدهم. وأنت ضعيف وفقير في هذا الوقت، تسكن الطوابق السفلى في حين يسكنون الطوابق العليا. يقولون للأشياء : كوني تكن. والذي يحصد خسائر الوطن أنت، وبك أيها المخدوع الصغير تتمسح كل هزائم التاريخ، والذي قاله سامر البدوي عن روح الشعب صحيح. لكن الشعب كما قال راني غائب. وروح الشعب تسكن في الامم والتحدّي. ولكن هل في تاريخ العالم ما هو أكثر ألماً وتحدياً من هذا الذي يحتاج وطن العرب في هذه الايام العvisية؟ وحتماً تنتظر هذه الروح حتى تخرج من منفاها؟ وهل ثمة لعنة مست تلك الروح فارتجت دونها الابواب حتى كادت تختنق؟.

ولأن تلك الأم كانت قاصرة وغبية كان يحتقرها. كانت حكاية النسل تعذبه. ولذا مذ بدأ يحسن المشي فصله عنها. كان يرفض أن يكون من نسلها الغبي القاصر. ولينشئه على هواه، روى له حكايات عن الصيد والقتل واختراق الوديان والليالي الثلجية. كان يصطحبه معه بعيداً عنها الى البراري والسهول، ومنذ بدأ يعرف التسديد اشترى له بندقية ودربه كيف يطلق النار على الطرائد، وكان يردد على مسامعه: النساء كالافاعي اسحق رؤوسها جيداً.

انه يتذكر الآن بوضوح كيف كان يضربها بكل قسوة ووحشية، بينما يتمزق ألماً اذ يراها مكومة تحت جسده المنحني. قبضته تنال عليها بلا شفقة، وعيناه تبرقان لاهثاً كحيوان طعن للتو.

يحسده الصغير يحاول أن يحمى، وهو يكي والضربات تنال فوقها. واذ يتوقف، يسب ويصق ثم يخرج الى أقرب خجارة لينفث ما تبقى من غضبه. في ذلك الزمن العميق المنسي، كان الصدع يبدأ تشعباته الأولى فوق زجاج النفس، وبين الشعيرات كان الخوف والمقت، يرسمان معالم تهشيم الماضي والصلة المقطوعة بينها.

وفي يوم قانظ طارد أفعى في حقل الذرة فقتلها قبل أن تصل وكرها. أفعى سوداء اصابتها في وسطها فانشلت وراحت تتململ بوجع مادة لسانها الاحمر. بوحشية ضربها على رأسها مرة ومرة ثم تناول حجراً هرس به رأسها حتى خمدت لكن ذيلها بقي يتحرك. وتذكر كلمته بان حركة الذنب لن تتوقف حتى يطلع القمر.

بعد ذلك أمسك بذنبها وقاسها على جسمه. كانت أطول منه. سحبها الى السياج المجاور للخيمة ونشرها فوقه كقطعة جيل فبدت كأنها لم تمت. يومها وهو يعود الى ظل الخيمة شعر بخوفه وقد انكسر، وانه الآن رجل في نظر ذلك الفلاح القاسي الحكيم.

- ١٩ -

جيداً كنت أعرف تاريخها من الجميع. ويوماً ما لم أسأها عن التفاصيل. لكن أحزن الأشياء تخيل كل واحد منهم انه ما زال يحبها في الوقت الذي يخونها مع كل مشرق ومغرب شمس.

لقد تجاوزت حزنها حتى الالهال، وكانت تنبئ عن ذلك بقولها: الأوفياء الخونة يتحدثون عني في مجالسهم كسلعة في سوق النخاسة. يتاجرون بي ليستمروا.

وفي تلك الأيام تحدثنا بحجارة عن العلائق والزمن. وقالت بأنها كتبت قصيدة رمزية عنوانها الفصول. وقلت لها اقري لي شيئاً منها. وبسخرية مرة قرأت المقطع الأول:

«في الخريف تبدو الاغصان جافة،
كذلك الأرض

وفي الصيف تغور الينابيع تحت جلد الأرض
واذ يقبل الشتاء تشتعل الذكريات
وتنبثق

لكن الربيع يظل خديعة كاذبة لها روائح
سريعاً ما تتبدد».

وسألته: هل تدركين جيداً ماذا تكتبين؟.

فردت: لست ساذجة كما تتصور. كل ما في الامر انني احاول بالشعر التعبير عن ألمي المكبوت. وقلت: بان حالة الشعر عندك فطرية لا واعية بحاجة الى شيء من الوعي. تعابرك تتسم برومانسية ذات طابع طهري والعصر الذي نحياه عصر متأرجح.

وقالت: قد أكون مثالية. لكن قل لي: ماذا يكون الانسان بعد أن يفجعه الواقع؟

- شيئاً آخر غير الارتداد الى النفس والدوران المركزي حول الذات.

- مغامرة أخرى؟

- أبعد من المغامرة.

- لكنني ابتليت بالمغامرين. هل أعدّهم لك؟

وقلت: لا. أعرفهم. ما قصده حالة جديدة من الصحو والاستيقاظ أبعد

من السلبية واللامبالاة وعشق الذات.

وقالت بغضب: عشقت وعشقت بما فيه الكفاية، حتى صرت مومساً على شفاه هؤلاء الناس. في جميع الفصول خبرتهم وماذا كانت النتيجة؟ ابنة مرمية في الجنوب وزوج قتيل ثم عشاق سكارى ونرجسيون يبحثون عن ملذاتهم، سفلة وسفاحون غارقون حتى رؤوسهم في امتيازاتهم. وجوه متشابهة. كلمات متشابهة. ساحات حرب. زيف. كذب. ضوضاء. بيع وشراء. وبعد هذا تسألني عن الحب العفوي. الحب النابع من القلب؟

كالرياح تعبر البحيرات، مكونة خلال هبوبها أمواجاً. كالبط يهاجر موسمياً من مناطق الدفء نحو المناطق الباردة، هكذا تبدو رحلة العبور فوق دمشق المسحورة: وطن منى والخيبات.

وغير الروائع، غير الماضي المورق بالحزن، وغير العجز، لا يبقى خلال هذه الرحلة.

هوذا المطر. شوارع مبتلة وشجر عارٍ إلا من الأغصان الشبيهة بالأضلاع، تشفّ تحت المطر المضاء، وفي الذاكرة تذكرات تمضي. صور وأطياف للحظات عبرت لا تعود. حزن باتساع هذا الفضاء ولا شيء آخر. وعن الفرامل تُرفع الأرجل فتמضي سيارة وائل، والزمن القاتل هو السيد بلا منازع.

كان مضيقاً مثيراً للشجن في تلك الليلة الممطرة. المساحتان تتحركان بآلية رتيبة مضجرة. مُسَهَبَان فوق إسفلت زلق على طرفيه أشجار. وكعادته كان موثقاً بماضيه المستلقي في قرارته. في ذهنه مليون حكاية حدثت أو هو مستعد لاختراعها ليثبت أنه شيء خاص متفرد في هذا العالم. وما كان في ذهني أي شيء إذ ذاك يستحق الاهتمام.

وخرج عن صمته. تحدث عن القذارة والخيانة والجنس كيف يسد بوابة الإبداع في الإنسان العربي، ثم السياسة تفريقاً عن حالة الجنس المحترقة. كانت سرعة اندفاع السيارة أو تباطؤها يتناسبان مع الحالة الشخصية. وبدا مدركاً على نحو غوغائي القصور العام للأشياء، لكنه لم يستطع أن يوضح ذلك. تناول الحزب والدولة والإنسان وقال: لا جدوى من كل ما يحدث. يبدو أننا مَحْدُوعُونَ ومُسَوَّقُونَ كسائمة في تيه ليس له تخوم.

وسألته: لكنك تستمر وأنت تدرك ذلك؟ وإذا فجأه السؤال ابتدرني: ما العمل؟

وحوم في الذهن السؤال: من القرية إلى دمشق ومن دمشق إلى القاهرة، ومن حطين إلى عصر الانقلابات الصاخبة: ما العمل؟

كان الجواب غامضاً بقدر ما هو واضح. ممكناً بقدر ما هو مستحيل. ولوهلة بدا وكأن العرب بانتظار معجزة كتلك التي حدثت يوماً في صحرائهم في الزمن القديم، لكنها لن تكون سماوية هذه المرة.

وسألني: جيلنا هل يستطيع ذلك؟

- في أي جيل إذن؟

- ربما في جيل آخر سيأتي.

ونحرت رافضاً أن أكون ضحية. وقال: نحن ناقصون.

وقلت: يمكن سد هذا النقص. لسنا أكثر نقصاً من الصينيين.

وقال: حتى يسدّ هذا النقص نكون قد مضينا.

وقلت: عندما تكون هناك ثورة تحدث المعجزة. ينكسر زمن ويبدأ زمن آخر.

تأفف: إنك تتحدث أبداً عن الثورة، ما هذا الذي نحن فيه إذن؟

قلت ساخراً: وما قتلوه وما صلبوه لكن شبه لهم!.

[]

جدّ جدّ جدّه، هزم الرومان والصليبيين والأتراك والطلليان والانكليز والفرنسيين. - والأميركان والصهاينة. هل يخرج لهم خالد وصلاح الدين وعمر المختار وعبد القادر

ومن محيط الوطن إلى خليجه، كان البسطاء يدركون كيف يمكن أن يُهزم الغزاة، لكن القليل من المنتظمين لقيادة العصر والإنسان كانوا يدركون أين يمكن سوس الإنقراض!

وهؤلاء بالذات، كانت حبال السلطة قد أوثقتهم وحرمت عليهم تخطي الحدود بغير جوازات سفر موقعة من المؤسسات التي اخترعوها لتكون السد بين العربي ووطنه. لقد انعطبت ذاكرتهم.

منذ سبعة عشر عاماً وهو ملقى. قعيد البيت منسي. مسجى على فراش وثير، حاملاً بين ضلوعه المطعونة كل الحزن وكل القهر وكل المعجز.

- وائل...

ويهرع إليه. يسأله: من معك؟

فيجيب: صديقي شبلي.

- دعني أراه.

ويطلبني.

ولأول مرة في حياتي أراه. غمرة من الرهبة والحلال والحزن العميق تنتشر في داخلي. جاهداً يحاول النهوض ليسلم فأرجوه ألا يفعل.

أحس بقبضته القوية تجمع أصابعي تكاد تحطمها فأسحبها. ويطلب إلي أن أجلس قربه.

المطر يريخ في الخارج بخفوت يثير الوجع، والرجل الذي بدا صحيح الجسد وهو ساكن، يتسم ويسألني عن أحوالي وصداقتي مع وائل وأحوال الوطن. باقتضاب أجيب وأنا أتملى وجهه الخابي الوميض وعينييه الواسعتين وشاربه الكث وصدرة العريض.

كان نصفه الأعلى مرفوعاً قليلاً يستند على مخدتين بينا النصف الأسفل ينساب تحت اللحاف، ومن طرف خفي كنت ألمح ذلك النصف الميت.

من السرة حتى الرأس كان يتحرك، ويتحدث بحبوية رجل صارع الحياة وما خاف العواقب. وقال بمرارة: لكن الإنسان يقع أخيراً كما ترى. الجسد يخون الإنسان في النهاية.

وسألني إن كنت قد خدمت في الجيش وفي أي مكان، فقلت بأن خدمتي كانت في القطاع الشمالي من الجبهة. شعرت بنظراته تخترق جدران الغرفة، بينا لاح في وجهه ظل من أسى قديم. وقدم وائل ومعه القهوة. وقال لوائل: دخن. دخن، وقدم لصديقك مع القهوة. وقال وائل: لا عليك بابا.

والح عليه أن يدخن ففعل محرجاً وقدم لي، ودهشت أنه لا يدخن في حضوره.

لم أكن أدري كيف أثيرة ليحكي لنا شيئاً من ذلك الماضي الذي عاشه في معارك حية، رغم أن وائل حدثني قليلاً عن ذلك وفي كتب التاريخ والبيانات السياسية قرأت حتى أتخمت.

وقال وائل: بابا. صديقي يعرف عنك قبل أن يراك!

وهز رأسه دهشاً: وماذا يعرف؟ وقلت بسرعة: أنك أحد أبطال فلسطين.

وقال: بل قل أحد الضحايا.

ومهمت: الضحية بطل مزدوج.

وهز رأسه: ولكن ما الفائدة!

وسألته: هل تعتقد أن فلسطين ضاعت بالخيانة أو الجبن وهل تعود؟

وببطء رفع نصف جسده. لم يكن ينظر إلينا عندما بدأ يروي عن بداية الحرب، والتقدم المتواصل بلا مقاومة من جسر بنات يعقوب إلى كهوش ونجمة الصبح حتى صفد. حقول الألغام تفجرها أجساد الرجال. أصوات: الله أكبر يا فرسان العرب النصر لكم تقدموا فاليهود يفرون أمامكم.

كانوا يخلون القرى والزحف مستمر. كنت قائد فصيلة مشاة، والأسلحة قليلة وكذلك الذخيرة، لكن عزائم الرجال وإيمانهم كانت من فولاذ. بنادق من مختلف الأصناف. خناجر وبنادق صيد وفؤوس لكن كان هناك رجال بالمعنى الصحيح يأكلون الأرض ويخيفون الموت.

كان يضغط على الكلمات محركاً قبضته أحياناً وفي عينييه بريق ولدته الآن ذكرى المعارك. وروى كيف دخلت الجيوش العربية في أيار من ذلك العام الأسود.

العام الذي أصبح تاريخاً كعام سقوط القسطنطينية وبغداد، وأن دور المجاهدين أصبح ثانوياً بعد دخول الجيوش العربية.

تفاءلنا. أصبح النصر مؤكداً. أربعة جيوش بدأت زحفها من أطراف فلسطين وقائدها الأعلى الملك عبد الله وقائد العمليات كلوب باشا. وتواردت الأخبار وانتشرت بأن اللقاء سيتم في تل أبيب وانتظرنا. وكانت النتيجة ما حدث.

وبدا الآن حزناً منهكاً. طلب لفافة فأشعل له وائل فزفر الدخان بغضب.

عندما كان يحكي لم تكن له ملامح مميزة. وجه حزين ومقهور، وبصعوبة كان يتحرك. وخلال ذلك كان وائل صامتاً كحجر يعصر يديه ببعضها البعض، زافراً تهدياته مع دخان اللفاف التي استهلكها، ومظم الوقت مطرق نحو الأرض وسألته: لكنك لم تجبني تماماً عن سؤالي. أعني الجبن أم الخيانة؟ وقال يوثق: كنا بحاجة إلى فصيل انتحاري عندما اصطدمنا بحقول الألغام ولم تكن لدينا كاسحات ألغام. كان لابد من شق طريق للجيش المتقدم عبر هذه الحقول. تصور أي نوع من الرجال كان أولئك الذين تطوعوا وهم يعرفون انهم سيموتون. بالرتل على عرض متر كانوا يتقدمون. اثنان اثنان على خط متواز. وبدأت الانفجارات وشطايا القتلى تتطاير مع أصوات الله أكبر. هذا ماذا تسميه؟

- بسالة خارقة ولكن هل هي منطقية؟

وقال: معارك بيرل هاربر وانقضاض الطيارين اليابانيين على الأسطول الأمريكي في الباسيفيك منطقية أم لا؟ ثم هل كان لدينا كاسحات ألغام في ذلك الوقت ونحن بأمس الحاجة إلى خرطوشة؟

- لكن كانت هناك فوضى لا مثيل لها. لقد خيضت تلك الحرب على غرار حروب الجاهلية القديمة. الحرب لا تكسبها الشجاعة فقط.

ورد: هذا صحيح. لم يكن هناك تنظيم. كنا نقاتل بفصائل وكتائب لا ارتباط بينها. ولكن كانت هناك الخيانة والأسلحة المتخلفة والفاصلة. كانت القيادة العليا متواطئة مع الإنكليز واليهود. فكلوب باشا سحب قوات الجيش الأردني التي كانت مرابطة في اللد والرملة بحجة الهدنة الأولى التي تمت في (١١) أيار. قبل عشرة أيام من الهدنة ليتيح لليهود فرصة التآهب لاحتلالها. لكنه أخلف

وعده عندما استؤنف القتال في (٩) تموز فسقطت اللد والرملة. وكان القصد من ذلك تنفيذ أوامر الملك عبد الله الذي أراد توسيع حدود مملكته على حساب تقسيم فلسطين مع الصهاينة، ولكي يحقق ذلك لم يسمح للجيش العراقي بالتدخل، فبني مجدداً حتى غادر فلسطين. وتحققت هزيمة الجيش المصري بعد تسليم اللد والرملة حيث انكشفت ميمنة هذا الجيش. كما سحب عبد الله الكتيبة الأردنية التي كانت ترابط في النقب ففتح بذلك الطريق أمام الصهاينة لاحتلال العقبة، وعلى هذا النحو عزل الجيش المصري في منطقة الخليل وقام سور من القوات الصهيونية بين مصر وما تبقى من الضفة الغربية، لقد عرف الصهاينة تطلع عبد الله لحكم المنطقة الباقية من فلسطين، وطلبوا منه المثلث مقابل اعترافهم بالوفد الأردني متكلماً باسم الجيش العراقي في مباحثات الهدنة برودرس، وقد قبلت الحكومة الأردنية بذلك. وهكذا استطاع الصهاينة البقاء في القدس واحتلوا اللد والرملة وتوسعوا نحو الجنوب فاحتلوا العقبة بعد النقب. خلال أيام تمكنت الجيوش العربية من احتلال القسم الأكبر من فلسطين، لكن هدنة الخيانة أضاعت كل شيء فيما بعد. أنتم تعرفون ما تبقى. وبقسوة سحق عقب اللفافة في المنفضة.

كيف تذكرت مني. ووالد وائل الأسدي يسرد التاريخ الأسود، لا أدري! كان المطر ما يزال يهيم، وجو الغرفة مغلف بالدخان والأسى العميق، وتهيدات وائل المقهورة تصاعد بين حين وآخر.

عدلتُ عن سؤالي الأخير: هل تعود؟

وأنا أرى مني منفية عن دمشق، ووائل يضرب بعنف وجوهه وصدور ورقاب الرجال. والنساء على السواء دون شفقة. وإذ خيم الصمت وثبت إلى مخيلتي صورته محمولاً فوق محفة نحو مركز إخلاء الجرحى، ثم حضر وائل.

لم يكن يسمع صراخهم. وجهه قان مهتاج. والوجه والصدور والأرجل تشنج ثم ترتعش ثم تسقط اعياء وأحياناً تودع الحركة إلى الأبد. جرحى ومشوهون وموتى. خرجوا من تلك الأقيمة المظلمة. بالأكف والعصي وأشرطة الكهرباء والأسياخ المحماة، ضربوا. وكانت أصواتهم تتخامد وتمتصها الجدران. الحجاب يحدهم الذين أذلهم رعب ما يحدث، سمعوا الصراخ. وكان هو هناك على كرسيه هزاز بين عشرات معدات التعذيب وآلات التسجيل والهواتف والأرائك المريحة،

يدخن ويحتسي الويسكي ويسمع الموسيقى، كان هناك بوجهه القاسي المعجون
بالغطرسة ومرارة الماضي. لا يعرف الابتسام أبداً.

- ٢٠ -

كان الإتجاه الآن شوارع المدينة التي لم تُرتدّ بعد، أسفل قاسيون حيث
يفترض الأمان من العيون. وما كان أحد ليصدق أن فرق عشرين عاماً بين كل منا
نحن الثلاثة يعني الأمومة أو الأبوة. وعبر الشارع الخالي بدأت سمية تنط كأرنبة
اجتاحها فرح آمن.

نلج شارعاً آخر خافت الضوء مسيحاً بالياسمين والخلو الإنساني. في الظلمة
نحاذي عرائش الياسمين. أمسك أصابع يدها اليسرى. أضغط فتضغط ويهزني وجع
جسدي، فأهفو احتضانها في هلام الظلمة مثاراً بعقب الياسمين. سمية تقبل واثبة
امامنا فتتحدّر ذراعي عن خصرها. تقطف زهرتين تناول أمها وتناولني. تغنج قربنا:
سنسمي هذا الشارع... ماذا ماما؟

وتضحك أمينة. ترفع كفها خبثاً: لا أدري. سمّه أنت! وتضغط أصابعي
فأقول: شارع الروائح. يفتر ثغر سمية فتقول: لا. شارع العشاق. ثم تقفز مبتعدة.
الشارع ذاته سرنا فيه. في هذه النقطة حاولت تقبيلها. كنت أرتعش من الخوف
وضوع الياسمين وذكريات منى. أذكر أنني أوقفنا قرب هذه العريشة، ورحت أتملى
وجهها الناعم العذب وشفيتها المندفعتين بتحدٍ سافر نحو الأمام. كان خذاها بين
راحتي كني. وعيناي مثبتتين مباشرة في عينها المتقددين في الظلمة، وكان نحرها يلتمع
تحت انعكاس الرغبة. وفي تلك اللحظة كنت أحبها، وفي تلك اللحظة لم تكن
هناك خيانة. فقط كان الخوف من شيء مجهول سيسبب ألماً في المستقبل. كانت
بشرتها حارة تحت أصابعي، وئديها يرتجفان خوفاً وشهوة وتوجساً. وتمنى كل منا
أن يحدث ذلك الشيء الخاطف العذب. وفي تلك اللحظة تبدت عاشقة باستسلام
لا صفة له. كان كلانا يرتعش. وكان تعارفنا طفلاً لم يعرف الملامسة بعد. بدونا
كأنما نولد في هذا العتم الخاص. وتمنى كل منا لو يعود سنوات إلى الوراء. يدبر

عربة الزمن نحو الاتجاه الصحيح. كنا صامتين في مدار الزمن. وفجأة سرنا كما قبل الثواني التي عبر فيها هذا البرق، وبيننا مشى الحزن.

ها نحن قرب سفح قاسيون، أمام حديقة نفتش عن مكان للتسلل داخلها. أطلب من سمية أن ترصد حركة الحارس الليلي. تقول سمية لشب فوق السياج لكن أمينة تحس بالخرج.. وتتوقف.

دمشق تحت أبصارنا. مرج من الضوء الملأ والسطوح الحجرية. أقطف زهرة أناولها أمينة. تشمها، ثم تقبلها. وبحنو عاشقة تنظر نحوي وتأوه. أرفع بصري إلى وجهها المغضن وجسدها الصلب فينتابني حس الائم. أحدها عن السفر فتقول بأنها على استعداد للسفر معي إلى أي مكان في الأرض. أقول بأن أمامي مستقبلاً ولن يطول غيابي. فتلتفت مذعورة: هل ضجرت مني؟

أكذب. معها كنت أكذب عدا لحظة المضاجعة. لا أستطيع أن أفهمها معنى الضجر، ولا معنى خيالي في دمشق. ومعها اشعر بأعياء اللغة. ولو قلت لها: بأنك صدقة. مجرد اعتراض مرضي اعتراني في غياب مني. لفهمت مني بأنها شيء لا قيمة له. وكان ذلك كافياً لتحطيمها. وستقول أيضاً: هكذا الرجال إلى أن يحصلوا على المرأة عبيد وبعد ذلك يلفظونها. كلكم كلاب وسفلة.

كان صعباً حتى الاستحالة إفهامها معنى النقص الحسي والنفسي في الرجل والمرأة. وإذ غرقنا في حديث السفر والرحيل عن دمشق شككت بأن ذلك تبطين للهروب منها. وما كان ذلك صحيحاً تماماً. فقد بدت الأيام الأخيرة مشحونة باليأس. وعادت الأفراح القديمة حول الاغتراب والاكتشافات الجديدة خارج الوطن، تدندن. كان ذلك حلماً قديماً عشته زمناً قبل أن تفقد دمشق. وكانت أمك تسميه: الموال الذي يدوم في رأسك وستغنيه يوماً.

لقد عاد الموال القديم. أحسه الآن يزغف من جديد طالعاً من جدران الذاكرة، مدففاً كالموج بعد أن باشرت دمشق انسحابها وبدت الاكتشافات وآمال الذهن ومنى. مجرد أسطورة صاغها خيال طفل ربي مهاجر، كان يبحث عبثاً عن أمان ونيابيع وحب وحرية وشموس لا تغرب.

هي ذي أمينة تحفّ بي. سمية تجري فوق الرصيف. تقترب حيناً ثم تبتعد عنا. نسير بصمت. من بعيد تلوح مدن غربية. مدن فيها ناس يحملون وجوهاً

جديدة أود أن أعرفها، لغات أتمنى لو أعلمها. حضارات، علائق وقيم مختلفة، وكتب لم أقرأها. بعنف كنت أهفو للخروج من هذه المدينة العتيقة، لأن أجري صوب تلك المدن الغربية.

اكتشفت سمية ثغرة في سياج الحديقة فهرولت نخبرنا. ودخلنا.

كان الناس يملون رانين بدھشة إلى هذه الأسرة المستلقية بلا مبالاة فوق العشب.

وقالت سمية: الناس لماذا يحدقون فينا وكأننا لصوص؟

وسألتها: أنت ما رأيك؟

وأجابت مباشرة: الناس سيئون.

قلت دهشاً: سيئون! لماذا؟

- لأنهم يشكون بالاخوة.

وقلت: ولكن. هل نحن أخوة؟

قالت باستغراب: نحن أصدقاء وأهل فلماذا. يأكلوننا بعيونهم؟

ضحكنا معاً: عيونهم جائعة. ساعيمهم سمية!

وخرجنا.

اتجهنا نحو البيت. صوب جامع أيوب السرحان حيث يقيم طقوسه مع الخمر والزمن، منتظراً عودة المرأة التي أخلصت له كل سنوات ما قبل اليقظة.

[]

عندما احتوتنا الغرفة في تلك الليلة، كانت حية راغبة، لكنها كانت خائفة من الشكليات، وكنت مصمماً على إيقاظها. وفي تلك الليلة حككت لي بأنها محسوبة على رجل لا هم له إلا الخمرة والدوار خارج البيت. رجل منحرف يعاشر سفلة الناس في الأماكن المشبوهة والخارات. يبدد أمواله على ملذاته ولا يعنيه بيته. وأذكر أنني قلت لها أنت إنسانة ولك حياتك لا تبالي به، عيشي عمرك كما ينبغي لامرأة جميلة مثلك. حدث ذلك في الشتاء، والمطر يرن على النوافذ والريح تحفق بالستائر الحمر فتواجهها على نحو عذب مثير. وكانت قبالي، وجهها متألق بفرح جديد، وجسدها مستلق داخل ثوب النوم المشجر. جسد خيل إلي بعد أن روت

ويكون اقتتال ويكون جوع وجور وقلة دين وسأموت مسموماً. أنظر إلى هذه الأراضي كلها كانت للأسرة. باعوها واشتروا بأثمانها خمرًا ونساء وزندقة بعد أن هاجروا وسكنوا المدن. وفي معظم الليالي كانت روحه تحوم فوق هذه السهول. وقبل الفجر يأتيني بعماته البيضاء ووجهه الحزين. كنت أرى السم واقفاً تحت جلد وجهه.

لم يكن يحدثني. كان يقف فوق رأسي كشاهدة قبر وأنا أرتجف. سمومه يسرقوا الأرض. اكتفى بلعنهم وهو يخرج من منازلهم. في الطعام وضعوا السم ولما أحس بسرانه عبر دمه صاح بخادمه: هيا يا شذود. هيا. على الرف يوجد دواء داخل زجاجة خضراء تأتي به وتعود كالبرق. ما عاد بإمكانني أن أسير. خذ الزرقا يا شذود وسابق الريح. وقال شذود: ما الأمر يا سيدي؟ وقال جددك لخادمه: السم يا شذود. هيا. الكلاب سموني.

وانطلق الفتى يخترق الريح. ودّ لو يطوي الأرض. وهو يروي كان حزيناً. قال بعد صمت: مات جددك هناك بين الأعشاب. عندما عاد شذود رآه وفي فمه حفنة عشب وتراب.

كانت له رؤى القديسين. لكنها كانت قديمة ومشوشة. كان يتحدث وهو بين النوم واليقظة عن عوالم غريبة كأنما يخاطب أرواحاً. يحكي في صمت الليالي تحت ضوء القمر عن أزمنة غبرت. الخير والشر. الحلال والحرام. الكتب السرية ونبوءات المستقبل. كان يقول بأن قطع الأصابع الخمس تعني شيئاً آخر غير الأصابع. فالأصابع تشير إلى الوقت، وقطع الوقت يشير إلى الغياب، وأول إصبع قطعت هي رأس الحسين في كربلاء، والثانية تشير إلى الكتب التي رُميت في نهر دجلة. عندما تنمو وتكبر اقرأ أبا نواس وابن عربي وابن الفارض وابن سيرين. وسألته عن ابن سيرين فقال: عالم جليل يفسر الأحلام بغير ما تظهر في الرؤيا.

إن ذلك ليبدو الآن مثل ضبابية. أحاول استعادته فيترلق. محض طيوف تشبه طيوراً لا تُعرف أنهاؤها. كان يهجن عن رجل غريب يخرج من عين الشمس ومعه رجال قلائل. رجل لم تعرف الدنيا مثله. عندما يأتي يصبح بالقوم صيحة يسمعا أهل الأرض والسماء. يكون ختم اللعنة وسيف الله. ذلك الرجل سيبيد الحق إلى نصابه. يجمع الشتات ويكون له في الأرض دوي. يمتطي فرساً بيضاء

حكايته المؤسسة مع زوجها، انه قد مضى عليه دهر من الاغفاء ولم يلمس. وقلت بعد أن شربت القهوة: أمانة أنت امرأة فاتنة ومظلومة. وابتسمت بخفر خافضة بصرها نحو الأرض. في الليلة ذاتها عانقتها. في البدء مانعت كأني امرأة شرعية، ثم استسلمت بكل الريح المحتبسة من قرون داخل جسدها. حدث ذلك وأنا أودعها خارجاً. ضغطت على أصابعها فضغطت هي بدورها. تراجعت عن الخروج. بهدوء سحبت كني. وضعتها على كتفها ثم ما لبثت أن انزلت نحو ظهرها. كنا نرتعش وقد صار جسمها الآن بين ذراعي، وكنت أحس ارتعاد جسدها الطري الأملس تحت أناملي، وإذا دخل وجهي تحت دغل شعرها المنساب، والتصق خداننا، هبت رائحتها الأمومية المهيبة.

على الخوان قبلتها بشغف وعدوية، على شفتيها وعنقها وخلف أذنها. وفي تلك اللحظة بدت مسحورة، ملتبة كحجارة الصيف. كانت تتنفس وتئن بكل جسدها الذي هُجر. وفيها بعد منحت كما ينبغي لامرأة عاصفة تعرف العشق لأول مرة.

□

هكذا دمشق المدينة التي لا تنسى. المدينة التي نحن إليها بعد أن تغادرها بزمان قصير. امرأة عذبة حارة لا تعوض كما عبر سامر البدوي، كاهن الجنس: تسحبك يوماً إلى مخدعها، تعطيك ما ترغب، وفيها بعد تصبح ممسوساً. ثم لا تلبث هي أن تبدأ بالانسلاخ والهجر بحثاً عن فريسة جديدة فتية.

ولم يكشف أحد السر.

وقبل مملكة أبواب السرحان تقوّضت ممالك.

وقالوا أنها ملعونة أبد الدهر.

وقالوا أن دم هابيل يصرخ.

وان أرواح الأنبياء الذين هلكوا في مغاور الجوع تهيئ في ظلال قاسيون مطالبة بالثأر.

وقال ذلك الفلاح الحكيم: انها لعنة. رأيت في الحلم أصابع يدي اليمنى الخمس وقد قطعت بفأس، قطعها يد أخي، وسألته لماذا فعلت ذلك؟ فقال تنفيذاً لوصية الجد الأكبر. قبل أن يموت لعنتنا وتنبأ لنا بأيام سود ستباع فيها الأراضي

وعليه جبة خضراء. يعبر الصحراء شاهراً سيفه والقوم وراءه. بسيفه يقتل الأعور الدجال وفي الجبال والسهول يتشتت شمل اليهود. يختبئون وراء الصخور والأشجار فتصبح كل صخرة وكل حجر: يا عبد الله. هذا عبراني ورائي. ذلك يكون نهاية عصر التسمم وبداية عصر مضي فتعم المسرة والسلام أرض الأنبياء إلى الأبد.

[]

صرح السيناتور ميناجيم ييغن (لينيويورك تايمز): «لم يعد هناك ما يسمى بفلسطين بعد الآن. فأرض إسرائيل التاريخية لا تتسع إلا لشعب واحد هو شعبا اليهودي، وعلى هذا الشعب أن يعيد مجده القديم بقوة جيش الدفاع الإسرائيلي وعلم النفس.

- ماذا تعني بعبارة علم النفس؟

- الفهم السيكولوجي التاريخي للعرب. أعني النشاط الفعّال لشعب حيوي خلاق مقابل الكسل والضوضاء اللامجدية لشعب مؤهل للانقراض.

- هل تعتقد أن بالإمكان إزاحة ملايين العرب من أرض جذور حضارتهم فيها راسخة وقديمة؟

- إنني أسألك بدوري كيف أزحمت الهنود الحمر؟».

وفي مساء ما تطور الحوار بيني وبين ديانا حتى شارف حدود البوح. وفي ذلك المساء أعلنت رفضها الحاسم لأي تماس مادي بيننا. وأحسست بأن ذلك الرفض لم يكن نابعاً من الضمير الأخلاقي المستكن في نفسها. فقد بدت الخيانة غير مجدية وهي ستؤدي إلى الكثير من الغم والتأنيب الاجتماعي. وإذ حاولت مهاجمتها بأن العلاقة الكاذبة بين اثنين تبدو أكثر خسة من الخيانة الحسية، اكتفت بالقول: مسرور إنسان طيب القلب ويقدم لي ما أريد.

ولما تحدثنا عن الحب، قالت بازدرء أنها تمقت حتى الموت تلك العملية التي وصفتها بالقذارة. ثم أضافت بأنها نوع من الافتراض الحيواني. وأوضحت لها أن في الأمر خطأ، وأننا في الشرق ربما كنا نمارسها بشكل وحشي، لكنها في أساسها ليست هكذا، ونحن لما نصل بعد إلى فهم الاتصال الجسدي كطقس طبيعي يشعر

به الإنسان ويقوم به كما يقوم بالاستحمام أو الطعام أو شرب الماء بعد ظمأ، وأنه يعطي إحساساً مغبطاً بالراحة والصحة.

وسألتها: أنت مثلاً امرأة كل ما فيك ينضج بالاشتيا والعدوبة فأني ضير أن يشنني مسرور النوم معك فتتواصلين معه بمنتهى العفوية؟

وقالت بان مسرور شديد الهياج وهو يطلب ذلك دائماً وأنا أشعر بألم حقيقي إذا عجز عن بلوغ حالته.

- لكن من الصعب على كل رجل أن يفهم حالة الفصام هذه. يريد من المرأة أن تكون امرأة بالمعنى التام للكلمة.

وصمتت. وضعت راحة كفها على خدها، وبدت في سهوم وضيق.

- هل تشعرين بمرض ما. قولي ديانا. عليك ألا تخجلي مني؟

- لن تقول له؟

- لا.

- أنا أنتشي بالمداعبة فقط. عندما يقترب ذلك الشيء اللعين أشعر بالاختناق، أرى مسرور وقد تحول من إنسان طبيعي إلى حيوان. تنتفخ عروقه وهو يلهث. يهجم علي كأنما يريد افتراسي. في رأسي تدور الدنيا فيتجسد أمامي وحشاً بأنياب وأظافر. ويبدأ ألم لا حدود له يمزق جسدي. ذلك لا يطاق. لا يطاق!

وتبدى في حالة غريبة مماثلة لحالة الفعل ذاتها، فأحس بأنها أفصحت أكثر فأشعل لها لفاقة. ومرة أخرى يرتني الصمت. على الجدار أرى الصليب فوق خزانة الكتب يهتز داخل غشاوة عيني، وتبدو المرأة العالية في الشفق ممددة على الصخور في حالة نزع.

أحضر كأساً من العرق أمزجه بالماء وبهدهو أحتسي. يومها كانت غارقة في الكنية مستسلمة في ذهول خمنت أنه نوع من التأنيب. بعد لحظات تحدثنا عن الماضي والأهل الذين غادرتهم، ومدينتها والبحر. وبشغف خاص راحت تسرد ذكرياتها عن الطفولة والبحر وأبويها والغربة.

حكايها عادية تشبه شروق الشمس وغروبها. وأيام متشابهة بين بشر متشابهين.

كذلك الأرضفة والجدران. للصمت صوت وللتذكرات. لحفيف النمل إيقاع من الشجو. إيقاع من الألم. دمشق.

تسمع خطو الزمن داخلك فيشف العالم. يصحو. تقول الريح: أنت كتيب. وحيد كحجر في صحراء. وفي ليل عام يصاعد أنين امرأة. حفيف ثوب من الدمقس على سرير منفرد. ناي بعيد، بعيد، يتأوج مقبلاً من برار مهجورة. أصوات حاملة كل يؤس العالم. كل قهر الزمن الطاعن بلا شفقة. صوت سامر البدوي وهو يشق اهاب الشرق علّه يكتشف الهوية التي ضاعت. صوت وائل الأسدي الموجل في مرايا الثار عبر أجساد البشر الذين تحلّوا عن أبيه في معارك العرب الخاسرة.

- بماذا تفكر؟

- بالجنس مدخلاً صحياً لمعظم بلاوانا.

- أليس هذا مبالغة؟ والجوع؟ والحرية؟

- ما أعنيه عن الجنس مطهر. يبدو الإنسان هنا مصاباً بأصغر ما في حياته، ليس حرّاً لأنه غير موجود أساساً.

- أعتقد جداً أنني مريضة؟

- إسمعي ديانا. سأقول لك شيئاً لا أدري مدى إدراكك له. أنا أعتقد أنك مصابة بالثشت الحسي. في جسدك مناطق منسية لم تتبيح. مناطق هجرت عبر الزمن فعجزت عن استقطاب الأنوثة بحيث ظل المركز الرئيسي مهملاً. التثيت حدث في المناطق الثانوية ولهذا تثارين بالمداعبة في هذه الأماكن.

في البدء دهشت. ثم افترت هازنة. سألتني: ايه. ثم ماذا أيها المحلل العظيم؟ قلت: ولهذا أنت لست سوية. أنا جاد فيما أقول.

قالت ساخرة: يبدو لي أنك أنت المصاب. أتعرف بماذا؟

- بماذا؟

- بمرض اسمه فرويد.

ابتسمت: لكن فرويد كان طبيباً.

- بل كان مهووساً وقد أورثكم هوسه المرضي.

لست أدري كيف التعم في المخيلة التاريخ الشخصي ملتحمًا بالتاريخ العام.

كلمات وحركات لها بدء ولها نهاية وبين هذه الحكايا كانت تسرح. زواج. طلاق. اعتراضات طلبية مراهقين يرمون كلمات غزل. وصديقات يثرثرن عن الفساتين والأحذية ويهزأن من المراهقين. ومع الزمن يتراكم هذا النسيج كما تتراكم الطحالب فوق الصخور البحرية.

ذلك كان وجهاً آخر من عالم ديانا التي اقتلعت يوماً عن شاطئ البحر من بين أسرتها لتكون زوجة وفيه لهذا الفلسطيني التائه.

□

في جميع الأمكنة كان الشرق بشطريه الرومانسي والواقعي، شبيه سراب في صحراء شاسعة. يستغرق العمر ولا يُطال. والجبل المنبثق يحاول أن يكون، فيتجزأ في بحثه عن الأمان والسرية. عن امرأة هي الأرض حيناً وحيناً آخر المطر أو العقيدة. واذ يتصدع يعود مقسوراً، فيمضي ما تبقى من العمر كذبة ضائعة في سفر الزمن الخادع.

- كله كذب في كذب.

وأقول لمنى: لا. منى. لا. شيء آخر. ربما كان البحث عن الهوية المفقودة في مطاوي التاريخ.

نفقول: أبداً تكذبون. كلماتكم. سلوككم. ثيابكم. جلودكم. ماضيكم مستقبلكم. في دمائكم يجري الكذب. تأكلون الكذب وتشربون الكذب. وتنامون في مخادع كاذبة.

أتمت: إنما نحن أطفال يا عزيزتي منى نبحث عن أب!

الماضي يختلط بالحاضر، كذلك الكذب بالصدق وتوهم أننا نحيا. نجبن عن الانتحار إذ تقلت منا الحياة الحقيقية وتبدد كرمل البحار.

ويجهد. راني لأن يحيا حياة داخلية مُنارة، مطلقها بلا حدود مع لبناء في إطار خاص مرتعش بالخلق.

- الرائحة هي ما نبغيه. هناك يكمن السر الأعظم.

ثم يقول: ولكن من منا يستطيع أن يصل منطقة الروائح!

وبعد منتصف الليل تعبق دمشق تحت المطر والسكون والخلو. تلعم الأشجار

ترأى ذلك ككهف في وادٍ عميق رائحته زنخة، مسكونة بالعظام الحيوانية والإنسانية. وسوست النفس: هل لنا شمس؟ هل لنا مشفى؟

فجأة تمزق سحر ديانا. من جسدها فاح نتن حضاري حملته الريح من مستشفى كبير يمتد من بدء الشرق حتى نهايته. بدا لي غاصاً بأناس يرتدون ثياباً صفراء يفوح منها الكلوروفورم، يتحركون بطريقة تنثير الغثبان، وتثير الشفقة. وطراً على جميع النساء تحول جديد. اكتست فيه أجسادهن شعراً كشعر الماعز والقردة، فتبدّين بقرون كبيرة وأظافر تفوح منها رائحة حموضة، ورحن يرقصن رقصات همجية مفعمة بالتقرز والسخف، وحوطن جموع الرجال تنتحب دونما صوت مسموع.

كان قلبي منقبضاً الآن. حزيناً كما ينبغي، عاجزاً عن فعل أي شيء حتى الحركة.

الفصل الثالث

- ١ -

مستمرة هذه الهجرة، والحزن مستمر، وتاريخ العرب ينجلي شيئا فشيئا عابرا
عصور الانحطاط التي تجهد هي الأخرى لتستمر، والجيل المنبت آكلا ذاته يود أن
يصرخ: لا !

في الطريق يقع . على الشجرة واصله الماضي بالحاضر، وهذا الوقوع ربما كان
إنباء بوطن آخر. بخلاص ربما. لكن هذا المطعون يرفض أن يكون الجسر.
وتسأل: كيف يبنى وطن حقيقي اذا كانت منى مفصولة عنك؟ وتقول ديانا
بلا مبالاة: مات زمن الحب. وما فائدة الاشياء كل الاشياء عندما يموت الحب
أو ينحرف، وما مسوغ وجود الانسان؟
واذ تسألها تقول: هكذا العالم !

غير أن راني القادم من بيروت لا يعتقد ذلك. مفعم بالتوقعات العذبة
والخصب المستقبلي، يزرعه في أرض لنا العذراء. أرض الاكتشافات والذرات
المستعصية على النظريات، ومرفأ طفولته المغتصبة.

عائد، وكله يقين من تجربته والفتوحات التي لم يصلها بشري.
بفرح يسألني عن منى وأمينة والليالي التي مضت. وعن دمشق.
فأجيب: منى سترحل، وأمينة تحلم بالزواج مني، وأنا تائه في التمل اعتنق
الحزن والمرارة والفوضى والبحث، ولا نقطة. ودمشق هي دمشق. نثرثر عن بيروت
ودمشق. عن الناس والاحزاب والشعراء والافلام. عن الموت والابداع والقضايا
الصغيرة.

نسكرك احتفاء بلقائنا الجديد، ويبدأ الدوار داخل جسد المدينة وتشيل الحكايا
الخباة في السرية. الحكايا التي اخترتها الغياب.
- من كل الآخرين أنت ولينا. أنا وحيد وضعيف لم أبح يوما الا لكما. آه.

عندما يخون احدنا الآخر يجب أن يتحرر. ليس سهلاً موت الام. قل لي: هل تحب امك؟

- لا !

- كانت تحون؟

- كانت غبية وحمقاء تكره أبي. كان يقول لي: من العار أن تكون أمك !

- كان أبوك قويا وسليماً؟

وأومئ أن نعم فينهد متأسياً: اتعرف معنى الا يكون الاب سليماً؟

-

- أحاول أن أعوض عنه فأشعر بالفشل. لنا تستطيع اكمال نقصي. لنا الاب والام والصدق. آه أنت لا تعرفها.

ويتابع: هذا محزن إلى أبعد حد. يا لينا الحبيبة كم أنت عظيمة وخالقة. تصور انها تعتقد أنني لا أحبها كما تحبني.

اعذرنني اذ أقول لك انني أعبد التراب الذي تدوسه. أرجو ان تفهمني. أرجو ذلك بكل جوارحي.

على جذع سنسرخت تستريح جبهته، وفوق أثلماها يبرغ وجهه ويبدأ يدندن حيناً فيروزياً، يمتد عبر الليل وجعا غيايياً للمرأة المستوطنة دمه. المرأة التي ماتت بين يديه ذات مساء يهدوء وبخانية.

دمشق الرائعة مستلقية فوقنا وتحتنا. صامته كالبحر.

وفي الذاكرة تبرق تجربة سامر البدوي وعشقه القديم لزوجته الحزينة، وعطف ديانا على مسرور التعس، ثم ايوب ومملكته المقوضة، فأتمنى أن احمي راني من هذا العطب الساري في النسل. اثنيه عن السفر نحو جزر السراب المسكونة بالقيظ والملل. وأستيقظ غب غيبوبة اخذتني بعد حوار حاد مع منى. فأتذكر بانني حدثتها عن الحرية والاختيار والعربي الحديد الذي يحرق ماضيه الآسن ويتقدم فوق ارض من رماد نحو ما يريد، نحو ما ينبغي أن يكون، وأن فقدان التواصل بيننا يأتي من طرفها هي التي لم تكسر بعد جدار ماضيها وتحرق هشيمه. وأتذكر أيضاً بأنني صارحتها بأن هذه الهوة القائمة بيننا وسعتها حالتها المرضية التي تبدو مستعصية ومهينة، واذا ما استمرت

يجب أن نفترق، واذا حاولت أن تعيد اسطوانة الاتهام، فاجأني غضب مسدود دفعني الى تحطيم الزجاج وقذف ساعتني اليدوية فوق جدار الغرفة.

من الصالون يأتي نسيجه. أخرج من الغرفة فأراها مستندة الى الجدار وفي يدها محفظتها. تبدو لي في حالة تعيسة مهانة، أمسح دمعاتها براحة كني فأشعر بسخونة خدها. اسحبها الى الغرفة ويهدوء اجلسها على السرير. الشيء اللعين الذي يطعن الجلد كلما انفردت بامرأة، يموت في تلك اللحظة. تتزاح المرأة ويولد حب خاص يشبه نمو العشب تحت الثلج. حب ملون عميق ودافئ. أضحمها الى صدري، ويتكئ رأسها فوق قلبي الذي يخفق، فتدهمني رغبة شتت ضلعي واحتوائها.

- كنت تبكين اذن؟ ساحبني.

ورويدا يتخامد. نحيبها، يبدو وجهها وشفتاها بعد البكاء قانين. اقبلها فوق خدها فتبدأ الطمأنينة بالصعود من قاع البحيرة التي اعتكرت، وعلى وجهها الارجواني يرسم صفاء صامت.

- نحن نحب في عالم مات الحب فيه. كفكفي هذه العبرات! ومعضي زمن قصير. لكنه مديد في بحر النفس وفي وحدتنا المفصولة عن حركة العالم. الطفلة التي اغناها الزمن قبل أن تنمو، تجلس قربك، هادئة ومحرورة. وانت رجل نصف صادق ونصف مخادع تمثل طراز عصرك. تحاول أن تخرج عليه فتتعر بملابن شباك العناكب وقد نصبت على الدروب التي تحترقها. دروب مفخخة قبل سقوطك من الرحم المنجس. وانت تريد الكفاية والصدق المطلق والحرية، واذا تفتقدها يرن الكذب النسي فتراجع عن الانتحار، وتبدأ تنسج حلم الغابات والبراري والعودة الى عري الاجداد القدامى.

- انما نحن سيئون بالاكراه. اغفري لي. منى. ربما مثلت دوراً لا أريده ولا أصلح له.

وتنز رأسها: ما فائدة كل هذا العذاب. نهلك أنفسنا بالالم والعالم لا يبالي. حالة حرب تفني نفسها بنفسها. وتطلب لفاقة ثم تتكئ على الوسادة. تدخن وتحرق في السقف.

واسألها: هل تعتقدين أن الفطرة سيئة الى هذه الدرجة؟

تنفث الدخان ببطء: لا أدري. ما عدت أمايز الاشياء.

يشير باصبعه: أنت ماذا تعرف عن الناس المطعونين. عن الناس المهزومين في الارحام؟ لنا مجد شخصي وتاريخي بدونه أنا ذرة في هبوب الريح. سكون موتي. المرأة وطن خاص. تاريخ مفقود. سلام في أزمنة الحرب. بحر وضوء في هذا الظلام الروحي الممزق لقلب الانسان الوحيد. وبصوت يرج الشوارع والجدران والصمت يصيح: أيها المتوحدون كذئاب في الصحارى. أيها المهجورون والفاشلون. يا قوانين الزمن العلمية هأنذا أبصق في وجوهكم جميعا. أين انت يا سلام العالم الروحي. أين أنت أيتها الموسيقى. اعزفي. المجد للشعر في الارض و في الناس الكآبة والموت للعقل.

ص ت كالقبر. فراغ. ألم. ليل أصم. ثم راني الذي ركبته جني.

حتى النفس الانسانية في ختام هياجها تصير الى ورق ذابل. الزمن وحده سيد المخلوقات يتمرّد على طبيعة الاشياء، لا يولد ولا ينمو ولا يعيش ولا يعتاد لا يمل ولا يموت.

- أنا اعرف منك بالمرأة. ويستطرد سامر ملك المدينة بلا منازع: المرأة الدمشقية صبوة مغلقة. بياض يشبه الكفن، فصوت حان خجول. سماء عذراء ترغب ان تحتويك لكنها وهي تعانقك تسأل: أين البروكار يا حبيبي؟ كل جزرك واكوئك مسكونة بالعلق والضفادع والمقايضة. انتحب حتى يتمزق قلبك. وحتى اذا ما ذهبت الى الحرب فأنت تموت كما الكلب. متى تدرك أن العالم يجري بقوانينه الضاحكة والباكبة، القوانين التي تدوسك وتمضي. قوانين المادة كما يقول ماركس. قوانين السلعة. حتى القيم الروحية تخضع في مدينة دمشق لمبادلات الريح والخسارة.

وفي ذلك المساء تحدثنا عن وائل وحالته. وقال عنه بانه ليس تافهاً كما ترى. فقط هو انسان كثيب يريد ان يدفع عن نفسه هذه الكآبة التي تهرثنا. وثرثنا عن الفصام والتعويض والطفولة المنتهكة، وقال: انت تبحث في نظرية التقويض وتريد اثباتها وهذه قضية معقدة وضد الوجود البشري أصلاً. انا مع الانسان بخيره وشره. وانتهت الى التهمة فقلت: أنا لا أبحث عن شيء. فقط ألاحظ وأضع اشارات بعد أسئلة؟

- ابدأ. انت تحاكم البشر وانا لست مع الادانة. لماذا يكون الانسان مُداناً في العالم؟

أحدثها عن النقاء في عالم يختنق بالتسمم، وأنتي بدأت أشعر بالانهيار وعدم القدرة على المتابعة، وأن الانسحاب رغم لا جدواه يظل الحل الابغض الى النفس: قد يعطي بعض الطمأنينة والعزاء لكنه مغفرة فردية مردودها سلبي. وتنهض عز اتكائها. تطفئ اللقافة في المنفضة: لو قلت لك انني احبك ماذا يعني هذا؟ نحن اثنان فقط والناس هنا حيوانات بحكم الحاجة والعلائق القائمة. وانت وانا لسنا انبياء أو آلهة لنفسي كل شيء ونبدأ من جديد بصنع ذرية غير ملوثة، وحكاية نوح اسطورة قديمة، ولو افترضنا انها حدثت فما الذي حدث بعد الطوفان؟ ما نفكر به لا يعدو وهم شاعر بائس. انا محكومون داخل مصيدة قدرة وهذا التسمم يحتاج الجنس البشري منذ الخليقة.

على الارض كانت الشظايا، وخارج الغرفة في مكان ما من المدينة، كان ايوب المحطم، وكانت هناك المرأة التي دُوهِمَت ولما تبلغ سن الرشد، كانت هي الاخرى محطمة، وكانت منى صغيرة عندما تهشم رأس زوجها بسكين اخيه الجشع القاسي الراغب جسد منى العصفوري، وعلى بعد من هؤلاء يستلقي مسرور المطارد منذ عام ١٩٤٨ وقد أرسى سفينة فلسطين المهاجرة على شواطئ ديانا: الهة حبه التي صادته وهو منهاك.

□

ارغب ان تكوني لي في جميع الثواني والدقائق والساعات والايام والاشهر والسنين. لكن لحظة ملل ستمر يوماً بنا واذا ذاك ما فائدة كل الحب. سأتحول الى ما صار اليه سامر البدوي سدين الخمر والنساء الاخريات والهجرات الليلية. انا انسان ملول يا عزيزتي أمينة.

وجه راني يشرق شفافاً بالحب الذي لم يتحطم بعد: لنا تختلف. شيء آخر يا صديقي. في كل ثانية تتفتح عن عوالم جديدة، لنا كون خاص. أتدرك معنى أن تكون امرأة كونا؟

- لا. عزيزي راني، فهمي محدود في مثل هذه الامور. هات حدثنا عن الاكوان المؤتلفة.

- أنت مصاب لا بد كأي.

- ربما. لكن انت عاشق بائس على ما يبدو. بائس من نوع عظيم. ووترنح فوق ضفة الشارع، مأخوذاً بكشوفات لبناء. وفجأة يلتفت نحوي:

- حركتك تعسّي. الامر انني أود ان افهم الانسان بدوافعه الداخلية المستبطنة وهذا لا يعني الادانة. ما أود قوله هو: لماذا العربي ثابت في حركة التاريخ العامة؟
- ليس ساكننا تماماً إنما متباطئ. والسؤال هو: لماذا يحدو بإيليه في عصور الالكترن والصواريخ والكمبيوتر؟

فوقنا كان القمر. وكانت هناك غيمات تطارده. كان الآن مُتَرَعّاً من عالمه الشخصي. واذ سألت: ولكن لماذا ينشدُ نحو السماء كثيراً؟
قال: مأساة العربي انه يبحث عن الحالة التوفيقية بين الغيم والارض. واستطرد: في عصور الاجداد كان هناك اطمئنان. الله كان اماناً ومتكأ. الجليل المعاصر ممزق برصاص التاريخ وضربات التغيرات الجديدة. السؤال الاساسي هو: كيف نقيم قيمةً معاصرة مطهرة من التحريمات الدينية المنقرضة مبنية على اساس دوافع الانسان الطبيعية؟

كثيراً ربما ينبغي التفكير بديانا: الهة الجنس المنحوتة من رغبات مسرور وتوقه الخائب. والقائمة في ساحته كحجر بارد. لقد قال عنها يوما: ان الذي هوى من رحم أمها يعشقها فكيف بي أنا؟

ولكن: أين تكن المواقفات الحسية لهذا الجسد الرخامي العظيم الميت؟
ولوسألت مسرور لأجلك: وأسفاه!

حزين كما هي حزنة فلسطين المحتاجة الآن بعد ان استوطنها الغزاة من جميع اصقاع العالم: كيف نحررها مسرور؟

- انت تعرف جغرافيتها؟

- تمزقنا بين الجغرافيا والتاريخ.

وفي الرأس تشبيل الاصوات. قديمها وحديثها. الدينيون والاصلاحيون والبرجوازيون والخونة. ثم الثوريون المعاصرون. اصوات تعزف الوتر نفسه مع بعض التنوعات المثيرة. وتر شارف الامحاء والقطع من كثرة ما ضربته الأنامل.

- ما رأيك مني؟

- كذبة وجبناء. عشاق سلطة وانتهازيون.

- مسرور. ألاستطيع ان تفعل شيئاً؟

يتمدد على الاربكة ويغمض جفنيه. هكذا يبدو الجواب المجسم في لحظة الصمت.

قربي ديانا ربة الجسد المختل. ساقاها المرمرتان تتأرجحان، ووجهها اسيل، وعيناها ليل بلا اسرار. هادئة، وحيدة، مغتصبة. قليلاً ويحذر يفتح جفنيه كأنما يتوجس خيانة، فبرى أرض الموت والخيانة والغزو. أرض المسيح والتي أسرى إليها محمد. المرأة التي خانت بعد ان غادرها زوجها الشرعي تاركاً جسدها للنوء والحزن. اثرلقاءات متواترة مع مسرور اكتشفت فيه رجلاً مسلماً يغار من الريح اذا ما هبت على ديانا، ينازع ان يكون معاصراً كيلا يتم بانه متعصب عتيق.
- سأذهب. بإمكانك ان تبقى مع ديانا. وهو يهم بالخروج من الغرفة يلتفت: عزيزتي لن يضايك ذهابي هاه. سأعود.

يرسل اليها قبلة في الفراغ ويغضي. في فضاء الغرفة ينسحب احتقار دفين. تبدو ديانا تمثالاً من جبس ليس كثيباً ولا فرحاً. وثن صامت. من قاع اللاشعور ينهض احساس غريب. توقع ينوس بين الشك والثقة. يتغلب هبوب المراودة. اختبار آخر.

أراوغ فأنتظاهر بالخروج. نصر أن أبقى.

يصير المستشفى غرفة موشاة بستائر من حرير اخضر. منورة بضوء خافت ورائحة امرأة خرجت للتو من حمام. في الزاوية سرير مغطى ببياض مغسول ومعطر. وفي الخارج مطر. الدنيا ظلال وروائح جسد يتعري. جسدان في لحظة النداء الوحشي العذب. والجسد موجة مندفعة نحو شاطئ حار. الدنيا بحر حريري في غسق حريري. رجل وامرأة يستلقيان فوق جسد البحر. إنه العربي في المطهر والشمس على كتف المغيب. ألوان زرقاء وبنفسجية وخضراء. ألوان حمراء مغسولة بالرغبة والشوق السري القديم تنهد فوق السرير، فوق حرير البحر. والغروب قوس قزح. الالوان تتمزج بحركات تشبه سقوط ملايين الشهب داخل ليل أخضر.

الرجل يدخل كهف البحر تدخل هي فيه. جسدان من توق حريري لامع وصاف. الجسد في البحر والبحر في الجسد. يتلامسان. ينحلان. موج من ألم. موج من عذوبة. يصيران الموج. يرتفعان معه ويهبطان. يتراجعان. الحرير في الحرير. الاشياء خضراء: البحر والسرير والستائر. الشمس والليل. ثم الرغبة

والمطر، كذلك البحر والجسد. الجسد والبحر. بحر ممتد أخضر لا نهائي. بحر
حريري تغوصان فيه. تتلاشيان. سكينه. البحر مقبرة.
وأطلب كأساً.

تقدمه.

أحتسي بطريقة وحشية.

عن امور نافهة تثرثر.

وعن امور مباشرة أتحديث.

تنحرف نحو امور اخرى.

أدخل بوابة الثمل.

تدرك حالتي.

أقول: الخمرة هي المشفى.

قليلًا تشرب.

أشرب. الشيرازي يقول: اعطني الكأس ففي مرآته نبصر احبابنا الغائبين.

تبتسم وهي تصب الخمرة.

أفكر بأخذها.

تتحرك في البيت.

تثيرني الخمرة فأشتي ريلة ساقها.

تعود.

احدق فيها.

تضع ساقا فوق أخرى.

- يا الهي أية امرأة أنت!

بغور تبتسم.

- المرأة كهف الرجل وبحره.

تلتمع عيناها.

- هل قال لك أحد أنك امرأة كاملة؟

تغير ساقها بحركة غريزية.

أشرب.

بابتسامة شهوية ترنو إليّ.

- ومرغوبة من الرجال.

وجنتها تتألقان.

أذكر. آه. البحر.

قلها يخفق رعباً من الخيانة الحسية، ويعود البحر مولداً موجات اخرى.
يخبو العالم وتتصوّأ غرفتها، أتصورها تتحرك وقد استيقظ سبات جسدها. وتدق في
جسدنا طبول أفريقية، سريعة الايقاع، متوحشة.

- تأني متأخراً مخموراً؟

- حبيبي.

- لا تقبل إلا ليلاً وتريد دائماً ذلك الشيء اللعين.

- جسدك كعبي.

- ولكنني خائفة ان يفاجئنا يوماً.

- مفاجأته خمرته.

وتأوه تحت ضغط جسدي.

ظلام. غرفة معزولة عن البيت والطفلة ترسو في بحر أحلامها. في الظلام
نلتحم.

امرأة كاملة محرومة. ورجل مخمور بلا عزاء.

بحار. بحار والدنيا غسق.

□

كل الأوطان منهوبة. يقول راني: مرحلة تاريخية. الكل ضعفاء. ويضيف
الآخر: وجبناء. امرأة بورجوازية نافهة تحضر السهرة فتترق: أنا أكره الفلاحين:
أجلاف ووسخون!

أقول: أنت من سلالة أيوب. واضيف بعد الكأس الخامسة: لكنني أنبتك

بأنها سلاله في طور الانقراض. ما عاد لها زمن. بالمناسبة هل تعرفين السيد أيوب السرحان؟

تثور بحقد: أوه. أوه. يا للجلال!

أقول: قد نكون رعاة وأجلاًفاً لكننا لسنا من سلاله التار.

- لماذا قدمتم من قراكم؟

- لافتداء مدينتك المفتوحة للبيع والشراء والجواسيس.

- حرّروا فلسطين أولاً.

- ولكن من الذي قال لك أن التحرير لا يمر فيك يا عزيزي؟

ينعقد غضب يتلوه صمت. كراهية تطوف فوق المرأة المشككة على الاختناق.

تتحرك بدوية سامر القديمة: أنت جميلة ربما، لكن اسمحي لي أن أقول لك انك تافهة بما فيه الكفاية.

ويصمت راني. على الجدار تتصلب عيناه ممدتين الى سر الضعف البشري.

يقول أحد الحضور وهو يرفع كأسه: أيها السادة نخب النساء البرجوازيات المتدفقات في أواخر الليل.

بينما ترفع الكؤوس. تغص المرأة. تشرق دمعها. تبدو محاصرة في حلقة جيل جديد يحتقرها ويشتهها.

ومن غياة الذاكرة تنبثق فلسطين كالرمح المدمى، ثم يأتي معها العربي المشارف انقراضه، والعربي الائق الأصيل. هنا في بيت مسرور يتوهج الصراع مكشوفاً. انها يصطدمان على نحو فاجعي. ديانا صامته كقبر ما عاد فيه غير العظام، وفي الداخل ثارات. قهر قديم استكن في النفوس يشب الآن.

مرة أخرى تأتيني فكرة تحتاجني كريح صرير. أود أن أهر راني: لماذا تريد أن تنجو؟ دعنا هنا نفتش عن أوراقنا التي ضاعت في شقوق الأرض. يدوي صوت مزمن لا تعرف بدايته. يشهد المرأة المخدولة وهي تشج ماضيها المحطم. ماض خلق يقعي في بيت أيوب السرحان، بعد أن خاتته زوجته واستلبه الفلاحون أرضه، فأحس بتاريخه القديم وقد تمرغ وانتك. تتمم المرأة المخدولة: أنا غريبة في هذا العالم!

بئس بورجوازي تقول ذلك، فيرد سامر البدوي: أي منا على استعداد

لايناس غربتك يا سيدتي. نحن هنا بارادة النساء المتوحدات وأحد ما لا يسهه أن يرفض لجسدك مطلباً.

باحترار تقول: متوحش قدر.

- هذا إطرأ.

- أنا أمقتك.

- وهذا تعبير معكوس عن الرغبة.

- النساء مخدوعات بك.

- أرجو أن أكون عند حسن ظن جسدك العظيم.

مسرور صامت كأبله أخذته غاشية، ومُخرج. كل شيء يتبدد. يأخذ حالة من الحلم والذكرى. تصير الأشياء غيماً أبيض. قوس قزح أو موسيقى. وما كان ليس ما يكون. مجرد حكايا عابرة في ليالي النفس، والنفس المبدعة وحدها تحتفظ بالذكرى والرائحة والموسيقى.

ذلك ما يبقى من كل التاريخ الذاتي والانساني، وما عداه قبض الريح.

وإذ تشق منى عباب البحر والريح، يقبل الفرح. تقول المسرة: هوذا الفيض الشمسي ينير عَمَ العصور.

- أحبك بطريقة مختلفة وأنت لا تدرين.

تبسم تقول شيئاً عن الذين أحبوا وخانوا. وعن البذار الخصب في أراضي العقم. وتحكي لها عن الحنان، عن المرأة التي تدفئ الروح المعذبة وتغني، فتقول: هذه عصور الأحذية والموسلين يا صديقي الشاعر.

- بل أزمته التجزئة والانقراض.

يحتد الدونكيشوت: العربي سيد القدر. العربي له تاريخ ومن له تاريخ لا يموت.

منى تروي حكاية دودة القز التي تغزل الحرير ثم تموت داخل الشرقة: العربي ماذا يغزل في هذه الأيام؟

ومع راني يأخذ الجدل طابعه الدرامي: نحن الآن في عصر الضحايا الفردين. من هذا المجموع المأخوذ باليومى والقانوني ينهض الذي يقول: لا. هذا الذي يرى نسوغ الأشياء جيداً فيصبح بالملأ المخدر: أن هبوا. ثم يلقي بنفسه فادياً.

- طر. ما الفائدة. المجانية ليس إلا. أنا ضد هذه المجانية العبية. التاريخ يتحرك ككل. ويتابع مهتاجاً حقاً: المرحلة التاريخية تستهلك ذاتها. العربي يعبر التيه الرمادي. انه طائر العنقاء. لكي تعود الاشياء إلى أصلها الأولي لا بد من تفاقم الموت حتى يشعر كل ابن آدم انه هالك وان الخطر يعنيه. هذا زمن السكين واذا لم يتلها كل عربي ويحتسي الدم بدل الخمر فتبئى بالانقراض. بغير ذلك لن يخرج الطائر من رماده مرة أخرى. يصمت. يتابع خطوه على الرصيف. خطو رجل مصدع، محرور، لكنه يحزن بطل على حوافي الموت والحياة. فجأة يقف تحت شجرة: أتعلم بماذا أفكر الان؟ أحلم بالخراب. أجل الخراب. ان تضرب هذه المدينة بالقنابل فلا يبقى مأوى. ان تتحول جميعاً إلى لاجئين. تلك المرأة التي سهرت معنا ضعيفة. أكرر ذلك لكنها مطمئنة. كلنا مطمئنون. البيوت المريحة قائمة والخمر وافر والكلمات والأرصدة. الناس تبغ وتشتري. تكذب وتضحك. هؤلاء ماذا يعرفون عن أوقات النحيب والوجع. ان يكون وطن أو لا يكون.

يبدأ قر دمشق بالشحوب. الأرصفة تلمع بالضوء والمطر. في الريح الرطبة أسير. رائحة دمشق تهب كما تهب ذكرى مفعمة بعدوبة تحتاج القلب والحنايا. دمشق متوحدة مثلي تحت صمت الزمن القائم، وقلبي العاشق لدمشق يبحر في الروائح والهجرة الليلية.

- «لماذا تموت دمشق العذبة الحقيقية».

لكن بواذر الموت كانت تهب رغم ارادتي من جميع الجهات. تمنيت لو أدفعه عنها. وألاً ترحل مني إلى ما وراء الحجارة والكذب. هي ذي تخرج من ضلعي طفلاً في لون زهر الزنبق. فوق العشب نمشي عبر السهول الخضراء التي هجرتها وأنا طفل. العالم يزدهي بصفاء غير محدود. فوق العشب نجري. مشتبكة أنا ملي بأناملها: هذه مروج طفولتي. ترغرر ضحكة كالفجر. وفوق العشب المبتل نخب: هنا شممت روائح الضوء والخصب والليل. اصارحها بأنني لا أحب أمينة ولا ديانا ولا ناديا. تحت جناحي اضعها ونسافر بين ظلال العشب والصخور الندية. قرب خيمة نمر: هنا حكى لي كيف تقتل الأفعى ولماذا يهاجر الكروان في الأصياف المقمرة من جزره البعيدة ولماذا ينوح. تلامس أقدامنا طراوة العشب. تسأل بغربة عن هذا العالم المضاء. أقول: هذه بلاد الفقراء المفطورين على حب الأرض والعمل والماء. تمتد بنايغ نحسها تغفل في التراب والصخر. وحشة وصمت ومدى. هاربان من الكون الملوث: هنا تشرق الشمس من وراء الصخور. تنمو فوق العشب

ثم تنام في البحر: انظري إلى البحر الأخضر إله كوننا الذي لا يغيب. وقلت: هيا انشدي شعراً للأرض. وبصوت أخضر تغني. ومن أفق البحر ينبثق وجهه القاسي التعب مموجاً بصفاء لا حد له يسألني: إلى أين تبحران؟ ونسير. أطوقها. أصابعي تداعب خصرها الأخضر. كالرعد يدوي صوته: انتما هالكان!

وأقول: انشدي أيضاً. تطوقني لآفة شعرها الشمسي حول وجهي. الروائح التي أحبها تهب: الأرض والطفولة ومنى. أتجلى الآن وننحل معاً في مجد الأشياء. فوق العشب نرتمي، نتمرغ برائحة هذا الاخضرار الممتد. إلى أضماها. ادخلها أيضاً فأسمع صوت الضلوع. أشعر بحاراتها فوق المروج فأقول: نحن من رحم واحد. غني أيضاً. ندخل في الموسيقى والروائح المحيطة. ها نحن نرتمي حبتين في التراب. نبت. نخضر. ومن ثم نزهر والريح تماوجنا. يطل القمر ومنه يخرج وجه أبي وعلى نغره أول افترة عرفها.

□

أي رضى تتمدد فيه الآن. هذا العالم صحي ومريح. لقد انفجر الضغط. بعد خروج القيح الجسدي يبدأ سلام العالم. تقول وهي تبسم: أنت من انصار الثورة الجنسية ثم السياسية. هاه؟

تبسم وأنت تمدد على الخوان فاردأ ذراعيك. احدهما يطوق عنقها والآخر سائب.

- حديثني عن طفولتك.

- لماذا تهوى حكايا الطفولة؟

- حكاياها نقية لها رائحة خاصة.

تحت منابت شعرها تدب الأنامل. تنمو كقطرات بين عشب له ملمس الطيلسان. توغل هي نحو طفولتها، نحو حب قديم في حي قديم. الروائح ترتقي داخل غابة نفسها الخريفية فتكتسي زهراً ربيعياً. وجهها يتألق، ويشع صدرها العاري شقائق ونرجساً. دفء الغرفة وسلامها يمنحانها وجداً مؤثلاً. كأنما صوتها ينوح للمرة الأولى قادماً من وطن منسي، دفأً حزيناً. غبطة بيضاء تغمرني. أتذكر الحلم الذي مضى وهي تسرد قصة حب طفولي لم يعمر أكثر من شهور. انطفأ لكنه ترك في الذاكرة جرحاً لا ينسى.

كانت الأنامل ما تزال تمارس بهدوء طقسها في كنيسة البشرية الوردية.
 ووجهانا يقتربان فأحس لفح الحرارة. وتساألني ان كنت أحببت في طفولتي. فأجيب
 بأن حب الصغار يشبه قصيدة بكرأ تدندن في النفس وتخرج للمرة الأولى دونما
 تصحيح. بحركة غريزية ترفع حمالة قبصها الزهري مغطية بها النصف الأعلى لثديها.
 فجأة أسحبها فيلتحم الوجهان آخذاً كلتا شفيتها بشفتي. على كني الأيسر يستلقي
 رأسها بينما يغيب وجهي في ذوائب شعرها.

كانت تنفس ببطء فوق لحم كني. أهاجني اللفح الخارج من جسدها
 فضممتها أكثر: كم أنت عذبة الآن!
 - اضغط أكثر. أريد أن ألد لك طفلاً.
 - سيكون عظيماً وفاشلاً دون شك.
 - سيحيا بلا أب.

- أنا أحبك اذن أنا موجود. أقولها مزاحاً. فوق الجلد أشعر بحرارة الدمعة.
 لحظة من الوجد تمر الآن. أتمنى أن نبقى هكذا إلى آخر الدهر بارتعاش أمس
 لها عن غابات قصية خضراء، عن كهوف مهجورة لم يطأها البشر، وعن بحار زرق
 ومروج تستحم بالشمس وتبتد بالليل، نسكنها ناسين مدن العالم الغاصة بالكذب.
 وإذا تلفحني أنفاسها المتباطئة، وبدء حركة من وجهها الذي ينسحب،
 أتذكر عالمها المرتعش وهربها من شيء مقيم فشلت حتى الآن في انتزاعه من
 نفسها.

بهدوء ترفع رأسها. كانت العبرات تنساب في محاذاة أنفها. بشفتي مسحت
 الدمع فأحسست بالحرارة. وبدت الآن عذراء تشبه الغابات التي أحلم بارتياها. بين
 ثديها غمرت وجهي. وبما لا يحصى في كل مكان من صدرها وعنقها ووجهها،
 قبلتها. في أرجاء الغرفة حملتها. بدت خفيفة كالنساء. غنيت لها لتفرح،
 ورقصت. فابتسمت وفاضت عبراتها، ثم دخلنا في الغبطة.

- ٢ -

وكان ان جاء زمان عصيب لم نحسب له حساباً فيما مضى، زمان تساوى فيه
 الحب والكراهية، الابداع والغباء، الانتهاز والثورة، وفي ذلك الزمان الفاجع نمّت
 الأعشاب الضارة وراحت تمتص جذور الخصب والحب.

زمان شبيه حد المدينة، وملايين البشر كانوا يعبرون فوق ذلك الحد. وكان
 الكثيرون يخبون نحو الشمس المحرقة، بينما آخرون يغربون باتجاه اللج، وكانت
 الذاكرة وحدها المنجي من هلاك محقق. وفي أي مكان من أرض العبور لو سألت
 العربي: إلى أين تمضي؟ لأجابه: مع الريح!

وفي ذلك الزمن كنت أمضي نحوها. وكانت منجاني. عنها تحدثت بحرارة
 واخترت باختيارها النبي والكراهية. وقال الذين في سمعهم وقر: انما أنت أحمق
 ومثالي. تضع رأسك تحت المقصلة بجناً. وكنت أقول وأنا أمضي بعيداً عنهم: لشد
 ما أنت وحيد بين بشر وحيدين. ومع تراكم الأيام الحزينة، همت بشوارع المدينة
 وصمتها. أرصفتها الليلية ومطرها. تلك الأشياء كانت تبدو لي في أوقات الضيق
 وحدها الملاذ.

وجاهداً كان يحاول أن أكون استمرراً لافكاره، لرغبته التي هوى بها في
 رحم الأم.

وبزوع تمردي شبيه بثورة البحار، كنت أحاول التنصل من ذلك الاستمرار
 المنجاني. أن أكون أنا بعيداً عن تاريخه المقعم بالأساطير وقوى الغيب. انني أتذكر
 الآن حكاياه عن الأحداث المخيفة، من قتل الحسين واحتزاز رأسه بسيف الشعر،
 الى نفسي أبي ذر الى الصحراء وأنباء أبناء سبأ وعذاب آل ياسر، واذ أحاول أن أسأله وأنا
 أستلقي قربه في الخيمة البحرية: هل الله انسان؟

وعلامات الانقراض. مدينة من الأشواق تبحث أجيالها عن الطمأنينة، وقليل من فيها يفكر بهوية هذا الضائع تحت شمس القرن العشرين.

- وائل ما فائدة الثارات الداخلية؟
- أبي!
- سامر لماذا تتلف عمرك بين الخمر والنساء؟
- أنا وليكن من بعدي الطوفان.
- مسرور لماذا لست في الحرب؟
- ديانا!
- أيوب لماذا زوجتك تخونك؟
- الماضي هو الخائن.
- راني أنت جاد في البحث في ابجارك نحو النفوس التي فقدت رضاها؟
- عندما تكتشف السر النفسي تكتشف أرض العربي المهجور!
- ما رأيك في الاشتراكية؟
- اذا اكتشف قانون الحرية تكتشف نظرية الانسان الاشتراكي.
- وفلسطين؟

شريط الحزن هو في كل الأماسي. نحكي ونفرح ونغني ونسأل. نشتم ونحب. وفي أواخر المساء ينيخ الحزن في الغرف السرية. حزن مسحوب من ضلوع العجز والتسويغ. ثم نمضي في تيار الوقت كما الأوراق الساقطة في تيار النهر. كان واضحاً انه جبل يرتعش في القطاع الأشد خطورة. القطاع الأشد كشفاً عن نفوس ورثت تاريخاً مضطرباً. تاريخاً قانونه اليومي الدين والكبت والكذب والاضطهاد.

ولما أفصحت لراني عن التمزق والمصالحة بين ما ينبغي وما هو قائم وضباع منى بينهما قال: التقينا قبل الأوان. وأجبت: بل بعد الأوان. ثم أردفت بانها في نفسي قبل قدومي إلى دمشق. وأنت تذكر ذلك. هل نسيت؟ وأذكر جيداً كلمته: لو ولدتما قبل عشرين عاماً وتزوجتما لكان الأمر مختلفاً.

- أحاول أن أخطفها نحو الجبال الوعرة.
- وينه: أي رومانسي صغير أنت!

يصرخ في وجهي بوحشية واستنكار، يستغفر ربه ويتمن بعض الدعوات. بعدها يشرح لي أن الله كفاية كلية، قد يتجلى شيء من روحه في أنواع من البشر الخاصين المتفوقين على البشر العاديين، وهؤلاء قد يختلفون في الجسد والزمان، لكنهم روح واحدة خالصة ونقية تتميز بقدرة أعلى من قدرات الناس لكنها دون قدرة الله. واذكر انه ذكر أسماء منها: يوشع وشيث ويوسف وهابيل وسقراط وأفلاطون والمسيح.

أما الله فطلق لا يحد أجل من الجسد والزمان والمكان. وينيري متحدثاً عن العقاب والثواب والجنة والنار ويوم القيامة والحساب الأخير، وظهور الرجل المنتظر الذي يخرج من عين الشمس، ومعه رجاله الثلاثة يملأ الدنيا عدلاً وقسطاً بعد ان ملئت قبله جوراً وظلماً.

لغة غريبة كنت أسمعها منه فأرتعد من الذعر، وقبل أن أنام أسمع دعواته واستغفاره في صمت الليل ورهبة البراري على أنغام أجيج البحر الرتيب.

وفي تلك الليلي كنت أرى أحلاماً مخيفة عن رجال يسرون فوق شجرة الجنة والجحيم، فيسقطون في مراحل مليئة بأسفلت يغلي، ثم أرى نفسي في أرض مزروعة بالأفاعي، وفي حضور رجال يقتلون ويمثل بهم، يعذبون حتى الموت ويسألون أسئلة لا يحاب عليها، فتسلخ جلودهم وترمي أجسادهم إلى نار متقدة. بعد أن شبيت أدركت إلى أي حد كان ذلك الرجل التعب تعيماً ممزقاً بين الله والأرض. وإذا قررت رفضه حدثت بمنى على نحو طفولي مراهق. اذ ذاك كانت الأسئلة بحيرة، لكنها كانت مثيرة مشحونة بديناميكية شاب يرغب الالتصاق بالأرض. ويومها لم يكن رفض السماء شيئاً يعبر بمجانبة الريح.

لكنه ذات ظهيرة مات. كان موته مؤسباً، وأذكر انني بكيت لفقدانه بفاجعة لا حد لمراتها. بدون مقدمات مات. حدس هو بذلك. وفي عالم لا يقدم تفسيراً لكل ظاهراته، نموت وازدادت وحدتي. مع الآخرين ناقشت مسائل معقدة كان الموت أحد أطروحاتها غير المعقولة.

- «أنا الآخر ساموت أيضاً ولن أسأل ان كنت أرغب في ذلك أم لا». نموت أيضاً وقرأت. ناقشت وتأملت. فرحت وحزنت. انتمت ورفضت. عشت واكتشفت. وها هي دمشق أخيراً تحت شمس القرن العشرين: الاحتلال على الأبواب واللاحب. الفردية والجبن والسطوة والقمع. التجارة والكذب. الخيانة

يومها أجبته : لو تنظر إلى نفسك كيف تتحدث أبداً بوصاية . بطريقة من يخيل إليه انه اكتشف أسرار العالم والنفس بينا البشر في نظرك ما زالوا في طور القروء؟

- أنا أحترم صفاءك في هذا العالم العكر، ومن بين جميع الذين عرفتهم كنت الجدير بصداقتي، لكن صفاءك تحول إلى مرض . هل تدري انك متصوف عصري؟

ويومها أذكر انني حاولت الدفاع . جهدت لأوضح له فكرتي عن النقاء والتزامي بمنى ضد الخدع القائمة، وان كلمة متصوف بمعناها الديني لا معنى لها، وان بعض المفاهيم والمفردات التي التصقت بالدين يمكن أن تكون ذات معنى بالمفهوم العصري، وليس الدين بمجموعه ميثافيزياء صرفة لا صلة لها بالحياة وأعماق النفس البشرية، والحكاية وما فيها هي كيف تنبثق من التاريخ بمعان جديدة غير فاقدة لأصولها . ثم تحدثت عن ردود الفعل في الثورة وتسممها بالدين الشائع والخوف، وان الماضي ينبغي أن يكون حافزاً لا مخدراً وقيلولة، وان هذا الجيل الآن يتكون بين قطبي الاهانة ورغباته الشخصية، ينسحق تحت ضربات الخيبة والتحويلات المغامرة والفرع من ماضيه، وهو اذ ينصاع لعلائق الدين المرضية، يقتل الثورة معتقداً بأنه يحياها.

وقلت : حتى تظهر فعلاً ونقيم ثورة لا بد أن يسيل الدم وتدمر الشرائع الاستسلامية والقوانين السائدة التي سنتها البورجوازية الدينية في هذا الوطن.

واذكر يومها انه تحدث بحماسة عن تدمير العلاقات القديمة التي سماها عوسج الأرض، وألح إلى دور السياسي ودور الشاعر وإلى السطوح والأعماق . وقال بأن الشاعر الذي يبدو منبؤاً ولاجئاً هنا، يشكل الضمير النفسي للأمة باختياره المغامرة الخطرة في أعماق النفس الانسانية حيث الاسلاك والروائح العطنة، وكمون عصارة الأرض المحجوبة عن الشمس.

واذ ذكر عبارة عصارة الأرض، استوقفته قليلاً مبدئياً ملاحظة حولها : بأن هذه العصارة غير الشمسية ربما كانت هي ما نبحت عنه وان أوراقنا ربما سقطت هناك . وتابع فكرته عن وجهي السطح والأعماق بأنها ربما يحلان المعادلة الواحدة . لكنه استطرد سائلاً : هل يمكن للعنيد أن ينجب؟ جرب أن تقترب من تلك الأرض المحتلة : الدين . الجنس . الحرية . هل تعرف من أين سيأتيك الرصاص

والحجارة؟ كيف تطاردك الكلاب؟ وكيف سترمي هناك كحشرة دونما ضجة : لقد سفت أوثاننا . هيه . لكي نكون بشراً ينبغي أن يحطم كل فرد منا أوثانه الداخلية . ويقلب شفتيه ثم يبصق . بصفته تحدث صوتاً كصوت الطلقة في أعماق الليل الساكن : السياسي على ضفة والشاعر على ضفة أخرى وبينهما وادي اللغة . لغة الشاعر جارحة مسنونة تهوي عميقاً نحو العصارة، أما الآخر فلعته خادشة، أفقية متوازنة، بينها وبين العوسج حوار ودغدغة.

كان المسير قد أودى بنا إلى سفح قاسيون . من هناك كانت تبدو دمشق ملائاة راقدة تحت السفح، وكانت الخمرة قد طارت . على حافة شريط حديقة مسورة وكأ كوعيه وراح يحرق نحو دمشق.

في أية لحظة كنت أتوقع منه شيئاً آخر غير مقدمته التي بدأها، وفي أعماقي كنت أنحاشي ذلك . لقد عرفت فيها مضي مزاجه الحاد وفرديته والأذى الذي أصيب به، وبشفافية مغرقة في البعد كنت ألمس هشاشة التحامه بالمدينة . كانت توجد في ذهنه من خلال أشواق صغيرة، من خلال حنين يرف في ذاكرته، لكنها لا تجتاحه كسامر البدوي الذي عبر يوماً عن هذا الحنين : حنيني إليها لا يختلف عن حنيني إلى جسد امرأة.

بعد أن ملأ عينيه من جسد المدينة المزدهرة بالأضواء والصمت، وقف ثم اتجه نحوي . كان وجهه كظيماً فيه قسوة تغطي ألماً داخلياً يجهد لإخفائه . سألتني ان كنت أحب دمشق فابتسمت . وألح أن أجيب عن سؤاله، فقلت بأنني لا أكرهها ولكنني أحب الريف والبراري أكثر . أنا لا أطيق هذه المدن التجارية.

انني أتذكر الآن كيف سخر من هذه الخرافات، فسمّاها شطحات صوفية ساذجة، ووسميت بأنني ملتاث بأرواح الأجداد الذين مضوا وصاروا حكايا منسية أضيفت إلى أساطير الشرق المسكين المتعلق بأذيال المطلق في عصر النسبية وغزو الفضاء : شرق المقدس . بمقت مرير ساخر ذكر الكلمتين الأخيرتين . وأضاف بأنه قد قرر الرحيل مرة أخرى، وان هذه المدينة كغيرها من مدن الشرق لا تقدم إلا الفشل والتبرير والروائح الكريهة والمقايضة، وانه ينبغي هدمها واعادة بنائها . وقال : عبث هنا وجود الانسان وباطل . الكل باطل باطل ولا نفع من أي عمل يعمل . نحن هنا طفيليون على مائدة التاريخ . محض أفراد منفيين في غابة تحوطنا أحراش الوراثة والبيئة والدين . وكلما حاولنا التقدم خطوة إلى الأمام نتعثر بهذه الأحراش .

إلى الجحيم كل ما هو قائم. قال ذلك بثقة داخلية مطلقة ، فأحسست انني أواجهه الآن عارياً تماماً ، مفصولاً تماماً.

لم أعد على مسمعه قضية عصارة الأرض التي لم تر الشمس بعد ، ولا قضية الأوراق المفقودة. كنا اثنين الآن. وبيننا مسافة. انكسرنا اذن. كسراً لا جبر له. ما عاد لنا غير هذا الثابت الليلي نتحرك فيه ننثر آخر المراثي ، ونرش روائح البخور. وكما قال واثل : نحن المحمولين اليوم لا الآباء. النفوس افترسها ذل وانتهاك. رجّها رجّها حتى صارت في لون الغرين. هشيم ، مساحة منه اندلعت فيها حرائق شاسعة عصبية على الاطفاء. «وداعاً يا وطني» هوذا يقولها الآن. سمعها في بيروت بعد أن خرج عصر يوم محروراً مصدّعاً من مبنى الجامعة الأميركية ، ولكن هل سمع صوت مناحيم بيغن : «أنتم الاسرائيليون ينبغي ألا تأخذكم رحمة عندما تظفرون بأعدائكم. عليكم ألا ترحموا العرب حتى تدمروا حضارتهم التي سنبنّي على أنقاضها حضارتنا نحن»؟

راني غضب وغريب في ليل جهنم. وأنت هنا. لا راحلاً ولا مقيماً. قائم بين السيف والنطع بعد أن لمع البرق أخيراً ، شاطراً قوس قزح إلى ألوانه الاساسية. تقف على مفترق الدروب الثلاثة : درب السد السائر فيه لن يرد. ودرب الحريق ودرب الغريق. وعليك أن تختار يا علاء الدين.

الفصل الرابع

- ١ -

هي الريح ، والعربي مقذوف عبر تيارات. بعنف تدوي. رياح من بلاد
قصية. والريح النفسية دائمة الهبوب مشحونة غيظاً وثأراً. عصفاً تهب من الداخل.
والعربي حكاية قديمة حديثة، ضائع هو في مجرى سردها. والريح الاعصار قادمة
من بردى وميسلون وحطين والقادسية وذو قار وكعوش والطفولة. ريح مفعمة
بالموت.

وفجأة تلك الشجرة. ختام المربية ومحطة النوم. أخيراً توقظ خلايا الجسد
بايقاع الفجيرة. والذي يوقظها انبجاس الدم الحار من الرقبة والشفتين والزندين
القويين. من الصدر الفتي. هو الدم وهدى محظية عربي القرن العشرين، ساكنة
هي الأخرى. على شفتها ابتسامة جمدت في لحظة الفجاءة. كل شيء ساكن
الآن. حتى الريح والزمن، فوق الجنتين.

الذي كان جميلاً وفتياً. والذي عرف الفرح وجنون الجنس. والي أقبية دمشق
المظلمة، سقط الآن.

- هل تعتقد بأنك سفاح؟
- أنا أعيد إصلاح الكون المختل.
- وسادي.
- حيوان متغطرس تدين البشر وأنا أمقتك.
- أحد أصدقائي كان يقول: علينا أن نرثي للضعف البشري.
- لست ضعيفاً. أقوى من كل آهتك أنا.
- لو لاحظت يوماً أنك تكثر من استعمال كلمة «أنا».
- أنت وتاريخك قضيب وفرج لا أكثر.

- بلى. أضف: ويسمح لها بالولوج والخروج والاستراحة، ضابط مخبرات موكل بحراستها. يشرب ويدخن بعصبية عاقداً حاجبيه. هذا الشرس المثير للحرارة والضحك معاً، هوذا في النهاية يموت.

- أأتكون فاجعة العربي أنه فقد ماضيه ومستقبله؟

- لن ينقرض العربي. فيه دم يثور في لحظة الخطر.

- ولكن هل فوران الدم يصنع التاريخ؟

في نهاية اللعبة تنفجر الأشياء. الثبات ليس قانوناً أزلياً. والذي كان، يمكن ألا يكون، والإرادة البشرية هي القانون: أنت تثار فقط.

يقول: أنا أعيش طفولة مستلبة.

وأقول: أنت لا تفهم قوانين التاريخ.

ويلعن التاريخ ويلعني. تجتاحني موجة مرارة فأضغط أسناني بقسوة.

وفي البيت المعزول في ضواحي دمر تمزق لحم هدى، بعد أن مزق بكارتها. بالقبضة الوحشية والأظافر والأسنان، هشم لحمها العاري، وفوق البلاط ضوجعت وهي عارية. جرح ثديها وامتنص دمه ثم حملها إلى ضفة النهر وبين الأعشاب مورست محاولة القتل والمضاجعة. وكان معه زجاجة خمر. فوق الأعشاب حاول حرقها فصرخت وتوسلت. كمّ فيها وضغط. واستثير فضاجعها، وإذا حاولت أن تهرب أمسك بها، وحاول خنقها فصرخت بأنين إنسان يرفض أن يموت.

ندّة الرجل: بعرضك.

وقال له: عرضك بين فخذي يا جاسوس. متأمر. خائن. ابن قحبة. عرّوه وجيثوني به. وبسوط أسود موتور يضربه على وجهه وصدره ومعدته حتى يتدمى. أنّ وتوجع فضربه أيضاً. وظل يضربه حتى انهال وتكوم رمة فوق بلاط القبو. على رأسه ضربه فانبثق الدم، ورفع الرجل يدين منهكين محاولاً حماية رأسه، فانهال السوط فوق اليدين المعروقتين فسقطتا. زحف. قبل الأرض وقدميه: بعرضك أنا بريء. بريء. وصرخ به: اخرس. كلكم كلاب والكلب يقتل. ضعه على الكرسي الكهربائي.

ومن تحت جلد الأرض تصاعد أصوات حزينة مهانة. أصوات موجعة تحملها

الريح من أقاصي أرض العرب. تصطدم بصوت منى: ألا تسمع؟ كيف يكون حباً في هذا الجحيم القائم؟

أقول: اغفري لهم فهم لا يعقلون.

وتقول بان الزمن يمضي والعربي يحرق الزمن وهو سادر. إنه يعضن القات والأفيون والحشيش ويشرب دم أخيه ولن يلتقي مرة أخرى بالزمن. وكانت تنسحب الآن وتمضي.

وقالت النفس: هي ريح عابرة تسفيهم في غفلة الذاكرة. وكنت أمضي. ولم أكن أستطيع فعل شيء من أجلهم. وكانت فلسطين تهوي تحت الاعصار، والاعصار يحمل نشيد «الماتكفاه»:

«نعود للوطن

وطننا إسرائيل.

إنه الآن صغير

لكنه سيكبر ويتسع،

وسنبنه بأيدينا

من النيل إلى الفرات».

ومن النيل إلى الفرات كانت الأماسي مترعة بضوضاء الكلمات:

- اشرب. نخب الثورة.

- متآمرون يريدون تدمير الحزب.

- البورجوازية الوطنية تلعب دوراً في مرحلة بناء الثورة الديمقراطية الاشتراكية.

- لكن ماركس قال بالطبقة العاملة الطبقة الثورية الوحيدة.

- وباكونين قال بالفلاحين الطبقة الأساسية.

- تروتسكي رفض الثورة في بلد واحد.

- بينا لينين قال بإمكان بناء الاشتراكية في بلد واحد ونادى بتحالف العمال والفلاحين.

- من المصيب ومن المخطئ؟

- أنتقد بأن البروليتاريا الإسرائيلية ضد التوسع؟

- وهل في إسرائيل بروليتاريا؟

- أنا أعتقد أن النضال ضد إسرائيل لا ينفصل عن النضال ضد الأمبريالية والرجعية وبناء الاشتراكية.

- كان عبد الناصر وطنياً وإصلاحياً لكنه لم يكن كاسترو.

- والجزائر تبعد آلاف الأميال عن فلسطين.

- حسين جاسوس بريطاني.

- يا أخي الأزمة أزمة ديمقراطية.

- لا. أزمة علاقات موضوعية وتفشي الانتهازية والديماغوجية سيحرق الثورة.

- نحن مخدوعون.

- بل محاصرون.

- قل معزولون ومحكومون بالعسكريتاريا الانقلابية.

ومن بيته القائم على ضفة النهر إلى دمشق كان يسير بقوة الريح والموت. مطر ينهر. وسيارات سريعة أضواؤها كانت تواجهه بأشعتها الحادة. ومن الداخل كانت الأحاسيس توالي انفجاراتها مضواةً بأنهار من روائح الماضي مختلطة بروائح الأفيون والجلود المحروقة، والريح تحمل أمواج النور الحاد والصور القديمة. كل شيء راح يهتز تحت العجلات وتحت القبضة التي خدر عروقها الأفيون. وقالت المرأة المذلة: حبيبي وائل انتبه. أنت تسرع.

وكان هناك منعطف لفه بشبق. سرعته إزدادت إحتقاراً للمرأة. مالت فوق كتفه فنترها عنه. فجأةً بهر النور. مليون لون وشعاع رقص على شاشة عينيه فصار أعمى، ودونما شفقة طعمته شجرة حور، دمشقية، صلبة، باسقة.

[]

في الصباح كان قد انطفأ واستراح. وفي الصباح لم يلبس أحد حداداً. وكانت المدينة مستمرة. بالحادث أخبرت منى فأغمضت عينها لمدة ثانية، قبلتني بكل لامبالاتها المعهودة، ودهمها حس الزمن فضت.

في غرفتي بقيت وحيداً. ثملت. غرقت في بحار من صمت. حلمت بمسافات

وهجرات لا تتوقف. شتمت وصرخت وضحكت. ثم سألت الله: لماذا يولد الإنسان إذا كان سيموت؟

وكنت مُنهكاً فهويت فوق فراشي البارد.

(وجاءني صوته بعد حين. حزناً مطعوناً مدمى. على وجهه علامات انكسار وقال: كنت محطناً قل للجميع أن يغفروا لي.

وسألته أن يعود، فقال: لا أستطيع.

وسألته: هل هناك جنة ونار؟

فأجاب: بلى.

وكنت خائفاً. وكان هو ملفوفاً في كفن داخل ضباب رمادي، وبدأ لي جسده شفافاً، ورأيت قلبه وفي وتينه شرخ، وكان القلب كروياً ودمه أسود، وعلى الكفن بقع زرقاء يابسة. وبدأ لي يرتعش من الصقيع، بينما يدها غائرتان في بحيرات الضباب.

وسألته: اسأل لنا باريك هل ينقرض العربي من الزمن؟

(وجاءني صوته خافتاً يقول: كونوا مع أنفسكم.

وسألته عن اللعنة التي تحدث عنها الأجداد فقال: الله غاضب.

وأذكر أنه كان شبيهاً بنفسه، سوى قبضه الملوث بالدم. وقلت له: لماذا لم تمت في فلسطين؟

وكالصدى جاء صوته: لم يكن خطئي).

ذا وجه نصير كان. قوياً كهياج موج البحر. وفي جسده المتناسق لم يكن هناك خطأ ما. بثقة كان يسير يأكل ويتحدث ويحسن قيادة السيارة. يضاجع ويحلم ويتسم. وبوداعة طفل كان ينام في أواخر الليل. كان يحيا.

في خمارة الواحة صادفت سامر البدوي. سلمت بقليل من الاهتمام ثم خلعت عطفي: أين أنت أيها الخنزير البري؟ وإذا لم أجب سألني أين أمضي أيامي لت قرافاً: الوظيفة والشارع والخمارات.

وحدثني أنه هلف إلي، ولديه أشياء جديدة يريد أن ييوج بها فقلت: إنك تكذب وتبالغ وجديدك لن يكون أكثر من امرأة أوحادثة عابرة. وقدم لي كأساً، وكنت منقبضاً وفي أعماقي ميل لإهانته وشربت بنهم وقال: أنت لست على ما يرام

وقلت: أنا على ما يرام تماماً. وسألني أسئلة عادية عن منى وأمينه، ثم انتقل للحديث عن ذاته العليا وقصائده الجديدة. وإذ حشا نصف رغيف لحماً وراح ينشه، انتهت إلى الموسيقى.

كان قد مات إذن. وإذ بدأ يقرأ أشعاره فكرت بالموت الذي ارتسم على شاشة الذاكرة وشما لا يريد أن يغادر. سمعت بعض المقاطع من قصيدته عن الموت الفجائي والزمن الطاعن في الغفلة. وأوغل في متاه سريالي لا يدركه إلا هو. بعد أن انتهى من طقوسه الشعرية سأله إن كان قد سمع بالحادث، فتناول كأسه وغبَّ برغبة رجل يخاف الموت وسحب لفافة أميركية أشعلها، ثم زفر الدخان وتأوه: أجل. مات هنا.

- ككلاب جربة سنموت جميعاً هنا.

وانتهت إلى جمليتي العقلانية فتناولت الكأس وصبته في عروقي. وسمعته يثرثر عن القصور والخلل في الجليل الناقص، المقتول وهو حي. الجليل الذي قال عنه راني: لا أرض له ولا آله.

وقلت بأن إرث الوحل والشمس يسري في دمانا منذ ألف وثمانمئة عام وهذا مهين. وتحدثنا عن الرجل الذي مات في ذلك المساء، حديثاً حزيناً له رائحة المرائي. وفي تلك الليلة شرب سامر حتى البكاء. وغب ذلك غادرت الواحة بانجاء حجرة أمينة.

□

هي ذي دمشق للمرة المليون، وأنت التائه في دروبها المتشعبة. عن أي شيء تبحث وإلى أين؟ ودمشق في الذهن، غبطة سارحة كبردى في مواسم الفيض، وفي التاريخ حجر صلب، رُسِمت عليه فاتحة يمسحها المطر في الشتاءات القاسية. ودمشق مرسى ومسرى، حكايا وحجارة، صمت وزمن يخترق العظام في أزمنة النسيان. والرجل الباحث عن بديل أبيه ذئب ضيَّع قطيعه، وأضاع الدرب إلى البيت. وإذ تحاول أن تسأل في السر: ما الذي يحمله المستقبل؟ تطوقك الريح واللحظة التي تمضي.

مضي. مضي. من رصيف إلى آخر. تبه يقدفك في تبه. والذي يراك فوق الأرصفة في أواخر الليل يهزأ، وأنت تقول: الأشياء ليست هي الأشياء. ومن مكان ما يقدف أبواب السرحان كلماته كرصااص.

الحوار الذي بدأ قبل سنوات، منذ منتصف القرن العشرين، ينمو في الدم، يطلع سقوطاً وصعوداً. أحياناً تتداخل الأجيال فتصعب الرؤية وينعدم التمايز. وفي تلك اللحظات تنفى منى فتصير غريبة في بلادها.

صوت أيوب اللاشعوري يود الإفصاح: لن تكون سيد العالم وستمضي.

- لكن العالم لا يتراجع.

- العالم ينهار. والعربي يعبر زمن الموت.

- للفصام زمن ثم يأتي زمن الصحو والعالم لا يعود نحو الخلف.

- لستم أكثر من قافلة عابرة في صحراء الربع الخالي.

- أجيال قادمة تولد.

- ستسلك طريق وائل وسامر.

- لم ينكشف العالم لوائل.

- كلكم هو.

- دم الضحايا لا يُنسى.

- لكنكم سترحلون يوماً عن دمشق.

- دمشق للفقراء.

والنساء والخمر والسيارات وكراسي السلطة والأرصدة والإرث الناقص؟ هذه

فخاخكم ودمشق المقبرة.

- ثمة منى!

- منى نجم بعيد. سراب تلهثون خلفه يبتعد ليظهر من جديد.

- أستنجد. تتسارع خطاي. ريح حارة تلفحني.

- «آه. أين أنت منى؟»

رذاذ رطب. عذب كسقسقة الثمل في العروق، يشرك بخصوصية المدينة.

مدينتي الآن. تطوقني رطوبة الطفولة في الخيمة البحرية.

□

ها هم يعبرون ضفاف السواقي. مجارفهم ومعاولهم فوق أكتافهم. أسمع

ديانا مجد جسدي يرغبه مسرور وأنا. وديانا غائبة عن جسدها منحلة في الثياب والثرثرة وتأثيث بيتها، تود أن تفاخر به أعرق العائلات الدمشقية الفارقة بين المسلمين والبروكار والكريستال.

وإذ أدرك أن كل قوى العالم قاصرة عن تحريك سكونية مسرور واعتناقه جسد زوجته، أشعر بشفقة. لست أدري كيف تصورت أن ذلك الجسد لو واكبه وسار به نحو ربي فلسطين أتراه يتأخر لحظة عن المضي إلى (عين الغزال) التي تهودت الآن؟

وهي تريني آخر أثاث جاءت به، سألتها: هل تعتقدين أنكما مستقران؟ وبابتسامة نصف بلهاء زورتي، وسألتني بماذا أفكر فقلت بالاستقرار فعلاً ثم استطردت: هلا تذكرت يوماً أنك زوجة لاجئ؟

وباستغراب هازئ وسمتني بأنني مصاب بلوثة السياسة مرض المثقفين العصري، ولما ألفت عظتها: عليك أن تفكر بأمور أكثر جدوى. سألتها عن الحدود في حياة الناس الذين لا وطن لهم وعن التفكير المرضي بالوطن.

وقالت: لم أعن الوطن. إنما هذه الحمى التي تتناوبكم جميعاً.

وقلت: الحمى تسميها إذن؟

وسألت: ماذا أسميها؟ أتم مهووسون بحالة تنفّص الطعام والشراب والملبس على الإنسان. أما عاد في العالم شيء آخر غير فلسطين والثورة؟ وسألتها إن كانت تعرف بماذا تفكر الإسرائيلية. فقلت بأن لها مباحجها التي لا تقبل التنازل عنها: بيت وسيارة وخزانة ثياب وأحذية وعطور وسهرات وبساتين.

بحق: لكنها تحمل السلاح أيضاً!

وقالت: في الساعات الحاسمة لن نتأخر عن حمل... واعترضت متمماً الجملة: الحقائق. وابتسمت بأسى. في الخارج تعول الريح. أنين الريح موثق. يندفع الغثيان نحو الحلق. صوت الريح عزيف جناثري في ليل فجره لن يطلع قريباً. وهذا الفجر نقاوته مضمخة بدماء رجال لما يتقدموا بعد.

ديانا تسأل: لماذا يموت الإنسان مجاناً بينما يرحم الآخرون؟

أقول: تريدن مسروراً لك؟ تؤكد ذلك. أسأله: لماذا قاتل أبوه في الماضي؟ تقول: كانت مرحلة مختلفة.

خطواتهم وأنا مستلق في خيمة القصب. عبر سواد الليل يخبون الخطا وهم حفاة وقد شمرّوا حتى الركب. الشوك والحجارة تجرحهم. أرجل وسواعد مرشومة بالوحل. مع الماء يمشون نحو الأراضي العطشى. الأراضي التي ستعطيم العشب والمواسم. والماء ليس ملكهم، بضمن المؤونة اشتروه من جلاديهم عندما كان الزمن كالماء سائلاً مفلتاً منهم.

مع الشفق يمشون وهم يغنون، والعالم سلام وغبطة. السهول اخضرار مدّ البصر، والبحر والقمر ساكنان، والصيادون يشدون عبر البحار الزرق، والرجل الصلب الغاضب من عصره وناس عصره، قائم هناك بين الشفق والأرض، يضرب الأرض ويغني ويصلي، من الخيمة أسري صوبه فيسألني لماذا أنيت فأقول: لأساعدك. فيقول: إذهب ونم. أنت ما زلت صغيراً يا حبيبي.

- ولكنك وحدك وتتعب.

- عندما تنمو وتشبّ تقدم نفعاً.

- أستطيع أن أراقب لك المياه في المسكبة. بعنف وصلابة يحرف بمعوله الأرض. في عروقي يرن صوت الضربات وجرف الحصى. صوت الوحل وصوت الرجل وهو يغني زمانه الخائن. ومن الفضاء الرحب المزروع بالنجوم يأتي صوت طائر الهجرات. نحو السماء أرنو بحثاً عنه فلا أراه. السهول الملونة تمتد موصولة بالبحر الأخضر. أشباح الفلاحين تعبر ماضية في الغلس. تحمل الريح رائحة عرقهم منحلة برائحة الخضرة والبراري ونشيش المياه في عروق الأرض. يختلط هذا الجمال القاسي برائحة الفضاء والسكون والعذاب البشري ورائحة أبي الذي يستلقي مع الفجر قربي، بارداً، منهكاً، مستسلماً للسكينة الهابطة عليه في أواخر الليل.

- أنت يا أيوب حكاية قديمة ولدت في أحضان المسرة والريح والغزاة.

- وأنت يا بني عاشق ملهوف لزوجتي وعلى حوافي جسدها تنطفئ رائحة أحلامك الكبيرة.

□

بيني وبين نفسي بحث أخيراً بحبي لديانا. حدث ذلك قبل اكتشاف الخلل. وإذ تذكرت عجزها عن العطاء غضبت من نفسي ومن مسرور وغفرت لها. لأول مرة وأنا أستحضر معرفتي بها أتذكر كلمة راني عن الضعف البشري.

واذ أقرر أننا تحت الاحتلال واننا مهددون بالإبادة وأن لا نكون. تسأل :
لماذا لا يقاتل جميع الناس؟

- لمسرور بيت وأرض اغتصبت !

تصفني : فلسطين الآن ودمشق غداً !

بلا كلمة أهرب. أمتطي الشوارع. الريح مرة أخرى. ريح مسمومة. الاختناق فوق أرصفة المدينة. المدينة ضيقة والوطن ضيق. العالم ضيق وأنا محاصر، معتقل داخل نفسي. أمضي في الشوارع الضيقة فيطلع وائل من جدران المدينة جريحاً فوق شاشة المضي. ويدق صوت راني : دعنا نخرج من أزمة الانحطاط.

- محال. محال. كالجردان سنموت في المصيدة. يقول سامر. وأحس قلبي يخفق بشدة. وأسمع موسيقى التابو والرقص الشهوي للأجساد النازعة إلى المضاجعة بحرارة من يرفض الموت.

أصوات. أصوات عن التحرير. أصوات عن الماضي. صوت خبيب فرس موسى بن نصير وهي تشق عباب البحر. أصوات الفلاحين في الليالي الفلسة. أصوات ملايين اللاجئين المذعورين يديرون ظهورهم لمواطنهم باتجاه بلاد الأمان والرصاص، وصوت مناحيم بيغن يطاردتهم. ثم صوت منى الذي لا صدي له.

- ٢ -

العالم الذي تصوره كاملاً منسجماً، شارفت فوضاه على الاكتمال. لقد بدأ أولى انهياراته. كل ما حيك خلال العمر من نسيج العنكبوت في سقف المغارة، ينقطع الآن تحت أشعة الشمس المتسللة من الفجوات : باطل. باطل الله والإنسان وكل ما على أديم هذه الأرض من أباطيل.

- عصور الضوء راني متى تقبل؟

- عندما ينبثق الدم أكثر.

- أما كفانا ما أهرق العربي من دماء؟

- الدم الآن مستقبل العربي.

(درب طويل وعمر. العالم ظلام. صمت الظلام يمزقه أنين مجموعات تتناكب. الطريق بلا نهاية ينحدر كأنه شق عميق يخترق الأرض من القطب إلى القطب. جموع مهددة بالظلم والتعب. فوق الراحات توايت قتلى عارية من أكفانها. لا أحد يعرف إلى أين تمضي والذين يعبرون الوعر لا يعرف أحدهم الآخر. لا يسمع أحدهم الآخر، ضمهم المنحدر وهذا الليل لكانهم آثمون مأخوذون بذنوب لا يذكرونها. الأحياء والأموات معاً في ليل عابق بالأنين ورائحة البخور. أحد ما لا يسأل الآخر إلى أين يمضي. لا علامات لهم. مجرد اشباح متحركة تهوي. الأموات فوق الأحياء. لا أحد يتقدم ليعين الآخر. المكان موحش. لا خضرة. لا ماء. لا امان. ممر خائق يزدحم بالأنفاس والأجساد الدبقية. فجأة نسمع فرقة سوط. الذي هوى تدوسه الأقدام العمياء. طلقات. الذي يتزف يثن. يطلب ماء فلا يلقى. ينكفي سافاً تراب الوعر. القافلة بطيئة. يزداد انحدار الأرض والهوي متلاحق. تختلط ضربات السوط بدوي الطلقات. كثيرون يهون وكثيرون

يداسون وكثيرون يلعقون دماهم المزوجة بتراب الوعر ووحده الأنين يحدوهم.
انفجار يهز ضمير الأرض ثم لا شيء).

في ذلك اليوم هتفت منى. كنت منقبضاً يومها من أثر الكابوس. قالت: أنا
حزينة وكسيفة. هل ما تزال غضباً مني؟
وقلت: أبداً.

وذكرتني بحادثة الأمس، حيث وسمتني بأنني تافه في حالة نزق. وقالت بأن
الكلمة سقطت سهواً منها، وكانت تود استعمال كلمة أخرى لم تواتها في تلك
اللحظة، وسألني عن شعوري بعد مغادرتها فقلت: الأسف. وأصرت أن تعرف
لماذا فقلت: لأنك تحشرين جميع الناس داخل زجاجة مغلقة وتقذفين بها إلى
البحر. وسمعت ضحكها على الهاتف. واستعادت الحديث بمواساة: ولكنك تعرف
قيمتك الحقيقية في نفسي!

- يوماً ما لم أشعر بهذه القيمة كما ينبغي.

وبرضى أكدت: حتى لا تصاب بمثل ما أصيبوا به من غرور ونسيان. ينبغي
أن تظل في أفسى حالات البقطة. وبحت لها بأنني عرجت أمس على بيت أمينة
وإذ رأني كثيراً خفت عني وألحت أن أنام معها حتى الفجر، ولكنني غادرت بعد
ساعة تقريباً، وأنني حلمت تلك الليلة حلماً مزعجاً سأرويه عندما نلتقي.
واتفقنا أن نلتقي ظهر اليوم التالي في غرفتي قبل أن تسافر من دمشق.

□

هذه المني. النسغ الصاعد عبر الجذور. الاخضرار ورائحة التراب والتعب
الجاثم في عروق الفلاحين، طائر الهجرات الذي أسمع صوته ولا أراه. أقول ذلك
لنفسى كل يوم في أماسي التوحدة، فيعطيني هذا المخدر بعض القدرة على
الاستمرار، ويمنحني ذكر اسمها أماناً صغيراً يبعد عني شبح فكرة الانتحار. وتقول
النفس: لا بد من زوال هذا الكابوس والخروج من هذه المأهاة يوماً.

فوجئت بأبوب السرحان مقرصاً في غرفة أمينة يشمل. لم يسألني كيف فتحت
الباب. كان يدرك بالحدس أن مفتاح الغرفة معي مذ قررت أمينة هجرته وعزله في
الغرفة الأخرى. ابتسم من أعماق كئيبة وحاول أن ينهض: مساء الخير. أهلاً. أهلاً
بالحاجر.

وقلت: لن تنهض. تقدمت وضغطت كتفه. وسألني: لماذا هجرتنا هل أسأنا
لك؟ فقلت: أستغفر الله. أبداً. إنما ضغط العمل في هذه الأيام.

وقال: العمل أحق. الله يعطيكم العافية. الوطن بحاجة لهمتكم. كيف
الأحوال؟

- لا بأس. الحال ماشي.

جلست قربه. ومعه احتسيت كأساً. كان في حالة غريبة. حالة شبه موتية.
حمرار وجهه ممزوج باصفرار رمادي. ويداه ترتعشان على نحو متواصل، كأنما دهر
من الحزن جثا فوقه وراح يغور فيه. وكعادته ثرثر عن تاريخه منذ الأتراك حتى
الفرنسيين وبداية الاستقلال الوطني، وإذ وصل إلى العصر الحاضر راح يدهن
ويخاقل. وسألني إن كنت أستطيع مساعدته لاستعادة بعض أراضيه التي انتزعها
الفلاحون منه. وحاولت إفهامه بأن الموضوع شائك، وخارج عن نطاق إرادتي وأنه
تابع لحاكم الدولة، وإن كان مظلوماً عليه أن يرفع ظلامته إلى هذه المحاكم. كنت
أدرك جيداً هذه المقايضة التي تأخر الإعلان عنها، وحدثني عن الرعاء الذين كانوا
يحلون الأمور بهاتف أو ورقة صغيرة بعيداً عن تعقيدات المحاكم الروتينية، وقلت بأن
الأمر مختلف الآن، وتشعب الحديث نحو حياته التعيسة التي أعاد موسيقاها على
مسمعي مئات المرات.

وإذ لم يدخل علينا أحد ولم أسمع حركة في البيت سألته: متى نام أهل
البيت؟

تأوه بانكسار: ما عاد في البيت أهل.

استفهمت فأفادني بأنهم غادروا منذ أسبوعين أثر شجار حاد كادت الجريمة
تنوجه. وبدا يريد كتمان السبب في البدء. لكنه أفصح بعد فترة صمت قصيرة بأنه
رأى المستأجر الذي يسكن في البيت يتسلل من غرفتها في الساعة الرابعة بعد
متصف الليل.

كان الدمع محتبساً في عينيه؛ ذل معاند لاح في انحرار المقلتين. وراح يعيد
أسطوانة كراهيتها له بعد أن جرد من ملكيته. حكى عن طفولته وتضحياته في
سيلها. وكيف عبدها لكنها كانت عاقبة وعينها للخارج، وكيف غطى عينيه
عن الناس الذين كانوا يدخلون البيت لأنه أحبها أكثر من أي شيء آخر، ولم يكن
يصدق أنها تخونه: أمينة امرأة جميلة لكنها شريرة. لعن الله النساء. جلد ناعم

كجلد الأفعى لكن الثاب مسموم. كان واضحاً الآن في وجهه المحرث بالزمن والعار وعينيه الموشكتين على الانطفاء وارتعاش يديه، انه على الحافة وأول هبة ريح ستهوي به إلى القاع.

ولأول مرة ربما، يثير أيوب السرحان حزني وشفقتي وهو يروي رحيل أمينة بعد أن كنست أثاث البيت وتركت له بساطاً مهلهلاً وسريراً عتيقاً، حتى أدوات المطبخ أخذتها، وهو الآن وحيد.

وأنا مبتل بالكآبة سأله عن سمية. فأجاب: أخذتها معها. البنت رصعت حليب كراهيتي من النجسة أمها. في الأيام الأخيرة كانت ترمقي بنظرات مليئة بالاشمئزاز والاحتقار. وتهدد بقهري: يا إلهي كيف ستعيش تلك الطفلة بدون أب! نصف ما في كأسه جرعه مرة واحدة، فكادت الكأس تسقط من يده. حاول أن يصب لي كأساً ثالثاً فاعتذرت وألح فرفضت. ومن لفافته أشعل أخرى وزفر الدخان.

بعد لحظة صمت عاوده الأنين: كما ترى الآن.. وأمام عينيه راح يفتل اللفافة وبسخرية قال: إيه يا للدنيا كيف تبدل من «الوكي سترايك» إلى دخان «الناعورة» ومن الجوني ووكر إلى عرق الكبريتة.

واستمر يهز رأسه بحسرة.

وقلت في سري: وقبل أن أرى. من الست زينب إلى المزرعة، ومن المزرعة إلى باريس ولندن، ومن باريس ولندن إلى البرلمان، ومن هناك تمت مقايضة فلسطين واللواء، بالويسكي والنساء والوكي.

وتابع أيوب: الزمن خائن. يوم معك ويومان عليك، وأمينة كانت مع الزمن علي.

كان الجو ثقيلاً ككتل من رصاص، وأيوب بدأ يدخل بوابة هذيانه، وخيل إلي وأنا أشهد اهتزاز العضوي، أن مراكزه العقلية تهتز هي الأخرى فاقدة أية قدرة على التركيز والمحكمة وضبط الأشياء.

في ساعة متأخرة بعد أن أوشك الضجر والقرق على الانفجار في عروقي، غادرته وأنا ممزج النفس بينه وبين فقداني لأمنية.

المدينة هادئة، شجرها ساكن. أحس الصمت يتغلغل في روحي. إيقاع الخطوات متعب والصدر ضيق. هي الأخرى رحلت أخيراً ولم تترك كلمة. ربما بلا ندم. لعلها اكتشفت في النهاية سر اللعبة بيننا، انعطفت في طريق جديدة لا تعرف إلى أين تقودها. الآن أتذكر جيداً أحلامها القديمة عن السفر والبيوت الجميلة المؤنثة والسيارات ورؤية العالم الشاسع المسكون بالفرح والحرية.

كان ذلك في ليلة تخاصمنا فيها. لامني لأنني اعتبرها ضجيعة في الليالي فقط، وأذكر أنها طلبت مني أن نذهب معاً إلى البحر ونمضي أيامنا هناك بين الشاطئ والريف، وأنها منذ زمن طويل تحلم برحلة كهذه معي، وفي تلك الليلة اعتذرت ووعدها أن يتم ذلك في مستقبل قريب، وفي تلك الأيام كنت أعاني حزناً داخلياً سببه حالتي المرضية مع منى، وجبتهني بأن رفضي يعود إلى خجلي من الظهور معها أمام الناس باعتباري فتياً وهي في سن أمي. وزادت قائلة: إنك كنّ لي احتقاراً دفيناً لأنني أخون زوجي. وجاهداً حاولت إقناعها بأنها تتوهم أموراً غير موجودة، وأن الموضوع لا صلة له بالاحتقار، وحاولت بتبسيط ممكن، إفهامها عجزني عن ابتناء صلة دائمة، وأن حياتي سلسلة من الفوضى وعدم التركيز، وكنت ألمح بذلك إلى استحالة الزواج منها أو من أية امرأة في العالم لأنني لست سوياً كما يعتقد الأطباء والناس. واثّر ذلك حدثني عن شاب ثري يهيم بها منذ زمن، وأنها تصده وقد عرض عليها مالا وسيارة، وهو على استعداد لاصطحابها معه إلى نيويورك حيث سينم هناك دراسته الجامعية، وقد رأت أن تعرض الأمر علي لأفهم بأنها تضحي من أجلي بأحلام لا ترفضها امرأة في عالمنا.

وفيا بعد بمسرحية مضحكة، حاول الشاب الانتحار ليثبت صدق حبه لها. لقد جرح إصبعه بطلقة مسدس صغير. وإذا قالت بأن أيوب هرع إليه وضمد جراحه، أدركت أنه الطالب الذي جاء به أيوب وأجره الغرفة المجاورة لغرفتها. وفي تلك الليلة اكتفينا بقبولات ممتدة ومداعبات باردة وكنا كشيئين، ويومها على غير العادة خرجت من غرفتها باكراً.

هي ذي الشوارع تمتد. خارجة من شبكية الذاكرة إلى شبكية العين. تثير المرارة وحسّ الفقدان. فوق هذه الأرضة قدتها. تبعثك كما يتبع عبد سيده. خلقتك صعدت سلام مجهولة والخوف منبس في خطواتها، وإذا كانت الأبواب تُرجع تلفت. خائفة داخل الغرف الغريبة. تسأل: أمتأكد أن البيت خال؟ وإذا تجيبها: اطمئني. تنفس روحها المرصودة بالخوف. تتقدم نحوك مادة ذراعين ناعمين

لها ملمس حرير فخم. بكل جسدك تحتويها وتضغظ فتحس بأن أفراح العالم تطوقك الآن.

في آخر لقاء كان سلوكها غريباً، فلاول مرة شربت خمرأ حتى ثملت ومن عينها شع فرح لا مثيل له، وعبر ثرثرتها قالت بأنها ستقدم لي هدية جديدة من النوع الذي لا ينسى. كحللم تأتي الحادثة. حلم لا يصدق يخرج الآن كجرح على شاشة الذاكرة. لقد بدأت التعري كما لم يحدث في تاريخ علاقاتنا، وبعد أن انتهت تقدمت نحوي وهي تبسم، وراحت تفك أزراري حتى عرتني. وجهاً لوجه عاريين. تناولت كأسها وناولتني كأسي، جسدي يوازي جسدها ويلامسه. رفعت كأسها عالياً وقالت وهي تضحك ضحكة غريبة: نخب العري، وشربت وأنا مأخوذ بحالتها. وإذ أخذت ترقص ممسكة بيدي ملتحمة بي مبتعدة، بدت كأنما أصابها مس.

بعد أن أنهكت بالرقص والدوار في مساحة الغرفة الضيقة، استلقت أرضاً وكانت تلهث وجسدها يختلج وئديها يخفقان في مهب ربح الجنس، وإذ تباطأت في الإقبال عليها، انقلبت على بطنها وراحت تصدر أصواتاً شهوية موجهة، وكنت مشدوهاً وهي تتحرك أمامي. تجشو على ركبتها وهي ترتعش كمن يحتضر، وأسمعها تتمم: أعرف أنني لا أستحق. أجل أنا تافهة ومنحلة.

وأقول: أنت مخطئة. أنا أرى فيك ملكة من نوع خاص. وصرخت: لا. لا. بل أنا أحقر من ذبابة. وبدأت تنشج بشكل مثير. وتقدمت منها ومسحت دمعها. مشت أنا ملي فوق ظهرها الياقوتي، وبجنو ضممتها وكنا نجشو على البلاط البارد، واستلقينا. ولما تجاسدنا انبثقت منا رماح من نار، وفي ذلك النهار تعرفت فيها على معنى الحياة والموت وكأنما لأول مرة يولدان من جسدينا، ويومها كانت فرحة حتى الأقصى، ولم أكن أدري أن تلك اللحظة المباغثة ستكون الأخيرة. ونحن مولحان أخبرتني أن كل ذرة في جسدها ستظل تذكركني وقالت ستسني يوماً لكي لن أستطيع أن أنساك.

وفي حالة بدء الصحو، تحدثت بأنها لم تكن تتصور أن الخمرة تثير إلى هذه الدرجة وقلت: ليست الخمرة فقط. وأشرعنا ضحكين، ولم تكن ضحكنا كاملة، وعقبت: الآن تفهمين لماذا كنت آتيك مخموراً في الليالي الماضية.

وفي ذلك اليوم بقينا معاً من الظهرية حتى المساء في بيت أحد الأصدقاء، وفيها بعد أدركت أن غياب ذكر أيوب والزواج، كانا من أسباب الفرح في نصف النهار ذاك.

ها هي الآن في هذه اللحظة مجرد ذكرى مضت، بعد أن داومت عليها كما بدوام رضيع على ثدي أمه. والآن أنت في فراغ دمشق تطوقك التعاسة التي تقدم غب كل الأفراح. تعبر الشوارع القديمة التي عبرتها مئات المرات وذهنك عابق بحكايا مضت تتمرز مع هبوب ربح الياسمين. تدور. تدور. لافاً منعطفات لا نهاية لها. وتحت الشبايك التي عرفتك تمر ولا أحد يعرفك أو يشعر بوجودك. غريب. غريب وروائح الياسمين تحملها ربح رخاء. والروائح تذكر بما مضى فيأتلق الحنين إلى الجسد الدمشقي الذي غاب الآن، وفي ليالي الشتاء والأصيايف الرطبة كانت المثل والحضن الأمومي بعد أن اجتث الزمن وطن الطفولة.

غريب وحزين، كما ينبغي للغرباء والخزاني أن يكونوا في مثل ليلتك هذه.

والمكزون وأبا نواس والشرازي، معتقداً أنه بين أناس يرجعون من ليس على شاكلتهم.

ومن الوظيفة إلى البيت، ومن البيت إلى الخمار والشوارع. وزمن العربي ليس ملكه. ملك الريح. ومعه سهم ورمح، والحرب ساحتها النفوس التي سمعت صوت مناجم بيغن: «سوف تعود أرض إسرائيل إلى شعب إسرائيل بتمامها إلى الأبد وسوف يبنى الهيكل وتشرق الشمس ثانية على بني إسرائيل» ثم ما لبثت أن نسيت. وفي الشوارع والخارات والبنوك والضوضاء وأحضان النساء، راحت تغرز رماحها. وتساألني منى ما الذي تفعله في أزمئة الحن؟ فأقول: أعمل وأغني. أشاهد وأناقص وأنوح.

تقول هازئة: عربي مثالي.

ولما حاولت الدفاع عن نفسي بأنني أعزل وحيد، خسرت وطني في معركة لم أخضها، وإن حركة التاريخ تدار من القمة وأنا لست أكثر من حجر شطرنج، سألتني: لماذا لا تعود من حيث أتيت أو تنتحر؟

وقلت: لكن الانحراف يحدث باسمك.

واعترضت: أنا خارج الأشياء مثلك.

وقلت: دعينا إذن نهرب إلى الجبال لنعيد صنع العالم بطريقة جديدة؟ هزئت: يا غلام، الشعراء لا يصنعون العالم. وإذا سألتها: من يصنعه إذن؟

ابتسمت. ضغطت أسنانها ثم مضت.

وأنا مستلق على السرير، هوم على شاشة الذاكرة حلم الرجل الذي قطع أصابعه الخمس، محاطباً أبي: ملعونون. ملعونون أنتم. ملعونون حتى قيام الساعة. فيما بعد مات بالسم وكان عَرَّاف نفسه، والذين سمَّوه كانوا من سلالة أيوب.

وأيوب السرحان يسألك أن تعمل له شيئاً لتعود له أراضيه. ها. ها. والرصاص لماذا يطلق بغزارة إذن؟ والدم لماذا ينبغي أن ينبثق؟ وهذا القتل اليومي لماذا تُشرع راياته بين عبس وذبيان؟.

- ٣ -

الهوس والكابوس ولوثة الحس. مبرر البقاء ونقيض الموت. كل هذه المسميات تختزل في إسم واحد: منى. معنى جميع الأشياء. كما يستوطن السرطان جسداً ثم يتلفه بعد وقت، هكذا كانت هذه المرأة التي حلمت بها مذ غادرت وطن الطفولة ويممت شطر دمشق. مرة واحدة رآها راني فأخذ بها. قال عنها فيما بعد: هذه نقيض جميع العصور المنحطة التي نعيشها. ولأنهم مشهورون عرفتهم جميعاً: شعراء وضباطاً ومديرين ولاجئين وفلاحين. باسمها تحدثوا في مجالسهم وباسمها عُرفوا. وأذكر يوماً أنها صرحت لي: أنا متهمة بعلاقات مشبوهة مع الآخرين لكنني أؤكد لك أنني بريئة من كل ذلك.

وتحدثنا عن راني بعد أن صارحتنا برأيه فيها، فابتسمت ووصفته بأنه إنسان طيب وضعيف، يعيش قيمياً تجريدية معرضة للاهتزاز والتناقض لكنه ككل المثقفين، دعي وجبان. وحاولت الدفاع عنه: راني جاع في طفولته وحرَم من الحنان. فقالت بمجانبة لا متناهية: عندما يشبع ويعاقل لينا من يضمن أنه لن يكذب ويخون؟

في ذلك الغروب كنا معاً في مقهى الشموع، كانت الأضواء خافتة، وقربنا كان عشاق مراهقون، وجوههم متحاذية تهمس كلمات مبهمة عن الحب. وسألتها عن رأيها بشخصي فقالت بأنني حالة مرضية خاصة: مزيج من الفوضى والحرية وردود الفعل والغضب. وابتسمت وهي تلخص: الحق أقول لك أنني لا أفهمك. إنني أساءل أحياناً ما هو الوضع الجديد بين المتمردين والثوري؟ وأذكر أنها عانقتني وقالت: قبلني على خدي. وإذا سألت لماذا الخد. قالت: آدم يقبل ميسالينا على شفتينا.

محزنة حالة هذا المفقود. العربي المهجور وقد ضيع قومه وضيعوه. ومحزن أكثر ذلك الرجل الذي قتلته الشمس والتعب، وعاشر صمت الليالي وقرأ ابن الفارض

منى اكتشفت أنك لا تستطيع أن تفعل شيئاً سوى الحرب أو الانتحار. وعلى نحو مختلف كان هذا يعني الخيانة وأنت لست جديراً بها. والجبان يخاتل أحياناً بالتحليل والفسفسطة، يحارب بالكلمات في أزمنة الرصاص: دونكيشوت معاصر. لا بد أن زمناً غريباً، زمناً مفاجئاً عديم اللون يتقدم. سامر البدوي سماه: عصر الكلاب والسفلة. وراني قال عنه: أنه زمن المصقلة. أعني الزمن الأعمى. إنه يسقط فجأة على ضحاياه دونما ذنب. ولم يسمه أحد عصر الشهداء. والد مسرور كان يحسه كدوي بحر خفي مني بالهباج، وكانت معادلة ربط الماضي بالحاضر، غير متسقة تماماً في رأسه. غير أنه كان يقول: في الماضي كنا أكثر شجاعة منكم. فالذين تطوعوا في جيش الإنقاذ ودخلوا فلسطين كانوا فدائيين تركوا بيوتهم وأطفالهم وأرزاقهم واندفعوا نحو الاستشهاد لا يلوون على شيء. كان مفهوم الوطن واضحاً وبسيطاً لا يحتاج إلى مباحكات ومؤتمرات وكلام فارغ. أن يذهب الإنسان إلى معركة ويموت بشرف، بذلك كان يتطهر وينقذ نفسه وينقذ الوطن. أنتم ماذا تفعلون في هذه الأيام السود؟

غير أن ما هو واضح في ذهنه، كان الصدع القائم بين الشجاعة بمفهومها البدائي، وبين تكوّن الإنسان الجديد الذي ما عاد شجاعاً. كان الصدع في الزمن النفسي لا في الزمن العضوي، وكان من السهل الحديث عن الموت المجاني بتلك التلقائية الشعرية والملاحمية التي حدثت في فلسطين وفي تواريخ الأمم. لكن الذي كان صعباً هو كيف نرد بشكل علمي وحضاري على تصريح زعيم حزب حبروت الذي قال أيضاً: «لن يكون هناك سلام لشعب إسرائيل ولا لأرض إسرائيل ولا حتى للعرب ما دمنا لم نستعد وطننا بأجمعه حتى ولو وقعنا معاهدة الصلح».

□

أنهض نشيطاً. جو الغرفة حامضي وكثيب. أفنح النافذة فأفاجأ بجارتي لأول مرة على الشرفة بثوب النوم، تستحم في شمس دمشق الدافئة. شعرها مضطرب لكن النصف العلوي لتديها بارز فوق حافة الشرفة. وددت لو أرتقي إليها، أعرفها بنفسني: أنا جار تعيش هجرته عشيقته والآن وحيد فهل يمكنك إنساني؟ سحبت أسناني قرفاً وجارتي تنسحب مرتجة الباب بعنف إذ رأيتني أرنو إليها. شعور بالقيء فأجاني وأنا أعبر الصالون. اتجهت نحو المطبخ ورشقت وجهي بالماء فازداد حس الغثيان. في المرحاض تقيأت. كان ذهني مشوشاً، وشعرت بأن لا شيء يعمل

فانبطحت على السرير. فكرت بمنى وأمينة وسامر، بدمشق والعالم، بحياتي المورجحة بين الممكن والمستحيل. وفي سمعي ضج صوت السيناتور منحيم بيغن مرة أخرى. كانت دمشق خارجاً. تسير بمشيئة أخرى، ولم يكن بيتي في دمشق ولا هناك، وغمرني حس الغربة صلباً قاطعاً كشفرة موسى، وقال الذي ليس أنا: لم يكتمل الوقت والجسد بعد. ورن جرس الباب. فاجأني وجه سامر البدوي. سلّم بشتيمة وهو يتقدم عابراً الصالون نحو الحجر. دارت عيناه في الغرفة: أهذه غرفتك؟ وعلى وجهه ارتسم اشتزاز.

قلت: وماذا فيها؟

- تشبه السجن.

- أنا أتعس من سجين.

وسأل إن كنت وحدي وتناول لفافة وطلب قهوة وكان منشرحاً. وسألته لماذا أتى في هذه الساعة فضحك: لدي أخبار سارة. وسألني رأيي في قصيدته الأخيرة التي قرأها في الواحة فقلت: كانت سامرية كالمعتاد.

- ماذا تعني بسامرية؟

- اجار داخلي في متاهاتك الشخصية.

- إطرأ أم تهمة؟

- كلاهما معاً.

وقال: يا أخي أنت مثقف وتذكر جيداً حالة الحلول بين الذاتي والموضوعي بالنسبة للأديب. الشاعر الحقيقي ذلك الذي يرصد العالم من خلال تجربته الذاتية.

وقلت: أولاً أرجو أن تنفي عني هذه التهمة المنحطة تهمة المثقف. أنا إنسان عادي يحاول أن يفهم فقط. وثانياً أنا أرفض المركزية الذاتية العاجزة عن الخروج إلى الآخر بإشارات خاصة. أعرف جيداً ماذا تود أن تقول غير أن ما أريد قوله: أن سقوطاً آخر، شيئاً آخر سمه ما تشاء يحدث في العالم خارج ذاتك الكريمة. صرخ غضباً: سقوطي رمز سقوط العالم.

وقلت متحدياً: لست العالم على ما أعتقد. دودة القز تموت داخل شرنقتها وهي تصنع الحرير.

وبدا محاصراً فقال: ينبغي أن أرحل. أنت لا تطاق. وقذف أمني بشبهة قدرة.

وقلت: ترحل أو لا ترحل هذا لا يهم. ما يهم أن عليك أن تتعلم الاستماع إلى غير الإطراء الذي يقدمه الكذبة والفريسيون. أنت شاعر بالإحساس لكن جيوبك مليئة بالرايا. تركته مغتماً ونهضت أعد له القهوة وإذ عدت كان يتصفح أوراقى. ابتسمت هائناً وأنا أقدم له القهوة فرنا نحوي مستفهماً فقلت: غريب! منذ متى تقرأ دفاتر الآخرين؟ شتم. دخن بعصية. احتسى قهوته. وأطلق خبره السار: طلقت اليوم. وتحدث عن فرحه بالخلاص من خيوط العنكبوت، وأنه يشعر الآن وكأنه خارج من مشفى، وأخبرني بأن تلك المخلوقة التعيسة كانت على حافة الحنون، وقال: بأن الحب حالة مرضية عابرة ابتليت بها سوية في صباح ما في الجامعة. لا تستطيع أن تتصور ذلك الحب الذي كان. الجامعة تحدثت عنه لسنوات.

وصمت. كنت أعلاه. في عينيه حزن وتعب وفي وجهه صحة. وهو ينهض عن كرسيه كان يضع يده على قلبه: كيف حدث تبدل من أقصى الحب إلى أقصى الشفقة والازدراء مع المرأة نفسها؟ أي تمزيق يفعله الزمن في النفس؟ وتحدث عن ولادته الجديدة في هذه السن المتأخرة، وتساءل إن كان قد بقي له زمن بعد هذه الرحلة الشاقة، ثم تحدث عن الإنسان الذي يشبه الشجرة: أنا الآن أشبه السديانة الهرمة. يوماً اثر يوم أحس بجذوري تنقطع. وانعطف أكثر نحو الوحش الذي يراه في الحلم واليقظة والذي يسري في دمه، وعلى قلبه ضغط أيضاً: في الختام تطفأ جميع الأضواء. أية مسرحية مفعجة ومضحكة! وما كان متوجاً بالكآبة كما هو الآن، ويعين أخرى لمحت وحش الموت يستل الرغبة من بدنه، ولم ينتبه لرعشة أصابعه وهو يتناول القهوة، وكنت متأكداً بأنه لولمح ذلك لتناول فأساً وقطعها ورمها إلى كلاب الشوارع.

لست ذاكرةً لماذا كان لقائنا جافاً في ذلك الضحى. إنني أذكر جيداً حديثي الآخر معه حول ما سميت التوازن الخاطئ للتلاؤم مع العالم، وإن هذا التوازن لا يحس إلا بعد فوات الوقت، وأذكر بأنه قال: حتى أنت تهتم؟ وقلت ما معناه بأن الحياة في أصلها ربما كانت خطأ، ونحن واقعون في بئر هذا الخطأ من الأساس، وأنت عندما حاولت الاحتجاج على هذا الخطأ وقعت في خطأ آخر، وكثيرون لم يفهموا لماذا طعنت بقسوة رحم العالم المقدس وجعلت من حياتك جحيماً ومظهراً داخل جسد واحد. وإذ تحدثنا عن أمور كبيرة لها صلة بالتاريخ احتج على فكرة:

بأنه ليس أهلاً في هذا الزمن لأن يسهم في خلق التاريخ. ثم أضفت. أعني ربما كنت سابقاً في الوقت. وربما تصلح لزمان آخر غير هذا الزمن. وقال: أنت تدبني إذن! فقلت: أنا أحاول فهمك فقط، وإذ حاول أن يعيد أسطوانة الرغبات التي تنفجر في الداخل والتي تبحث عن مخرج في عالم مسدود، وإن الإنسان إما أن يعيش كما ينبغي أو ينتحر، قلت: كلنا مخطئون على ما يبدو في هذا العصر.

وبشدة رفض ذلك، وتحدثت عن الثورة ضد القيم الكاذبة والناغلة في دمائنا: الصدق مع الذات هو الثورة، لكن الغباء السياسي قاصر عن فهم مثل هذه الحالة النفسية. يريدون أن يجعلوا منا ثوريين بمضمون كهنوتي وهذا ليس مناقضاً للحقيقة الثورية فقط، إنما معادٍ للوجود الإنساني في العالم. لكي أكون ثورياً ينبغي أن أكون أنا بكل العري المطلق من الداخل والخارج. وبألم حكى عن شعوره بالنني، وأنهم هددوه بالفصل من الحزب إذا لم يغير حياته الفوضوية، وقال: الحزب في دمي ماذا يبقى لنا بدونه؟ الحزب أبي وأمي وزوجتي التي أشتي الزواج منها يوماً بعد أن طلقت. وأذكر بأنني جابته بأنه ليس جديراً بالحزب فامتنع. شتمني واتهمني. وإذ حاولت توضيح فكري عن الطبيعة المناقضة لتكوينه النفسي مع طبيعة الحزب، وإن ثمة فرقاً شاسعاً بين المناضل السياسي الذي يتجاوز رغبته الذاتية وبين الشاعر، هزئ من فكري، كما أذكر أن أصواتنا ارتفعت أكثر مما ينبغي حتى أن جارتني خرجت مرة أخرى إلى الشرفة تستطلع الشجار. كان غضبه قد وصل إلى أقصاه، وبدأ وجهه في لون النار والرماد عندما بدأ يصرخ كحيوان مطعون ويضرب الطاولة بقبضته المتوحشة. اثر هياجه صمت. لم أنبس حرفاً. فقط استلقيت على السرير أحرق في السقف. وإذ صفق الباب بعنف سمعت مقطعاً من جملته الأخيرة: كلاب. أوباش. كلكم هكذا!

فوق عظام تأخت الآن مع التراب وانحلت فيه ، وغير باقية من ريحان توضع فجراً فوق حجارة القبر في مواسم الأعياد وفي المساء تذبل وتموت .

ونسير ، كأن حلماً يلفنا ، مأخوذين بهذا العبور الزمني الأخير ، تأسرنا معاً تلك اللحظة الغفل التي ظلت مفلتة منا فلم نتمسك بها يوماً ، والتي كان يمكن أن تكون برق توصلنا المركزي الذي انفجر الآن .

- ٤ -

هل قلت أن أصابعنا كانت مشتبكة في عتاب سري ، وإن زندي طوق خصرها التحيل على الأرصفة ، تحت بريق الضحى ، والناس يمحون بنا ونحن لا نرى غير حلمنا الوداعي الأخير؟ كل هذا يضاف إليه عناقنا وقبيلاتنا الشمسية لا تحدياً ولا ثأراً ، إنما شعور عفوي صدر منا بغتة في تلك اللحظة الخاطفة . آه كم تمنيناها أن تطول ، وتطول ، لتدحر كل الحزن وكل الفصام اللذين قطعاً نفسينا بسكين أحد من الموت .

كم طالت المسيرة؟ كم كلمة ألقينا؟ متحاشين الحوارات العقيمة الماضية . كيف اخترقنا جدار الزمن الذي كسرنا في ختام اللعبة؟ كل ما أذكره بعد ذلك أننا أنمنا مراسيم الحلم في غرفة مضيفة فيها سرير أبيض موشاة بستائر برتقالية ، فتحنا نوافذها واستلقينا على السرير عاريين ثم انغمروا في نشيج حارٍ وطويل .

(شاطئ مرمل ومعشب . البحر هادئ يسبح فيه أناس لا أعرفهم . بناء شامق قرب البحر يشبه القلاع القديمة . داخل البناء مظلم ورطب تذكر هندسته الداخلية ودهاليزه بسجون القرون الوسطى . البناء من الداخل ضيق ذو طابقين وأنا في الطابق الأعلى . ثمة سلمان متقابلان . يوديان إلى أسفل حيث يقوم بئر عميق مظلم وأنا محاصر داخل مساحة بحجم السجن وخائف . امرأة تقف على سلم خشبي . أراها تضغط شيئاً ما فيساعددها السلم على النزول إلى أسفل . أصرع للمرأة النازلة أن تساعدني في الهبوط . تنظر نحوي بلا مبالاة وصمت وتخفي . بعد حين تصعد من السلم الآخر امرأة أخرى «النساء يبدون كمرضات في مستشفى» .

المرأة الصاعدة ترتقي بيسر السلم البشري «أحس داخلياً أنني عاجز عن هذا الارتقاء السهل» بعد أن تخرج من فوهة البئر ترتقي درجاً لسلم خشبي أنا أقف في أعلاه ، خائف من السقوط فأميل إلى الجانب الأيسر بحيث لو سقطت فعلى السطح الداخلي للقلعة . بعيداً عن فوهة البئر تظهر المرأة الأخرى ترتدي رداء أبيض . أناوب النظر بين المرأتين فيزداد دعري «أحس كأن شيئاً مبيتاً ضدي سينفذ بعد حين» تتبادل النظر ثلاثتنا . تسحبني قوة خفية وأغيب في ظلام مسدود .

ذلك اليوم لا ينسى : أتصوره الآن في تلك البقاع الشديدة الحساسية من ذاكرتي ، ملوناً ، عاصفاً ، مخضوباً بالدمع والشهوة . كنا نسير في الضحى تحت شمس دمشق ، وخريف المدينة بذلك الهبوب الحزين لنسائمه يمسح وجهينا ، وثمة حبات من العرق راحت تولد تحت الجلد الذي أتعبه المسير .

في البدء كنا نتوجه نحو بيتنا القديم ، وهناك في ذلك المكان المهجور ، كان علينا أن نقيم الطقوس الأخيرة لحكاياتنا التي ولدت وماتت ، ثم سجلت في أرشيف الضمير الزمني للمدينة التي لا تنسى . برغبة لا شعورية صدرت الأوامر لخطواتنا كي تغير الاتجاه فانعطفنا نحو الدروب القديمة . بدا بيد تارة ومطوقين أخرى ، وفي الأعماق نشيد من الفرع الجنائزي يحبو فوق تلال نفسينا الكسيرتين .

ونحن نطوف داخل كعبة الذكريات ، كان الصمت يرتل النشيد ، تحرقه بين حين وآخر إيقاع خطواتنا الوئيدة الهاجسة بالوداع ، والحركات الموجعة للأصابع وهي تسري مع الأصابع ، ولراحتي اليدين الملتحمتين المستريحتين ، والمدلاتين كبقايا أوراق شجرة داهما شتاء عاصف .

بوعي وغير وعي عبرنا فوق جميع الأرصفة . مست أطراف شعرنا الذؤابات المتدللة لصفصاف بردي ، قطفنا زهرات ياسمين كانت روائحها قد امتصتها أشعة الشمس . تعرفت داخل كفيثنا ثم ما لبثت أن ذبلت كريش نورس طعن للتو فهورت فوق الأسفلت . ذاكر الآن كيف كانت تلك الجنائزة تتجه نحو المقبرة وليس خلفها إلا بعض الفقراء من الذين أحبوه ، رغم أعاصير غضبه التي كانت تحتاج كل شيء عندما تهب . لقد مددوه بعد الغسل في تابوت خشبي عتيق وكفنوه ، ثم تهدجت أصواتهم متغلغلة عبر البيت المترب المدعم بالحطب : وعنت الوجوه للحجى القيوم وقد خاب من حمل ظلماً . الله حي . الله الباقي . آجروا يا أخوان . آجروا . وفوق الراحة حملوه . من كل تاريخ ذلك الرجل لم يبق الآن غير تلك الحفرة المردومة

في الحلم نفسه أرى البحر مرة أخرى. القلعة اختفت. في البحر سفن عربية. لقد تحول البحر من سكونه إلى وضع مضطرب هائج والسفن تشقه. أهجس بأن إسرائيل ستغير بطائراتها على السفن العربية لتحطمها في موانئها وبذلك تشل عمل الأسطول البحري. أسمع دوي طائرات مغيرة. أرى السفن تغرق وتغوص إلى الأعماق. الطائرات العربية تشتبك مع طيران إسرائيل. جنود عرب على شاطئ البحر. بنادقهم مسددة وهم لا يعرفون بعضهم بعضاً. أعرف بعض الجنود. أصبح بهم ألا يطلقوا النار علي. نتعارف ونسير باتجاه البحر.

أعود إلى وضعي في القلعة ومعني حطام بعض الطائرات داخل سطل كبير. أعتقد أنها حطام طائرات إسرائيلية (لا أتذكر تماماً). أقف في نافذة القلعة. على الأرض أرى ممرضة كأنها قادمة لتناول السطل. أقذف به نحوها فيرتطم بالأرض محدثاً ضجة. يتناثر الحطام فإذا هو جثة داخل كفن أبيض. أراني قرب الجثة والممرضة توزع النظر بيني وبين الجثة. فجأة اسمع رعداً سماوياً تهتز القلعة منه. تميل ولكنها لا تسقط. أحاول أن أجري فلا أستطيع. الرعد يزداد وأنا في مواجهة البحر. موج البحر كالجبال. الأفق الأسود. الموج يسد المدى. يقذفني موج البحر الغاضب فأغيب في اللج. ثم لا شيء).

الفصل الخامس

عندما استيقظت، كنت وحيداً، مغطى حتى نصفي. الغرفة مغلقة والستائر مسدلة، وفي فراغ الغرفة يسبح صمت جنائزي يشي بأصداء امرأة عبرت هذا الفراغ ثم مضت، مخلقة رائحتها ودمعها في ذرات جميع الأشياء القائمة هنا. ومع أنني كنت مُهكاً مشوشاً بالكابوس، والنفس قد ران عليها غبش من مرارة الفقد، غير أنني كنت في تلك اللحظة في أكثر الحالات تركيزاً وهدوءاً. كنت قد خرجت الآن من المعركة كجثة الكابوس وكانت غبطة غريبة تهزني. غبطة المأساة المتخفية وراء جميع الفواجع، والتي تفاجئ بنوع من سلام هادئ لا لون له ولا طعم ولا رائحة، سلام ساكن يقول جملة مبهمة: وأخيراً انتهى شيء ما.

على مهل نهضت. ارتديت ثيابي. على الطاولة لمحت دفترها. تناولته. ومن جديد استقبلت نهار دمشق الكابي.

- ١ -

فوق المشرحة ممدد. نصفه الأعلى عار. مجلل هو بملك الموت وقلبه ساكن
كحجر في قاع بحر. وحده يموت ودمشق لا تلبس حدادا، لكن عينيه الهادئتين
وسكينة وجهه ترسمان إشارة الاستفهام الأبدية: لماذا يموت الانسان؟

وفي عصره كان اميرا. من سلالة اعترضت الحياة جاء. ابتغت ان تقول شيئا
خاصا لكن الزمن حكم عليها بالسقوط، اخترقها كالرمح من الخاصرة الى الخاصرة
اذ تصدت لقانون الزمن. هوذا راقد شاعر الوقت الملعون. شاعر الجسد والأزمة
الراحلة. فوق البلاط البارد مسجى وفي الجانب الأيسر من صدره علامة طلبة مرت
عبر الأذنين، مزقته ومضت، لكن الجسد ما زال حاراً تحت اصابعي.

فوق الجسد الذي تألق في ليالي دمشق زمناً، تقف الزوجة التي كانت وحدها
تنتحب من بين كل النساء الدمشقيات، ووحدها المرتدية سواداً يحاكي سواد العصر
العربي. وحول الجسد ايضا رجال غرباء صامتون، وممرضات مُجَلَّلَات بالصمت
والحزن. وفي الطرف الآخر من المدينة تقيم منى، تعرف من المسجى لكنها
لا تقرب. تعرف القتييل والقاتل وتندثر بالصمت والخذلان.

عن شجاري الماضي اعتذر واصابعي الخمس تلامس وجهه، وتمسح صدره
العاري العريض المكتنز: هو هنا الآن اذن! شيء آخر مختلف تماما. بل هو
نفسه، بهيته وأهبة جسده الذي مال أخيرا وهوى، وغير الحركة لا ينقصه. لماذا هو
هكذا غير ما كان؟ أي خطأ يكن فيه؟ لماذا لا يقوم؟ لماذا لا يكون اليعازر؟
- باسم الآب والابن والروح القدس أدعوك ان تقوم. باسم الحزن ودمشق
أدعوك.

يزداد شهيق المرأة. يرتفع غفرانها فيرميها فوق الجسد الأبيض. يتغطى الجسد
بكآبة المرأة وتروح شفتاها تلمسان الصدغ والوجنتين والشفنتين والعنق، ثم تجمدان فوق
بوابة الطلقة.

ناس وضجيج. رقص عشوائي. وموسيقى. يزق مسرور وراني بشتيمة ويطوقان عني. ارسم ابتسامة ميتة، واطوقها ثم تسقط الأذرع منسحبة على سجينها بعد احتفال الكذب المفاجيء.

الرجال والنساء يرنون نحو الغريب الذي ولج فرحهم فجأة. للحظة ويعود النسيان واللامبالاة. ويستمر كما كان. ثمل مسرور حتى العمى، يتنقل من امرأة الى اخرى مستعرضاً فشله العضوي في اتقان الرقص، وهو يصيح ويعلو ويهبط، ثم يدور لكنه لا يقترب من ديانا.

يتقدم راني نحوي. يجاهد ان يكون مستيقظاً، ويوشوطني: لحم. لحم. قُم واغرف. العالم مُباح. لم يبقَ الا اللحم.. ابتسم لكلمته. واشرب نجبه ونخب اللحم: استمر في فرحك ودعك مني.

وينفلت فارشاً ذراعيه ويبدأ رقصة مشوهة عن «الفلامنكو» الاسبانية. يجاذي امرأة فيطعن مؤخرتها، يتخطاها آخذاً بكلتا ذراعيه ظهر أخرى، وفجأة يقف أمام ديانا. بكآبة ترفع رأسها رفضاً. في وجهها أرى الذل والحزن. تنسكب العيون في العيون عبر الصخب والذل، فيأخذني تيار راعد بأننا خننا مسروراً في النهاية. يهتز سؤال: لماذا حدث ما حدث؟ ويقترب مسرور مني. يناولي كأسه: اشرب يا ملعون اشرب. الخمر هي الله.

اشرب. وهو واقف فوق كشجرة عملاقة، وانا مكوم في الكنبه اشعر به كالضمير. أسأله: هل شربت ديانا كثيراً اليوم؟ يهتز وهو يضرب ساقيه بالأرض: شربت حتى صارت تهذي. واستطرد: ذكرت آلاف المرات. على ابائك اللعنة وعليها. وأترع كأسه حتى القطرات. قال وهو ينحني فوقي: اسمع جيداً لكن لا تقل لها. ديانا لا تحبني هل تفهم؟ انها عاشقة وتحاف ان اقتلها. هذه حقيقة انت لا تعرفها. هُئس.

على في وضع كفا واصبعا على فمه: انها تثق بك ولكن اياك! وانفلت يغني: والرمل مايعجن/والشوك ماينداس/والسر ما ينعطى الا لناس وناس.

لحت المسيح المصلوب على جدار القبو، وقربه المرأة البرونزية العامرة بالشهوة مستلقية على بطنها بثياب البحر، فتذكرت امينة في آخر لقاء.

في الخارج طلقات. دمشق مجللة، ترغد محتفلة بأعراسها الموسمية. للتاريخ تقدم ابناءها وامرؤ القيس مقتول. والثأر يلد ثأراً حتى في القرن العشرين، ومناحيم بيغن ينادي: «هذا زمن سقوط العرب وانحطاطهم». والذي اصاب سمعه الوقر يحتفل في بيته، يحضر رغبته ليطلقها عبر جسد ديانا المولع بالبروكار.

- اسبوا نساء دمشق رداً على سبايا بابل. يهجس جيل السيناتور منحيم. وسامر البدوي ارتاح، كما ارتاح وائل، لكن المدينة المتعبة ما زال يسكنها الرصاص والثأر: هل ترتاح دمشق يوماً؟

- «هذا عصر الجنود لا عصر الشعراء. نَم يا اليعازر نَم. فلسطين لا تريد مسيحاً في هذا العصر الدامي». وأغادره شارقاً دمة تود ان تغفر، فتلقاني الريح. وحيد. دمشق انوارها مطفأة. صمت الليل يسري في شرايينه الفرع والتوجس. وبين لحظة واخرى تمزق وتين الليل والصمت طلقة. انفجرت دمشق أخيراً. فرعاً اجتاز بوابة الليل. ولا أمان. بنادق سريعة الطلقات يتأبطها الجنود. والأحذية الثقيلة تفرع الاسفلت بثقتها العمياء بعد أن تلقت الأوامر باحتلال المدينة الآمنة. بيت مسرور كهف امان. انسرب ونحوي فوق الدرج وسريعين نضغظ الجرس بتواصل. تسحب سقاية الباب. وجه ديانا يطل كمنارة لسفينة تائهة، ومن الداخل يأتي صخب وموسيقى.

ملياً والبصر في البصر. وجه مشتعل مقابل وجه تابوتي، وبينهما رغبة قديمة مكبوتة: أهذا أنت؟

تترنج على العتبة. تنسمر لحظة: انت ثملة؟ ورويداً تغلق الباب. لاشعورها سيد حركاتها. طاغيا طفا الآن، وكلانا في الخارج، تحت الدرج، في العتم. كيف مزقنا ستارة الخوف التي ارتفعت كل تلك الشهور فأخفت وجدنا الذي اشتعل الآن ثم اتحد؟ وقالت بانها جاهدت كثيراً لئلا يحدث هذا الشيء، وشعرت بدمعها الحار ينسكب فوق صدري، وفي الظلام سمعت صوت انتحابها واذا قلت لها: هذا لم يعد ينفع. قالت: لكن هذا مؤلم لمسرور. مؤلم!

وانا أزيح صورة سامر، وما يحدث عبر شوارع المدينة المتوجة بالرصاص، حاولت تهدئتها بان ما حدث لم يكن أكثر من تجسيد لما في الذهن، وان ما يفزعك في الأمر قد تم منذ زمن طويل عبر الأحلام. الى صدري ضممتها فعادت رائحتها الأولى تنتشر في جسدي. وطويلاً قبلتها قبل ان ندخل.

فقلت : الليلة .

يخرق ناي راني الجدران.. ناي فراقي وحيد. يغني لنا ولعصور المستقبل ،
ناسيا الفشل العظيم القادم .

وأسأل ديانا : لماذا عليه ان يغادر دمشق ؟ فتقول بسخرية : ليشترك في الذي
يسمونه النضال السري والعمل الفدائي .

على وجهها يرسم اشمزاز، واغبرار جاف .

وانا اعيد ادارة القرص اقول لها : عليك ان تتحملي . رفاقه سبقوه .

- أنحمل ماذا؟

- حياة هذا الرجل الذي لا وطن له .

وكمين يشعر بأن شيئاً ما يُغتصب منه ترفض : لكن دمشق صارت وطناً !

وأرنبو اليها ضاغطاً سبابة الهاتف : وفلسطين ؟

- لم تعذ تعني مسروراً وحده .

- لكنك ترفضين ان يفعل شيئاً من اجلها !

- اما آن له ان يستقر . الى متى يظل يهاجر ؟ تزوجته بعد ان خرجت من
ديني اليه كي نحيا بأمان ويكون لنا بيت واطفال ومستقبل .

- مسرور ملتزم بالحزب . اعطاه نفسه وهو الآن يدعو للعمل .

- هناك عمل وهنا عمل . لماذا يذهب ويبقى غيره ؟ لن نترشح من
دمشق .

انتهي من المخاربة وانا اضغط احتقاري . اهز رأسي بأسف . انهض ماراً
قربها . تلفحني رائحتها . رائحة خانقة . وامضي . في المر يتلقاني مسرور : أياها
الاباحي كنت تغازل ديانا .

- مسرور هل انت مخمور كثيراً ؟

يرفع حاجبيه استنكاراً . يقتل نصف دائرة ، فيعود الى مواجهتي : صدقني اني
أحبك . دعنا نرقص سوية تعبيراً عن الحب الصامت بيننا .

- لماذا لا تراقص ديانا ؟

كان الضوء خافتاً في تلك الليلة العجيبة ، ومسرور فرح وحزين يرقص مع
جميع النساء الحاضرات . يضاجعهن بخياله منتقماً من ديانا ومن الماضي المهيمن .
يرقص بطريقة عرجاء تدعو للشفقة ، واذا يبلغ التعب أوجه براني ، يتناول نايه عن
المكتبة ، يشبب موالاً لأحزانه الداخلية .

يتقدم مسرور صوب امرأة شقراء فاتنة فيطلب مراقبتها . واذا تدعن له
بإتسامتها الغبية ، يطوقها ، ويستمر راني موقعا الأسى في فضاء مسجون .

- «كنا نتقدم نحو حيفا كما تتقدم السكين في قرص من الزبدة» .

تنهد ديانا وهي تدخن . وحيدة مرمية في فراغ الأريكة وفخذاها يلمعان تحت
الضوء الأحمر ، وجلبة الحضور تحجبها . تسألني عينها : هل كنا آتمين ؟ أشيح
ببصري نحو مسرور المبتل بنشوة الرقص والنسيان ، وبراحة كني أحاول مسح الضيق
عن صدغي .

مسيرة الشوارع عبر الليل الرطب ، ورائحة الياسمين تدخل مسام القلب فتندغم
برائحة ديانا . توقّع . والمرأة التي سارت عبر دروب دمشق الليلية ، صارت هاجسا
ينغص النوم والحركة . دخلت بحكم قوانين السير والروائح ، شبكية الرغبة ، والرغبة
قاسية ، ملحة ، تشبه حالة بدوي قتل أخوه والقاتل حي . في ليلة شفاقة قرأت ديانا
مذكرات مسرور الخاصة جداً والتي تتحدث عن خليلاته السريات وآلام الهجرة ،
وعن طفولتها تحدثت بشفاافية لا عهد لك بها ، وكانت ترتدي ثوب نومها الشفاف
المحسور ، وفخذاها المسوكان بمجد تكوينها الخاص ، يبرقان فوق الشبكية . حتى
ساعة متأخرة سهرت معك . كنّا متحاذيين على الديوان ، وحركات جسدها تثير
الوجع . سكبت لك خمرا وباحت بأسرارها الملفعة تحت ثلج الزمن .

في المكان نفسه حيث انفجر غضب البدوي واستراح الثأر ، وانما عائدان من
المسيرة ، قبلتها في العتم وداعبت الزند الأملس ، والوجه المحتقن بالعذاب والشهوة .
وليلتها ارتعشت كغصن في مهب إعصار . جرت على الدرج فتحت الباب وانارت
المر وجميع الغرف ، واذا حاولت ان تطفئ الأنوار صرخت : لا . لا . ارجوك دع
النور مشتعلاً في كل البيت . سيأتي مسرور قريباً . وفي غرفة النوم وأنت تدير قرص الهاتف
اقتربت : يطلبون من مسرور ان يغادر . كانت تطل عليك وانت على حافة السرير ،
شبيهة بفينوس . يداها مسبلتان ولكن نفسها مبتورة ، وفي وجهها ضراعة وخذلان .

وسألنها : متى طلبوا منه ذلك ؟

ولا يجيب. معا نرقص بين جدارين ضيقين. في حميا الرقص أسأله: هل سترحل؟

- الى أين؟

- ديانا أخبرتي.

- الكلبة.

- لكن ديانا ضعيفة. حاول ان تفهمها.

- افهمها! ثلاث سنوات وانا اناام مع جدار. ديانا خائنة. خائنة هل تفهم ذلك؟

- تهمها زوراً. اعتقد انها تجبك.

ويضحك على نحو غريب. فيبدو وجهه ممتعاً. يتحول رقصه حركات تشنجية. رقص اشبه بالموت.

- هل ستفقد؟

تبدأ رقصته بالتخامد. يتم: لا أدري. لا أدري!

على مقربة منا تقف ديانا. وعلة مقهورة تنفجر صبا وعافية، عيناها تنوسان علينا، بينما يلوح مسرور منهاكاً كأنما أخرج لتوه من تابوت.

اخطو باتجاه الباب فيقف مسرور. بمسكني بزندي: ما الذي حدث؟

- شيء تافه.

- انت تغادرنا؟

- أحس صداعاً.

- أأنت مؤذى منا؟

- ابدأ. كل ما في الأمر انني اشعر بالاختناق ولا بد من الريح.

- هل أساءت ديانا اليك؟

- لا. الانسان يسيء الى نفسه.

كان يرتعد وفي عينيه المنهمكين ذعر، وهو يرى ديانا ملتصقة بالجدار كمسيح مصلوب يحملها حزن واحتقار.

- انتظر!

وبحيوية غريبة وُلدت بغتة وثب مسرور الى المطبخ. ورفعت ديانا عينين ذابلتين وارتفع صوت الناي جريماً كريخ في غابة من القصب.

- مسرور...

مع الصرخة انهمر النصل في عتق ديانا. ضارعة صرخت ثم هوت فهوى فوقها وراح يطعن النحر والتدين والقلب والوجه، وكاللمع راحت المديّة ترتفع وتسقط والضحية تتللمل وترتعش وتغرغر. كبرق خاطف حدث ذلك واذا حاولت ان اسحبه وانا اصرخ: مجنون. مجنون. مسرور. لا. لا. طعني بحركة خلفية خاطفة دون ان ينظر نحوي فأصابني في ذراعي، وتابع طقوس القتل واصابني رشاش من دم ديانا واضطرب العالم عبر بصري، ونز جرحي أكثر، ودامني دوار واندفعت الى الداخل ممسكاً بالجرح وصحت: مسرور ذبح ديانا...

عندما خرجوا، وصاحوا، وانبتوا، كانت طقوس مسرور الشجاع قد انتهت. في حين كانت ديانا أخرى تحتلج فوق بلاط المر وسواقي الدم تنحدر بطيئة نحو المطبخ والغرف، والجدار زركشه الدم، بينما الفارس يتكئ على الجدار وبين اصابعه المدلاة سكين دمها غص، وفي عينيه انهار.

التعذيب. مات من مات، وقُتل من قُتل كان لا بد من ذلك، لكن هذه الأرض خصبة لا تموت. دعينا ننحُ بعيداً عن دمشق !

- كيف أتق بك ؟

- هذا دمي !

ولم تتق بي. ومضت.

رطوبة المدينة احسها فوق بقايا الدمع وفوق شجر السبكي. اصوات وطلقات تدوي قادمة من كل اطراف المدينة. وحدي في هذا الظلام الصلب، والطلقات تنثر متقطعة ومتواصلة بين حين وآخر. سيارات مطلية بالوحل والغبار والدم، تمزق صدر الاسفلت والصمت.

- دمشق تُزف.

(صحراء لا يحدها البصر، تلوح على شاشة الذاكرة. ظلال قديمة من أزمنة غبرت. تأتي حادة في صورها التي ترسم، ومتوحشة. لم تكن هكذا في الكتب. كحكايات خرافية فيما مضى كنت تذكرها. لماذا تعود الآن بهذا النبض المتوحش. كالومض تمر عبر عجاج رمادي داخله فرسان يمتطون صهوات خيول رمادية وقرمزية وصهب. الآن تندمج الطلقات بصوت الصهيل، وحركة السيارات الجالحة فوق الأرض صفة تشبه وثوب الخيل وانغراس حوافرها في الصدور التي تنقصف، فتموت صرختها مع الدم المعجون بالغبار. الريح القاسية نفسها تسقط رايات وترفع أخرى، والرمل الأعمى يدرج بين برائته التاريخ والقتل الذين بدوا مصلوبين على أرض الصحراء، وغير مميزين تماماً. لكنك تعرفهم جيداً حتى المجهولين الذين نسيت الكتب اسماؤهم. رأس الحسين المفصول المرغ، يبدو جمجمة يحملها سامر البدوي في يده فتحول دورقاً للخمر. الآن سقط جسده بعد ان تسمم بالخمير والنساء وأفعى الزمن. صار حجراً تقاذفه السناكب، ثم ذرة تضاف الى ركام الرمل المتعرج هناك عند أفق الصحراء. وحيداً يترنج مسرور، تائها في شعاب الصحراء. ينوح كوحشي الذي قتل حمزة ضارباً صدره ندماً. يهوي اخيراً ثم يضيع بين الغبار والرمل. ومن بعيد يتنامى صوت ناي موجه يحدو مرآئي الحرب. أيضاً تتوضح الظلال، وينجلي رويداً الغبار فيبدو سيف أبي العباس، ورمح الثقيفي آخذاً الرقاب التي حان قطافها، وجلد عبدالله بن الزبير وهو يسلم بعد أن صلب على أبواب مكة. قبص ابن عفان مضجع بالدم يلوح في يد عائشة، ومعاوية يغتصب الخلافة بقوة السيف والمكر. وخيول

- ٢ -

هأنذا في ريح المدينة. محمول فوق زمان عصي على الفهم. في في المرارة والدم، وجرحي ينز ألماً، ومشهد المقتولين في ليلة واحدة يكاد يخرج من الريح والشجر، من الأشياء وتنفسي.

مضوا. والذي ظل، المدينة والزمن.

آه. بالدمشق العريقة بمراسم الدفن !

واحداً تلو الآخر مضوا. كما تمضي الريح، كما يمضي غيم الصيف بمشيئة الريح.

«نحن الاسرائيليين محكومون بالنصر والعرب محكومون بالهزيمة». أمير تاريخ العربي بدور الانحدار حقاً ؟ لكن السوس أين يكن ؟

وانت يا فشل العصور ما الذي تستطيعه لا يقاظ العربي الغائب ؟

ومن قلب الريح ورائحة الدم تبتق منى.

امسك بها : خطاة نحن فاغفري لنا. عودي. ما زال في الدم حنين اليك.

أهم ان أروي لها ما حدث. تسرده لي ونقول : ما الفائدة. الا تسمع طقوس الموت ؟

السناتور مناحيم قال : «كنا نتقدم في حيفا كسكين في قرص من الزبدة».

تبتسم : وسكين مسرور كيف تقدمت في عتق ديانا ؟ شجرة الحور وطلقة سامر كيف اخترقتنا الخاصرة ؟

- سنبدأ من جديد وبطريقة مختلفة منى !

- هُسمني العشاق الكذبة. الى الجحيم هذه السلالة.

بعنف رجل يرفض الاستسلام اهزها : مرة اخرى اخرجني من غرفة

هولاكو تضرب بهمجية صدر العراق. يثب الدم من ظهر دجلة. تختلط السيوف بالرماح بالاكباد التي تلاك تحت أسنان النساء. ينحدر الزمن، ينحدر. تنقلص الصحراء. تقترب. يدفعها زلزال مجنون. يصل بها مشارف الشام. ثم يتحد الزمن ويتكثف منحللاً في بؤرة الذاكرة).

□

اتابع مسيري وسط دمشق الحزينة. في ممرات الموت. لا بيت. والذعر سيدي الذي يسوقني، وفي سمعي وانني الروائح والطلقات، والتواييت المحمولة، آتية من كل فج عميق.

كالموت هادئة ذاكرة التاريخ. راقدة تحت قدمي قاسيون. عين مغمضة وعين مفتوحة ابدا.

عبر هذا الجنون اطل وجهه ومعه سفر الزمن القديم: عد الى السهول والأرض. عد الى بيتك القديم.

- انت رجل مات من سنين وانا أرفضك.

وقال: لست جبل الحرية والمطر وفقراء الأرض.

- من أكون اذن؟

- عابر في تاريخ الدم والثارات.

- اهذا عصر السناطور منحيم؟

- انت لا تريد ان تكون واقعيًا. أنت في عصر الخيانة والموت.

- اغرب عن وجهي ايها الرجل العتيق.

- انا أبوك.

- من أُلقي عام مات أبي.

- لكنه كان رجلاً.

- كان بدويا يصلح لعصره.

اسير. انعطفت من شارع الى آخر، ماراً فوق الدروب قرب جميع المحطات التي عرفتنا.

موجة ريح تلفحني فيتغلغل في وطن النفس صفاء مبارك. تحمل الريح رائحة

منى العذبة. أوشوش للرائحة: باسمهم ساعينا يا عزيزي. وفي ليل الرصاص ينحدر الدمع.

المدينة دوي. والنفس تحمل الجنازة مرتقية بها نحو قاسيون. أمر على منازلهم ومرافئ ممراتهم. تحت الاشجار، فوق الحجارة، حاملًا عقب الصحاب الذين تحدثوا عن منى وما عرفوا سرها. صحابي الذين احببت. أحبابي الذين تاهوا في الصحارى بعد ان فقدوا ذاكرتهم فالتقطتها في الغفلة دمشق، وما بكت عليهم. وتنهمر الطلقات فأحسها ترقق في جدار جمجمتي. أرباء آخرون يهون في المنحدر العميق، العميق. والسيناتور يبغض يقهقه. كالطلقة أسمع صوته: «العرب يمرون في دور الشيخوخة وهذه الدورة للعبرانيين».

- «لم ينته الزمن وروح البدوي سارية في الريح والنسل». صدى صوت خفي قادم من عصارة الأرض الداخلية.

ويتوقف ناي راني عن النشج، يتوقف الرقص، ثم يطل فوق جسد ديانا المطعون.

في ليلتي الأخيرة امضي، بعد ان عرفتهم عن كتب وُبعد، ودمشق ما تزال ترخ رصاصاً وقلبي يزخ أسي، ذاكرًا الآن وداع امي القديم ودموعها: أنت تذهب الى بلاد بعيدة مجهولة. ما الذي لك فيها؟

- قديمة انت يا أمي وانا لا استطيع ان اشرح لك لماذا امضي.

- اعرف. انت مثله. تضع روحك على كفك. لن تعود الا محمولاً.

- لو تفهمين معنى الوطن يا أماه!

□

(بيت قديم مبني بدعامات من حطب. مطلي بالحوار. الدعامات تبدو مائلة، والحوار عتيق كشط الزمن مناطق منه، والبيت يبدو مائلاً وشيك السقوط. هكذا بدا لي من الخارج. أرى نفسي داخل البيت. معي أخي ونسوة أخريات بينهن امرأة تشبه امي لا أعرفهن. البيت من الداخل رطب مظلم متهرىء، يحتوي سراديب مجهولة. اتوقع داخل الحلم انه مسكون بجن أو حشرات فأبدو خائفاً. انا واخي نطعم طائراً جليلاً على الأرض. بعد حين أرى الطائر يثب نحو سلة في الجدار ويتكؤم على نفسه وينام. بين لحظة واخرى اتوقع حضور أبي. «داخل الحلم

أدرك انه ميت». اثمير بالضيق وانا أشم رائحة روث الحيوانات فأرى نفسي في الخارج فوق أرض صغيرة محروثة نصف حرائة فيها شجرات متفرقات. تين. مشمش. دراق. أحاول ان اقف فأرى الثمار تسقط على الأرض. الثمار تبدو صفراء وكأنها سقطت من زمن بعيد. قربي يمر رجل. احس انه ابي. احاول مناداته فلا أقوى. معصوب ومضمد في أكثر من مكان من جسده. شعور خفي ينتابني انه عائد من المقبرة. مرة أخرى انظر الى البيت الموشك على التداعي فتتأني حالة غم. في لحظة هلامية تعادل عشر الثانية تترج صورة البيت بصورة أبي المضمّد بضادات بيضاء. مرة أخرى أرى نفسي في الداخل. البيت نفسه. للحظة أتمنى لو انني املك بيتاً قوياً جديداً غير هذا البيت. أبي يتحرك داخل البيت القديم ولا يتكلم كأنما يريد اثبات وجوده بيننا وانه لم يمت. لا أتحدث معه ولا ألمسه. فقط أراه وفي داخل كل منا احساس بأنه الآخر قد تغير.

مر قرب البيت. نخرج من البيت ونعبر الممر. انظر الى ابي فلا أراه. لا أهتم لغيابه. فجأة يحدث هرج وصخب في ساحة مجاورة. في السماء غيوم كالحة. الناس يصرخون ويولون الادبار. قتابل وطائرات. بداهني شعور داخلي دون ان انظر الى الوراء بأن البيت هدمته رجّة القصف.

في ساقية جوار الساحة أرى ابي ممدداً. مرة ثانية مات. احاول ان أرفعه عن الأرض فلا استطع. جسده ثقيل وقايس كعمود من الجبس. الناس رحلوا. هدوء جناثري يسود المكان المقفر. اشم رائحته في الفراغ والأرض. الجثة ما تزال في الساقية. أتركها وأسير وحيداً. تواجهني حديقة السبكي بكل حقيقتها. قليل من الناس عبروا جوار الحديقة. عبرت الصالون. كنت أرى جيداً الآن. استلقيت على السرير بكامل ثيابي. وما عدت أتذكر شيئاً).

ملاحق خاصة

من مراني إرميا

«كيف جلستُ وحدها المدينة الكثيرة الشعب
كيف صارت كأرملة العظيمة بين الأمم.
كلّ أصحابها غدروا بها. صَارُوا لَهَا اَعْدَاء.
طَرَقُ صِهْيُون نَائِحَةٌ لِعَدَمِ الْآتِينَ إِلَى الْعِيدِ. كُلُّ أَبْوَابِهَا خَرِبَةٌ. كَهَتْتُهَا
يَتَنَهَدُونَ. عَذَارَاهَا مُدَلَّةٌ وَهِيَ فِي مَرَارَةٍ. قَدْ أَدْرَكَهَا كُلُّ طَارِدِيهَا بَيْنَ الضِّيَقَاتِ.
صَارَتْ رُؤُوسَاوْهَا كَأَيَّامِ الْبُحْبُوحِ لَا تَجِدُ مَرْعَى فَيَسِيرُونَ بِهَا قُوَّةً أَمَامَ الطَّارِدِ.
صَارَ مُضَايِقُهَا رَأْسًا، وَاعْدَاؤُهَا أَيْسَرَ، لِأَنَّ الرَّبَّ أَعْتَمَتْهَا لِكَثْرَةِ مَعَاصِيهَا.
أَطْفَالُهَا سَارُوا مَسْبِيَّيْنَ أَمَامَ وَجْهِ الْمَضَاقِ.
بَسَطَتْ صِهْيُونُ يَدَيْهَا. لَا مَعَزَى لَهَا. أَمَرَ الرَّبُّ عَلَى يَعْقُوبَ أَنْ يَكُونَ مُضَايِقَهُ
حَوَالِيهِ.

ملحق (١)

اسْمَعُوا يَا جَمِيعَ الشُّعُوبِ. وَانظُرُوا إِلَى حَزْنِي.
عَذَارَايَ وَشُبَّانِي ذَهَبُوا إِلَى السِّي.
كَيْفَ غَطَى السَّيِّدُ بَغْضِهِ ابْنَةَ صِهْيُونَ بِالظَّلَامِ.
أَلْقَى مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ فَجَرَ إِسْرَائِيلَ وَلَمْ يَذْكُرْ مَوْطِيءَ قَدَمِيهِ يَوْمَ غَضَبِهِ.
نَاحَتْ فِي الْأَرْضِ أَبْوَابُهَا.
أَهْلَكَ وَحَطَّمَ عَوَارِضَهَا.
أَنْبِيَآؤُهَا أَيْضًا لَا يَجِدُونَ رُؤْيَا مِنْ قَبْلِ الرَّبِّ.
نَحْنِي عَذَارَى أُورُشَلِيمَ رُؤُوسَهُنَّ إِلَى الْأَرْضِ.
كَلَّتْ مِنَ الدَّمْعِ عَيْنَايَ. غَلَّتْ أَحْشَانِي.

انسكبت على الأرض كبدي. على سحق بنت شعبي لأجل غشيان الأطفال
والرضع في ساحات القرية.

يقولون لأمهاتهم أين الحنطة والخمر، يغشى عليهم كجريح في ساحات المدينة
اذ تسكب نفوسهم في أحضان أمهاتهم.

يا سور بنت صهيون اسكبي الدمع كنهر نهاراً وليلاً.
اضطجعت على الأرض في الشوارع الصبيان والشيوخ.

عذاراي وشبابي سقطوا بالسيف.

قد قتلت في يوم غضبك. ذبحت ولم تشفق.

الذين حضنتهم وربيتهم افناهم عدوي.

لصق لسان الراضع بحنكه من العطش.

الأطفال يسألون خبزاً وليس من يكسره لهم.

الذين كانوا يأكلون المأكّل الفاخرة قد هلكوا في الشوارع.

الذين كانوا يترّون على القرمز احتضنوا المزابل.

وقد صار عقاب بنت شعبي أعظم من قصاص خطبة سدوم التي انقلبت كانه
في لحظة ولم تلق عليها أياد. كان نذرها انقى من الثلج واكثر بياضاً من اللبن.
واجسامهم أشد حمرة من المرجان.

جرزهم كالباقوت الأزرق.

صارت صورتهم أشد ظلاماً من السواد.

لم يعرفوا في الشوارع. لصق جلدهم بعضهم. صار يابساً كالخشب.

كان قتل السيف خيراً من قتل الجوع لأن هؤلاء يذوبون مطعونين لعدم اثمار
الحقل.

أيادي النساء الحنائن طبخت أولادهن.

صاروا طعاماً لهم في سحق بنت شعبي.

أتم الرب غيظه.

سكب حمو غضبه واشعل ناراً في صهيون فأكلت أسسها.

من أجل خطايا انبيائها وآثام كهنتها السافكين في وسطها دم الصديقين.

ناهوا كعبي في الشوارع وتلطّخوا بالدم حتى لم يستطع أحد ان يمس
ملابسهم.

قربت نهايتنا. كملت أيامنا. لأن نهايتنا قد أتت.

قد صار ميراثنا للغرباء.

آبائنا اخطأوا وليسوا بموجودين ونحن نحمل آثامهم.

جلودنا اسودت كتور من جراء نيران الجوع.

أذلوا النساء في صهيون. العذارى في مدن يهوذا.

اخذوا الشبان للطحن والصبيان عثروا تحت الحطب.

مضى فرح قلبنا. صار رقصنا نوحاً.

سقط اكليل رأسنا.

ويل لنا لأننا قد اخطأنا.

من أجل هذا حزن قلبنا.

«الكتاب المقدس اصحاح ١ و٢ و٤ و٥».

للحزن وقت وللرعد وقت

- ١ -

مَنْ يَعِيدُ الفَرْحَ للذين غَمَرَهُم حُزْنٌ
 من يُلْحِمُ الأجزاءَ التي مَزَقَهَا الرِّصَاصُ والريحُ
 من يُطْعِمُ الخبازينَ خبزَهُم المَجُونِ بِحرارةِ دَمِهِمْ؟
 من أَقْصَاها إلى أَقْصَاها
 جَسَتْ المَدِينَةُ .
 الشوارعَ والمخادعَ والمحطاتَ
 عَصَوَ الصعاليكُ
 وعَصَوَ الفتحَ
 العرافينَ وأزمنةَ الحكمةِ ،
 سألتُ : كيف حدثَ التحوُّلُ؟
 الليلَ والنهارَ
 الجفافَ والبرقَ
 جلدَ الأرضِ المشفقِ والمطرَ
 سألتها : لماذا؟
 الصمتُ مدينةٌ عربيةٌ مغلقةٌ
 والأرضُ ضائِدٌ فوقَ جُرحٍ يَبِزُّ
 والليلُ والنهارُ
 زهرةٌ براعمُها بالقتلِ تَتَفَتَّحُ ،
 يا لها من أجوبةٍ موسيقاها

ملحق (٢)

في زمنِ العربِ الآفلِ.

- ٢ -

مَرْتَجَّةٌ تبدو المسامَ

والعطبُ شراغُ مُبحرٍ.

ملوكُ الزمنِ الغابرِ

سفينةٌ مصدعةٌ

والبرُّ بعيد

آه. من يوقفُ هذه الريحَ العمياء.

دوارُ البحرِ أصابَ البحارةَ

والموجُ هاجمُ كهضابٍ متحركة.

المرافئُ غمرَها الضبابُ وضوضاءُ البحرِ،

وها هي الأقراشُ النهمةُ تلوح بين تلالِ الماء.

لو أن المدنَ تصغي

لو أن الضجيجَ أقلُّ

لو الرغبةُ تجدُ دربها داخلَ المسامِ

لو ذلك المأخوذُ بطرفِ نُحوي بالبصرِ

لقلتُ....

لكفي وحدي خارجَ حلقاتِ الذكرِ،

خارجَ الدوارِ

والضوضاءُ تنامي.

الرغبةُ المخصبةُ أنا

والمأخوذُ فارسُ أعمى

يدورُ

وظلامُ الإرثِ القديمِ مَلِكٌ

يحترقُ عتقَ الحرِّيةِ في وضحِ النهارِ.

- ٣ -

عندما عشقتُ قراءةَ التاريخِ

نسيتُ نفسي

بطارقَ والمتنبّي زهوتُ بين الناسِ،

قلتُ: أبا ذرَّ سيّدُ العدلِ المنفي

وحزمةُ فتى الفتیان.

قلّبتُ الصفحاتَ من محمدَ حتى الحجاجِ

وتلوّتها عن ظهرِ قلب

فأعطاني المعلمُ بطاقةً تشجيعٍ،

يا لله ما كان أعظمَ كتبِ التاريخِ

آه. كم كان فرحي القديمُ عظيماً.

أيتها الابطحادُ المتألفةُ كجرحِ

أيتها الامبراطورية التي ما كانت تغيبُ الشمسُ عنها

يا ظلالَ الأسلافِ المنسيين،

هل ترينَ جيداً أبحادَ اليومِ

وهل تميزينَ تماماً لونَ هذا الزمنِ؟

- ٤ -

لماذا جلدي موشومٌ كأفعى

ولماذا أبوابي ضاعتْ مفاتيحُها؟

من الذي كسّرَ رُحمي ودفنهُ في الرملِ

ولماذا أقول: اليومُ خمرٌ وغداً خمرٌ؟

صوتي هل هو صوتي

وهل حربي هي الحربُ إياها

الا ما الذي دها القبيلةَ

ولماذا ربيعةُ بن مكدّم عاد فزاعةَ طيورِ

لا حياً ولا ميتاً يخيف؟

كل ذلك الزمن المتألق:

العشق والتراويل والفتوح،

الشعر والشجاعة والسخاء،

هزائم كسرى وقيصّر ورشارد قلب الأسد،

تطفو الآن على سطح النيل والأردن والفرات

زوارق أطفال في نهار محتل.

الآن ما لون هذا الزمن

الآن ما لون العربي؟

- ٥ -

غير الصدى لا أسمع

مبحوحاً داخل الأوردة

غير الظلال لا أرى،

شموسنا انكسفت

جبايع ومقرورون عبر صحارى الثلج

وما عاد للإنسان بيت.

تبه والعربي بلا مدن

وطن دامس ولا نجم

زمان موحش ولا أنس

صحراء... صحراء. والرياح عفت آثار الإبل،

ألا من يتزع من عروق القلب هذا الميضع المسنون؟!

لو ان الأرض تدور

لأشرقت الشمس.

لو أبّ الشمس تظهر وتختفي

لأطلّ القمر،

لو ان هنا انساناً

لاجتاحه غضب.

الأرض لا تدور

الشمس لا تشرق

القمر لا يطل

الانسان لا يغضب

ففي أي أوقيانوس نحن

وما اسم هذه القارة؟

- ٦ -

عوني هنا ولترحل كل القوافل

فأنا لا قبيلة لي

وثقوني عارياً إلى هذه الصخرة

امضوا في مهرجان الريح.

خذوا أكفانكم وكل مجد الاسلاف

خذوا الرايات وكتب التاريخ والحقائق

وامضوا،

سموني المبت الحمي

وامضوا،

انحدروا صوب المنجى

واتركوا لي رائحتكم

وحفنة من رماد المدن المحترقة.

خذوا غالي الثمن خفيف الحمل

ودعوا لي الأرض ولعب الأطفال،

المصاحف والأنجيل خذوها أيضاً

واتركوا لي رائحة النساء في أثواب العرس

خلّوا لي الموسيقى.

- ٨ -

كعذراء تحت جسدٍ مُغتَصَبٍ ساديٍّ
تهوي أرضُ السلامِ والشمسِ،
فوق سهوب المدينةِ المأسورةِ الفقيرةِ، الخضراءِ،
المدينةِ التي لم تكنْ تملكُ حتى الأكفانِ لموتها،
ينتشرُ جرادٌ،
محنةٌ أخرى تدقُّ أبوابَ العربِ
ظلامٌ جديدٌ يخيمُ على البلادِ الحزينةِ.

- ٩ -

في وطنِ الغاباتِ
القاتلُ هو السيّدُ،
في زمنِ النسيانِ
النصرُ للذاكرةِ،
وفي زمنِ السجودِ الخانعِ
الظهورُ للعقلِ.
في ذلكِ الزمنِ المُختلِّ
والرصاصُ يُدخِرُ في المستودعاتِ السريةِ
والبنادقُ من ما وراءِ السحارِ تُحشى
داخلِ صناديقِ الزهورِ
وبين قُمصانِ الأطفالِ،
كانتِ مدنُ العربِ تهتزُّ في حلقاتِ الدراويشِ
وفي سرِّ النساءِ المُستَحِمَّاتِ
بالحليبِ والوسكيِ.
في ذلكِ الزمنِ الضائعِ الاسمِ
كانتِ شمسُ الصحراءِ النبويةِ
معقولةً على هامِ أميرٍ

على هذهِ الصخرةِ باقٍ
في مهبِّ ريحِ الغزوِ باقٍ
عني ممدود

ووجهي للموتِ مُشْرِعٌ،
عيناى بحرٌ تودعانِ شمسَكُم الأفلةِ
وقلي حَمَامَةٌ خضراءِ،
تنتظرُ الطلقةَ.

- ٧ -

ها همُ قادمونَ،
أعرفُهم من نشيدِ «الها تكفاه»
نحتَ آباطِهم سيفٌ وكتابٌ
وفي عُيونهم وميضُ القتلِ.
من ضفافِ المسيسي والراينِ
طلائعُ بعثةِ روتشيلدِ تقتحمُ ثغورَ الفقراءِ
تحت رايةِ صليبٍ جديدِ.
ها هي الأسطورةُ القديمةُ بُعثتِ
تصيرُ مجداً مُخضَّباً بالغزوِ.
بحرٍ من أوردةِ الأطفالِ
يُسجَلُ التاريخُ
والحقُّ الذي عفا عليه الزمنُ
يطلعُ من سطورِ التوراةِ
رصاصاً ومستعمراتِ.

ها همُ يقتربونَ
أصواتهم رعدٌ: «أنا احاربُ إذن أنا موجود»
وأنا هنا موثق... موثق.
لقد وصلَ الغُرباءُ، المنفيونَ، القتلَةُ.

يحرُسُ الوطنَ والنبيَّ،
وفي ذلك الزمنِ الخائِنِ
بيعَ اللهُ والوطنُ
بثلاثينَ استرليني.

مغلوبةٌ كانت المدنُ
والفقراءُ مُهانونَ
مُغلَقاً كانَ المستقبلُ
والمفتاحُ في رأسِ ميناخيم بيغن
المتوقِدِ الذاكرة
ليلٌ حُرِيفِيّ كانَ يوَلِّي
وصباحُ أحمرٍ كانَ يَنْبَلِجُ:
- واذلّاهُ

من كانَ فاتحاً بالأمسِ
هوذا يُفْتَحُ الآنَ.

- ١٠ -

على الحجارةِ وأينما مروا
رسموا وشتمهم،
المطرُ والعشبُ وتقاويمُ الفصولِ
حتى الريحُ، سَمَمُوها.
صادوا الفرَجَ من حناجرِ الأطفالِ،
وبين أفضاخِ الفتياتِ الحرائِرِ
زرعوا العارَ،
في الأطعمةِ دسوا الحزنَ
وبدل الملاحِمِ صَيَّروا الأشعارَ
مراني؛
في الحلمِ هبطوا

حوّلوا الرغبةَ إلى كابوسٍ،
بين الفتى وعروسه
انتصبوا كالرُمحِ
وكرّامٍ لا يخطئُ طَعَنُوا رَعشَةَ الجنسِ.
بين العربي وجذره
وقفوا.

سدّوا سريانَ النسغِ
وضوءَ الشمسِ حجَبوه
لقد بدأ فصْدُ الدمِ من النيلِ إلى الفُراتِ
في ذلك اليومِ الجارِحِ.

- ١١ -

يا أطفالَ المدنِ العريقةِ
يا مَنْ كانَ مِن نسلِكُم رجالاً أشِدَّاءُ في ماضي الأزمنةِ،
لا تنسُوا الدمَ الذي سَاحَ عِبرَ آلافِ الأعوامِ،
الدمَ الذي غَارَ في الأرضِ
وسَقَى الشُّوعَ،
الدمَ الذي سَرَى مع الجداولِ
فأحيا الزرعَ ولَوَّنَ الأراضيَ،
دمَ الفلاحينَ، والغزو، والثاراتِ،
وتذكروا أكثرَ دمِ التاريخِ الحديثِ
الذي أَهْرَقَ صباحَ الخميسِ من حزيرانِ.
في ذلكَ الصباحِ الشمسِ
غَارَ دمٌ كثيرٌ عِبرَ شقوقِ الأرضِ.
على القَتْلِ لم تُتَلِ آيَةٌ
قرب الأفواهِ المشققةِ من الظمأِ
سُفِّحَ الماءُ.

الأرضُ ارتوتُ

لكنَّ الجرحى - وا أسفاه - نَفَقُوا

بالعطش .

في ذلك الصباحِ الشمسُ انكسَر رَمَحُ العربي

وكبًا جوادُ آخر ،

لقد بدأ الاغتصابُ

في الظهيرة هذه المرة .

- ١٢ -

المضيُّ موتٌ والبقاء موت

وأنا آخرُ الصَّقُور

عِناداً أنا باقٍ هنا

وليس من أجلِ النصر

يسألني الغزاةُ : أينَ قومك ؟

أقول : بالرملِ والريحِ امتَرَجُوا

صارُوا البحر .

- ولمْ بقاؤك وحدك ؟

أقولُ : أنا والصحراءُ شمسٌ وأشعة .

- ما عادَ لكم زمن .

أقول : زمني يجميُّ بعد الموتِ ،

من الرعدِ يولد ومن البحر .

من الشمسِ يأتي ومن الصَّدى .

الحياةُ في الموت

والموت هو المهدي .

- وصيتك ؟

- أنْ أشاهدَ المدينةَ المُجتاحة

- وبعدها ؟

- احرقوني ثم ذروا رمادي في الصحراء .

- ١٣ -

في الظهيرةِ عبرتُ المدينةَ ،

سرتُ تحتَ وشاحها الغسقي

هبطتُ حزنَها ،

تحتَ الاغتصابِ كانت ممددة

وساؤها الحِداد ،

وهادئة بدتُ وكالبحرِ صامته

لكن عينيها كانتا تلمعانِ

مثلَ حدِّ السيف .

على جبينها قرأتُ وشمَّ المغول ،

وفي خطوطِ الجبين سمعتُ نغاءَ الأطفال ،

الذين قطعَت أياديهم وأرجلهم ورُمُوا في الآبار .

بين الثديين انتصبَ مشوهو النابالم

الرجالُ الذين قتلهمُ الظمأُ

استحالوا مائدةً شهيةً للنسور والكلاب .

تحتَ أظافرِ أرصفتِها المُقتلعة

سمعتُ أنينَ الأمواتِ - الأحياء

الذين حملتهمُ شاحناتُ اشترين والهاغانا

إلى ساحاتِ الاعدام .

على أسلاكِ الكهرباء

كان كلُّ الوطن

مدلَّى .

أوغلتُ ،

دخلتُ باطنَها البعيد

مفتشاً عن بقاياهم .
 دلّوني على رجل ملامحهُ غريبة
 يقفُ في ساحةٍ ويصرخُ ،
 يده ترتعش بين مقبضِ السيفِ
 ومقبضِ الخزان
 يبيع ويشترى ،
 يشمل ثم ينامُ ملءَ جفونه .
 ممسوسٌ هذا الرجلُ
 وضجّر
 يغني وهو يبكي
 ويضحكُ وهو يتزف
 وإذ يملأُ ألعابهُ
 يتنضي سيفهُ الخشبي
 ويتحجر .

- ١٤ -

حزينةٌ كانتِ المدينة
 وفي خاصرتها جرح .
 سألتُ الجرح : أهذا زمانُ السي ، زمانُ التيه ؟
 هل عصرُ العربي يولّي ، وهل آذنتُ
 شمسهُ على الأفول ؟
 طويلٌ هذا الليلُ طويل
 والفصولُ بطيئةٌ .. بطيئة
 فهل احتلّ الزمنُ أيضاً ؟
 ضيقةٌ مفارقُ الدروب
 والغضبُ ضاق
 ناسُ الآن ضاقوا .

الأحياء بالأمواتِ تساووا ،
 والخطواتُ بالخطواتِ تنعثر ،
 العينُ من العينِ تخبّل
 والوجهُ في الوجهِ تُهمّة
 حتى القهرُ لم يعدُ يجدُ دَرَبه
 داخل المسامُ المرتجة
 حزناً وعميقاً أنا في صدَى الجرح :
 للحزنِ وقت
 وللرعدِ وقت .

من مذكرات منى

«في برودة مفاصلي عُرِّي لا حدود له. ممرغ جسدي على اجمل الدروب ونور محتق أحسه في الهواء وفي مفاصلي. تسلفت أعماقي الملوثة بالسادة والفقراء، وظللت نفسي بفرسان لا وجود لهم. بحثت عن نفسي في الشوارع والمحطات في البشر والالم فما لقيت في طريقي غير الزمن الخائن. وجدت طفلاً يرقص كهلوان، ويزج. عيناه برأقتان وعميقتان كما البحار تماماً. توقف عن الرقص وتوقفت عن الغور في أعماقي ومشينا. كانت حدود أرصفتنا دماء وغباراً ورملاً. آه. ما أروعنا في هذا المضي السريع. ما أعظم ان نلتقط معاً موسيقى الشرايين ونحطم العنمة ونمشي متسلفين قرون الحكمة، متمرغين بدماء القدر الضبابية لنجد أبدع ما نريد ونحن لا نريد شيئاً حقاً.

ملحق (٣)

تمسكتُ بمعصمه وشددتُ، وتمسكَ بشناشيل قدمي المثقوبتين وارتقى معي درجَ الزمان. هذا الصبي المعقود الأصابع توقفَ عن الغناء عندما توقفتُ عن البحث. التصق بي كالموت والتصقت به كالأفكار وخرجنا من سهادنا البالي من أجل ولادةٍ مغتسلةٍ بالثلج والشمس. انا ناعم بالراحة ونوشي أجسادنا بالفضة والنجوم، ونظهر أمام بصر العالم حبتين من رمل فوق شطآنٍ عاريةٍ ساخنة. نشيحُ بوجهينا عن العالم والزمن ونقرأ معاً الكلمات المتدفقة من الغصون، وكأننا ضباب عذب يمضي بجسد الحياة».

١٠/٢٧ الساعة الثالثة بعد الظهر

«أين أنت أيها الشاعر الرقيق فأنا بحاجة اليك أكثر من ذي قبل. بحاجة لأن تضميني إلى صدرك. بحاجة إلى أن أبكي فوق عنقك أكثر من بكاء كل أطفال العالم لأشعر بعدها بالراحة والفرح، لا تقل شيئاً أيها الشاعر فأنا ما زلتُ سكرى بحبك الأبيض. أين أنت الآن. في أي مكان؟ سكين الفصام تكوي نفسي، ومذبة الرحيل والمسافات تطعن جسدي. لماذا أنا وأنت غريبان؟!»

١٠/٢٩

«فراغ.. فراغ.. ظلمة موحشة كالقبر تحيم على روحي.. ارتعاشاتُ الدم في مفاصلي تهر الجراح التي انفجرت منذ الازل.
سأحفر كهفاً في هذه الأرض المطعونة. سأحفره في جدار العقم الحاضر على مستقبلًا يطل بعد ليالي الألم».

١١/٩

«صامتة، كاتمة أسراري، أجوب العالم. ليس من أحد يدرك حقيقتي.. لكنك قد تعلمين وأعلم أنا. وربما لا تعلمين ولا أعلم أنا. لماذا أهب من أحلى ساعات نومي لأرصد وأتابع الصمت والاختلة التي تتراكم على شاشة الذاكرة! بامكاني في هذه اللحظة معانقة أية طفلة أصادفها وأناديها: ابنتي. اذ ذاك ستبارك النجوم الثلاثة فوق رأسي صدق مشاعري. أي حلوتي! ما الليل؟ ما الموت؟ ما الحب؟ ما الخطيئة؟ ما الخوف؟ ان فرحي يعودتك يساوي لقاء المحارب العائد لبيتهم القديم».

١٠/٢٧

«عندما يرتفع الجدار بيني وبينك يشتعل حزني. لا أستطيع ان أفصح لك ولهذا لا أجد لي ملجأ إلا الهرب منك. كم أود وأنا جالسة الآن في هذه الباحة ان تمر في شارع علك ترى وجهي الموشى بالكآبة، وقلبي الذي يرتعش بجبك بشكل خاص.

قافلة من الدموع تنهر في قلبي، وآلامي تشع كالأضواء الذهبية. أواه ما أوسع الكون وما أضيق فرحي. لا أريد أن أترك خلقي أي شيء وأنا اهاجر. الليل تلاشى والنهار مغطى بأقنعة رمادية وأنا أندفع رويداً رويداً في طريق الموت. الموت جليل وكريه بدرجة واحدة. أريد أن أموت في أي مكان. في أي شارع. ولا أريد أن يعرف ذلك من تحبه نفسي.

نفسى حزينة وعلى روحي يخيم ضباب عميق. أخاف السفر إلى البلاد النائية ومع ذلك فهذا حلم جميل عذب.

في لحظات يأسي أرى رؤى جديدة. رؤى عن البدء الاول. أنا وأنت آدم وحواء في جنة مات كل من فيها. ونحن نعيد صياغة العالم من جديد. آه. العالم

٣٠٦

القديم كم أشعر بالحزن عليه وبالشفقة. انني أكفنه بالرحمة وهذا أقصى الحب. أسير بزهر في تلك الجنة. أبحث عن منابع الفلّ ورائحة الأطفال. أتمرغ فوق العشب. العشب الذي يشبه في طراوته وحنانه ذراع رجل أحبته. إن قلبي ضائع إلى ما لا نهاية. أیه. شابك يديك يدي واضغط خفيفاً ودغ أعماقي تهتر بالحزن المبدع. فعمّا قريب سنفتق».

سقوط

متعبه هي الشمس فوق مدينتي. انها تسير بترهل يشي بالموت. قلبي امرهق وعيناى تبعثان عن عينيك في صحارى مجهولة المدى. انظر إلى النجوم هذه الحقيقة القديمة التي نعرفها جيداً. لننسها قليلاً ونزّن إلى الأرض علنا نكتشف مكان الخل في نفوسنا. النفوس التي اعتكرت بطمي الزمن. آه. انظر أيها العاشق الوحيد كيف يتشكل الحزن عبر أيامنا كما يتشكل الطحلب على جدران القلاع العتيقة. ان ذلك يمزق القلب ويقهر العقل. ترى أحياتنا مجرد سقوط متواصل؟

جملة

زحزح هذه الصخرة القاسية عن قلبي، فلن أكون بعد ذلك عبيدة ولا مبالية. سأكون لك وحدك في ذلك الوقت.

هزيمة

«ما دام الموت يهزمتنا في أي مكان فلا بأس أن نعيش حياتنا كما نريد».

بلا تاريخ

«النسيان، مجرد وهم. قبر لأفكاري ومستقبلي. انني غارقة في قرار سحيق والحب الممتنع يغريني من الداخل. أحلم بأزهار وعشب وريح ملونة لأن الموت هو الحقيقة النهائية. قبل أن تأخذني الى كهف بعيد وترميني على التراب، أريد أن أكتب قصيدة طويلة مُصاغة من أشعة خالدة ربما تضمّد جروح الآخرين. وتذكّرهم بأن عليهم أن ينعموا بحياتهم إلى أن يأتي زمن الاحتضار».

٣٠٧

ثَمَنُ الذِّكْرِيَّاتِ

«من يشتري مني ذكرياتي بحبٍّ أبيض وشوقٍ أحمرٍ ولهفٍ سوداءٍ ورعشاتٍ رماديةٍ. أنا هنا على رصيف الحياة أمشي تحت أبط الزمن وكأنني في صدر حبيبي. من منكم يشتري؟ الأسعار متهاودة والذكريات كثيرة وأنا أعيش في زمن مفاجيء أبيعُ أُملاكِي قبل الرحيل. أنا على قارعة الطريق شجرةً بلا حارس. أنشر ذكرياتي كما ينشر الباعة المتجولون بضائعَ عَرَبَاتِهِمْ».

١٢/١٣

بصخب الريح العاصفة أمشي اليك. بولعٍ أودُّ لو أقاسمُكَ عواطفك أياها الصديق. الشوارع التي عبرنا تعبق برائحتنا، وكلماتنا القليلة امتصتها الأشجار والجدران في ذلك الشتاء الحزين. سلألتُكَ في دمي. فجأةً قررت ان اعطيك طفلاً وأنا أعرف ثمنَ ذلك. إنني مشتتة في هذه الأيام لكن فكرة انتقال دمك إلى صُلبي تملؤني بزهو يقاربُ احتفالَ الموت. رحلة مباغته كسبتُ منها الكثير. البحرُ والبراري حيث أوغلنا. أعطيتكَ في لحظة كالبرق جسدي ونفسي. من زمن بعيد وأنت ترغب ذلك وأنا أقول لك لا جدوى من هذا الالحاح، لكن حزنك العميق يومذاك اجتاحتني حتى الحَمَل.

كل شيء لديّ ملونٌ ومنعش. كل شيء مضيءٌ الآن. آه لو تستطيع الآن أن تحضّرَ لنفسي سريعاً سريعاً خارج هذه المدينة المسمومة. خارج هذا الزمن الخائق. ثمة أفكار قديمة. ذكريات مصبوعة بالدم تحاول أن تطلَّ عليّ في هذه اللحظة وأنا أحاول إبعادها. العالم الحديد الذي تحدثنا عنه يهبُّ في نفسي. بعيداً. بعيداً. قرب خلجان مغسولة بالموج والشمس. جبال نائية وأدغال وموسيقى تنبثق من العشب والفرح الجديد. آه. أي شيء أبدعُ من هذا. ان نعيدَ حكاية الكون من جديد.

استطراد

بيني وبينك برزخٌ وأنا عاجزةٌ عن العبورِ إليك.

١/١

لقد تعفّن الفرح في هذا الزمن الضيق. وكل الألوان استحالت إلى لون

القار. الصوت مخنوق على حواف الحنجرة. والجميع أصبحوا عشاقاً يحملون مرايا، وكلُّ يقول في غرفته الخاصة: يا ربّ نفسي. لقد امتلأ العالم بالخونة والسفاحين وباعة جرائم الشرف المتهك. لا أحد يمرُّ أن يقول: لا. الشوارعُ معبأة بمكسوري الظهور. العيون حباً وميضها. صارت كهوفاً للذلِّ من كثرة ما مارست غص الطرف. الغصُّ في كل مكان. في النفوس والاجساد. في الكلمات والمواقف. الشجر والحجارة والريح تضجُّ بروائح قدره لا تُطاق. وقلب الانسان هنا يُقايس من أجل زوجته. آه. الوطن معتلٌ فهل من يغسلُ الهواء؟

اعتراف

عندما تنتظرنني ولا آتي، أستطيعُ أن احدثَ بأحزانك القمرية. أنا لن آتي. تاريخنا المشروخ يقول ذلك، والعينان المتألفتان في عصر العيون المطفأة تقول ذلك. وأنا أعرف ذلك، ولهذا أهفو اليك بصمتٍ دون أن أفصح. ان نسلُك يستلقي في بحار دمي. نسلُك الشقيُّ المنسي من الله والزمن. من ألوف الأعوام أعرف مدى حزنك ولهفتك لاعتناقي. لكن حبنا البائس ليس أكثر من صيحة مذعور في وادٍ خالٍ. آه أنت مقيم وأنا مسافرة. سأهجركم جميعاً تاركةً لكم الندم. لقد أحببتك وكرهتك بدرجة واحدة. هل تستطيع أن تحلَّ هذه المعادلة؟

هروب

ربما كنتُ أنتمي بجسدي فقط إلى هذا العالم. هل هذا يفسر انشطار الانسان هنا بين الحاضر والمستقبل؟

يوم خاص

الحزن يعمّ الأرض. الآلام تعرت كما الشمس، والأطفال حزاني في مخابهم السرية حيث يتوسدون أرض الموت والحياة. أين طفلي الذي أكله العنكبوت والنسلين. طفلي الذي مرّفته المشارط.

قبل لحظات كنتُ أتوسد منضدة العمليات في غرفة محشوة بالسكاكين ورائحة الكلوروفورم. أوثقوني بالأحزمة وفتحوا ساقي. أيها الطبيب الجزار: قف قليلاً قبل أن تحرك الآلات الحادة. هناك بعض لحظات أريد أن اكتشفها. فجأةً اقتربت امرأة مشحنة بالسواد ووضعت المخدر على أنفي. امرأة قاسية الملامح لا تعرف كيف

تبتسم. وهذا الرجل الانساني الذي يعرف بمهارة كيف يمزق الرحمَ ويشرطُ
الأطفال دون أن يرفَّ له جفن. ببرود يدس رزمة من النقود في جيب زوجته.
هل سيفغر لي العالم ما حدث. لا بد من ذلك يا صديقي لا بد.

ارتقيت درج المشرحة وتوسدتُ بهدوء. اقترب المخدر ممدوداً كالنطع بين يدي
المرأة القاسية الملامح. ١، ٢، ٣، ٤، ٥، ٦... الغيبوبة. نصف غيبوبة. شيء
حاد كالسيف يخترقني فيسري الألمُ من الرحم إلى القلب. دوارٌ مسكون بالفولاذ
يسحقُ جسدي الذي أحببت. كواييس ونعوش محمولة نحو مقابر بعيدة مظلمة.
صوتُ طفلنا الذي سيولد مشوهاً يصبحُ فلا يُسمعُ صوته. ما الفائدة؟ لن تكبر ولن
تنمو. مثلك مثل أطفال بلادي الذين لا ينمُون. لن نقرأ أشعاراً ونرى وشمَ الدم
على جباه الملايين الذين قصفوا وهم أحياء. لنر تدخن وتشمَل وتطارَد الفتيات، ولن
تكون لك أحصنةٌ وسيوفٌ من خشب.

انني أستيقظ بعد أن انتهى كل شيء، كما ينتهي الربيع وأيام الآحاد العذبة.
لقد انتهت المذبحة، والطفل الذي وُلِدَ الآن مرمي في صينية بيضاء. كتلة من اللحم
والدم الممزق لا علاقة لها بالآدميين. لقد ولدت الأرض المطعونة طفلاً عليل الجسد
عليل النفس.